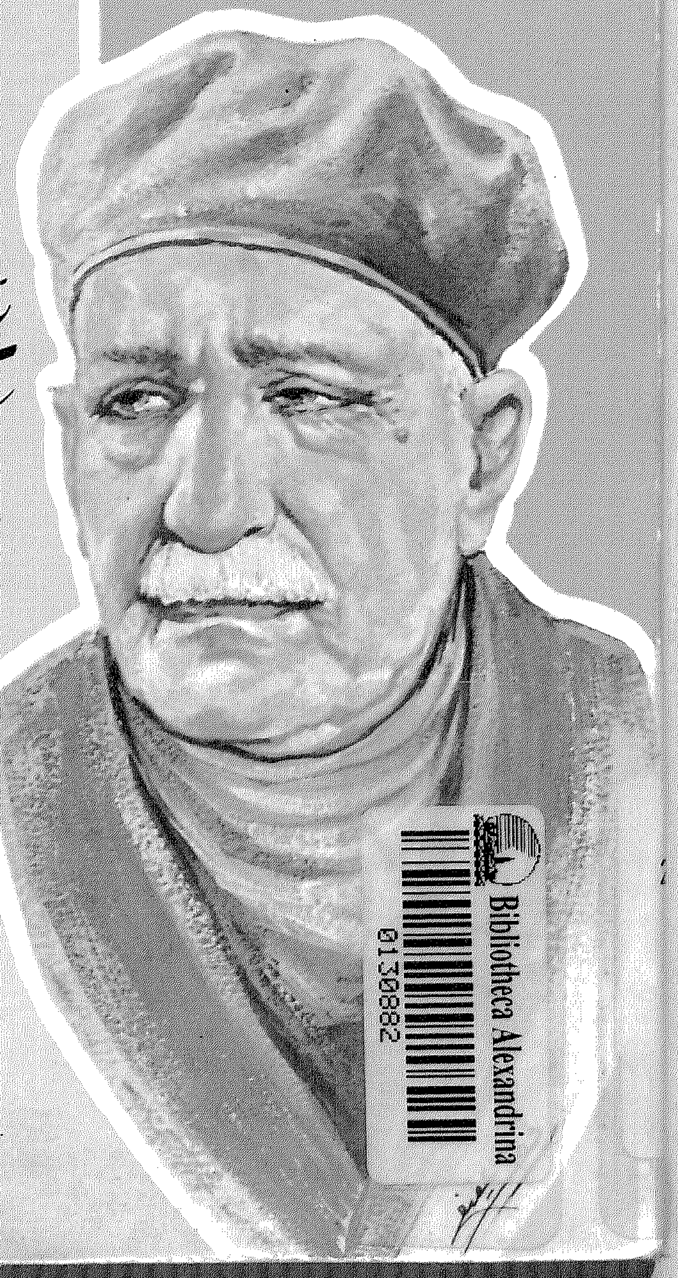
عباس محمود العقاد

عبقرية عثمان

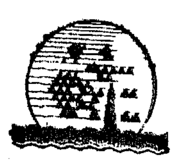


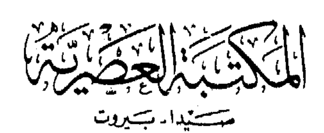
منشورات المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

عثمان ابن عفان

ذو النورين

عباس محمود العقاد





صيدا - بيروت

شركة أبناء شريف الأنصاري

فروعها المكتبة العصرية
الدار النموذجية

بيروت - ص.ب ٨٣٥٥ - صيدا - ص.ب ٢٢١

تلكس: SCS ٢٩١٩٨LE_٢٠٤٣٧LE

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم اني أحمدك حمد الشاكرين ، وأشكرك شكر الحامدين ، واصلي واسلم على خير خلقك ، وحامل هديك ، وقبس نورك ٠٠ محمد بن عبد الله ٠٠ وآله وصحبه ، ومن سلك نهجه وسار على دربه ٠

وبعد ٠٠ فنحن بين يدي نفحة اخرى من نفحات الاستاذ العقاد ٠٠ نتفيأ ظلالها ، ونقتطف ثمارها ، ونرتشف رضابها ، ونعيش أحداثها ٠٠ مع أحد الشهداء الابرار الاطهار ، الذين تركوا بصمات جلية في سجل العظمة والانتصار ٠٠ مع ذي النورين ٠٠ عثمان بن عفان ٠

ومقصد كاتبنا فيما يكتب ، تعريف بالنفس الانسانية في حالة من أحوال العظمة والعبقرية ، أو حالة من أحوال النبل والاريحية ، وذلك من خلال المواقف والاحداث فحسب ٠

وسيرة عثمان ما هي الا نمط من أنماط متعددة ، زخرت بها الدعوة الاسلامية من سير الخلفاء ، وغير الخلفاء كأبي عبيدة ، وخالد ، وسعد ، وأمثالهم من الصحابة والتابعين ٠٠ ما منهم الا من كان عظيما بمزية ، وعلما من أعلام التاريخ ٠٠

فأين كان هؤلاء من العظمة ، ومن تاريخ بني الانسان ، لولا العقيدة الدينية ، والرسالة المحمدية ؟؟؟

وسيرة عثمان لا تبرز لنا عبقرية كعبقرية الصديق أو الفاروق أو الامام ، وانما تبرز لنا من جانب الاريحية صفحة لا تطوى ، ولا يستطيع العقل الرشيد أن يرجع بها الى باعث غير باعث العقيدة والايمان ٠

وان أبرز الخصائص في تاريخ العقيدة ، أنه تاريخ قيم ومبادىء ، وليس بتاريخ وقائع وأحداث ، والوقائع والاحداث على اختلاف العصور ، وتكرر الصور ، متشابهة في ظاهرها ، مختلفة في باطنها ، والقيم النفسية التي تكمن وراءها ٠٠

لذلك لم يكن مقتل عمر كمقتل عثمان ، فبواطن الحادثين والقيم النفسية الكامنة وراءهما متباينة ، لان عمر قتل بيد دخيلة على الاسلام ، وبتخطيط من خصوم الاسلام ، أما عثمان ٠٠ فقد قتل بأيد مسلمة ، حركها وقادها الدهماء الشاغبون ٠

ولقد تساءل الكاتب : ماذا صنعت العقيدة اذن بنفوس الحاكمين والمحكومين ؟ وماذا تغير في الامر عما كان عليه من فتك الجاهليين بعد قتال المؤمنين ، وايمان الكافرين ؟

ولكنه استدرك بأن العقيدة لا تبطل الخلاف والنزاع ، ولا تلغي الحوادث والخصومات ، والا كانت شللا معطلا لحياة الأمم ، ومعوقا لمجرى التاريخ ..

ولا عجب اذن ان كان الناس قد ابتلوا بشرور تفوق الخصومات ، اذ ليس المطلوب من العقيدة ابطالها ، وانما أن ترتفع بالنفوس عن أن تكون في غير شأن ، أو شأن هزيل ضئيل ، فدورها الحقيقي : ايقاظ القيم ، وتحريك الهمم .

وعلى هذا لم يكن مدار البحث الخصومات والاحداث ، وانما القيم والمبادىء التي دارت عليها الخصومات والاحداث .. ولقد كان مدار الخصومة ، محاسبة الرعية للامام ، ومحاسبة الامام لنفسه .

وقارن الكاتب بين ما كان عليه أبناء الجاهلية والبادية وحكومات الجزيرة العربية من غمط حق المحكوم في محاسبة الحاكم ، حيث كانت شرعة الحكام وقتئذ طغيانا مطلقا من جميع القيود ... وبين ما وصلت اليه الأمور في آطار التطور الى حد محاسبة الخليفة على كل صغيرة وكبيرة ، ومن كل صغير وكبير ، وهذا ما حققته العقيدة الاسلامية على أعقاب الجاهلية .. ولئن كانت المآرب الذاتية وراء كل محاسبة لعثمان ، فان هذا كان عيب الحركة ، وان لم يكن عيبا لحق المحاسبة ، لان محاسبة الحكام كانت قيمة جديدة في الصدر الاول من الاسلام ، فنادى بها الخاصة والعامة ، وظلت عاملا مهما في السياسة أيام الخلافة ، وبعد أن صار الحكم ملكا متوارثا ..

ولقد بلغ عثمان الذروة في محاسبة نفسه ، وتحرجه من المساس بالحياة البشرية ولو في سبيل الحفاظ على حياته ، فلما أيقن القتل رفض أن يبقى في داره من يقتل أحدا ممن يحيطون به ، ولما طلب منه التنحي أبى ، ولم يكن اباؤه حرصا منه على السلطان ، فلا شيء أغلى من الحياة وقد هانت عليه ، ولا يزعم أحد أنه غنم من الخلافة مالا ، فقد ترك الدنيا وماله دون ما كان عليه يوم استخلف ، ولكنه خاف جريرة التنحي ، وما سيعقب ذلك من نزاع وقتال .

وان من خلط المؤرخين ، أنهم يجعلون التطور السياسي ومقتل عثمان شيئا واحدا .. فعبد الله بن سبأ الملقب بابن السوداء ، أهون من أن يحدث التطور السياسي ، وليس بكثير عليه في الوقت نفسه أن يتحمل جريرة قتل عثمان ، وعلى هذا .. فالتطور السياسي غير مقتل عثمان ، وكل منهما له أسبابه وعوامله ..

وفاجعة عثمان لا ينظر اليها كما ينظر الى مصارع رؤساء الدول في عهد الثورات .. مثل الثورة الانجليزية مع شارل الاول ، والفرنسية على لويس

السادس عشر ، فشتان ما بين المقتلين ·· فالصراع في هاتين الثورتين كان بين قوة الأمة وقوة العرش ، فكان أشبه بحرب انتهت بهزيمة أحد الطرفين ، أما مقتل عثمان فلم يكن هكذا ، وانما كان أشبه بحادثة محلية تمت على اثر مشاغبة جامحة من مشاغبات الدهماء ، ولو كان الاجناد والحراس على باب عثمان ـ كغيره من الحكام ـ ما قتل هكذا ·· فلا محل اذن للمقارنة بين قوى الدولة ، وقوى الفتنة والمشاغبة · ولا محل ـ كذلك ـ للموازنة بين عوامل الانقلاب السياسي ، وعوامل الدفاع عن شخص الخليفة في داره ، فعوامل التطور بقيت بعد عثمان وازدادت ، ولم تؤد الى مقتل ملك أو وال من كبار الولاة في أرجاء الخلافة ·

وبين الكاتب ان أسباب التطور السياسي ومقتل عثمان في حاجة الى نظر ، لانها اما أسباب مزعومة ، أو صحيحة لم يظهر أثرها الا لاقترانها بأحوال تلك الفترة ، ولو كانت في زمن آخر ، لما ظهر لها هذا الاثر ·· وذكر ما قاله معاوية من أسباب الفتنة ، وما قاله محمد بن سليمان المتفلسف ، وما كتبه الاستاذ محمد أحمد جاد المولى في كتابه « انصاف عثمان » ·· وقام بتمحيص راي معاوية وتحليله ، متهما معاوية ـ وقد جعل السبب في عدم اختيار عمر وتركه الامر للشورى ـ بأنه كان يهدف الى تنفيذ مآربه في ولاية العهد ، وأيد ذلك بترشيحه لابنه يزيد من بعده ، ورأى أنها خطة خالية من الحصافة والتجربة ، لما جرته من خلافات وصلت الى أقرب الاقربين ·· وتناول الاسباب الواقعة ، التي تسببت في الفاجعة ·· فعدد بعض الامور التي استحدثها عثمان، واخذت عليه ، ودافع عنه فيما اتهم به ، مبينا ان جمع القرآن في نسخة وحرق ما عداها ، قد سبقه الى ذلك الصديق والفاروق عند تنفيذ فكرة جمع المصحف ، فكان عملهما محمودا ، ومن أنكره لم يلبث أن ارتضاه ·· وما استحدثه عثمان مخالفا للمألوف ، سبقه الى مثله عمر ·· حين منع زواج المتعة ، ونقص من أعطيات المؤلفة قلوبهم ، وأعفى من حد السرقة عام المجاعة ، ولم ينكر عليه أحد ذلك ، ولم تقم ثورة ، ولم يحمل سلاح ·

واعتبر الكاتب ان هذه الامور وغيرها أسباب ولا أسباب ، وانها بين أسباب مزعومة ، أو أسباب صحيحة ولكنها لم تفعل فعلها الا لاقترانها بأحوال تلك الفترة ، وهي فترة ما بين الخلافة والملكة ، حيث اضطرب الوزن والسخط والرضى ·· في حين ان عثمان لم يكن في قوة أبي بكر وعمر ، بل ان عمر نفسه أحس ببوادر هذا الاختلاف قبل مقتله ، حتى قال في دعائه : « اللهم كبرت سني ، وضعفت قوتي ، وانتشرت رعيتي ، فاقبضني غير مضيع ولا مفرط ··· » ·

ولقد استعرض العقاد آراء النسابين والمؤرخين في نسب بني أمية ، واستخلص منها أسباب المنافرات التي شهدتها الجزيرة بين بني هاشم وبني أمية ·· وان ظاهرة الاستلحاق والتبني التي كانت شائعة في بني أمية ، لم

تكن الا وسيلة من وسائل تدعيم العصبية ، ليقوى شأنهم في مواجهة بني هاشم ، وان تلك المنافرات تدخل في سيرة عثمان مداخل شتي ، وان كل عمل من أعماله ، أو خلق من أخلاقه له صلة بتلك المنافرات ٠٠ وان سبق عثمان الى الاسلام ـ وهو من تلك الاسرة بالذات ـ كان يعد فضلا له لا يداينه فضل ٠٠ فقد أسلم رغم تلك الحواجز العريقة من المنافسة والملاحاة بين بني أمية وبني هاشم ، وشريعة العداوات في الجاهلية تقف حائلا منيعا دون ذلك ٠٠ فعتبة ابن ربيعة لم يدخل حلف الفضول مع اعجابه به ، خشية أن يؤثر ذلك في علاقته بأسرته ، حتى قال : « لو أن رجلا وحده خرج من قومه لخرجت من عبد شمس حتى أدخل حلف الفضول » ٠٠ وشتان ما بين حلف الفضول والدخول في الاسلام ، فحلف الفضول لا يهدم معتقدا ، ولا يغير دينا ٠٠ والاسلام جاء بهدم المعتقد الموروث من عبادة الاصنام ، وفضلا عن ذلك فان اتباع محمد يرفع من قدر بيت عبد المطلب ، ويكسبه شرفا لا يصل اليه شرف بين الناس قاطبة ٠٠

لذلك لا نعجب من الاهانات التي لقيها الرسول من الحكم بن العاص ، وعقبة بن أبي معيط ، وكلاهما وثيق الصلة والقربى بعثمان ، ولا نعجب ـ أيضا ـ مما لاقاه عثمان بعد اسلامه على يد عمه الحكم ، بغية أن يرده عن الاسلام فلم يفلح ٠

وعثمان كان في قبوله للاسلام سريع الاستجابة ، مفتوح القلب ، متطلعا الى الحق ، لانه كان في ضميره باعث مطاع الى الايمان بالدين الجديد ٠ وبعد أن اعتنق الامويون الاسلام ، انتهت المنافرات والمفاخرات بينهم وبين بني عبد المطلب ، وما من أموي أسلم كان يتعالى الى مطاولة آل النبي ، ولكنهم مع هذا كانوا يودون في قرارة أنفسهم أن يسمعوا عن أمية كلما سمعوا عن هاشم ونبيه ٠٠ حتى ان عثمان نفسه استحضر في خلافته رجلا نسابة من حضرموت ، وسأله : أرأيت عبد المطلب ؟ قال : نعم ٠٠ رأيت رجلا قعدا أبيض طوالا مقرون الحاجبين ، بين عينيه غرة يقال : ان فيها بركة ، وان فيه بركة « فعاد يسأله : أفرأيت أمية ؟ قال : نعم ٠٠ رأيت رجلا آدم دميما قصيرا أعمى ، يقال : انه نكد ، وان فيه نكدا » فقال عثمان : حسبك من شر سماعه ٠٠ وصرف الرجل ٠

ولد عثمان بعد ستة أعوام من عام الفيل ، وكان أبوه من التجار الكبار ، فعاش في رغد من العيش ، ومات أبوه وعثمان في مقتبل العمر ، وتزوج عقبة ابن أبي معيط من امه أروى البيضاء بنت عم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان له خالة كاهنة ، ومن جهة امه كان جنوح طبيعته للتدين الذي عرف عن بني هاشم ، ولعل اجابة امه على شكوى زوجها عقبة من عثمان خير دليل على ذلك ، فحينما قال لها : ان ابنك قد صار ينصر محمدا ، لم تنكر ذلك من ابنها ، وقالت : ومن أولى به منا ، أموالنا ، وأنفسنا دون محمد ٠٠ !!

اذن عاش عثمان مشكلة زوج الأم التي تنال اهتمام علم النفس الحديث ، وكان يشعر بالغضاضة من هذا الزواج،وينظر الى عقبة على أنه قد انتزع مكان أبيه ، وتمكن هذا الشعور من طويته ، فملأت الريبة نفسه في الاوضاع القائمة ..

وكان عثمان مشهورا بالجمال والحياء ، بالاضافة الى عذوبة روحه ، وحلاوة شمائله ، ومحبته لدى عارفيه ، وكان فيه حزم وصفه به أبو بكر يوم دعاه الى الأسلام قائلا : « ويحك يا عثمان ، انك لرجل حازم ، ما يخفى عليك الحق من الباطل » وكان سريع الاستجابة للحق ، فما أن قال له أبو بكر ذلك ، حتى مر رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ومعه علي بن أبي طالب ، فقام أبو بكر للرسول ، وأسر في اذنه بشيء .. يقول عثمان : فجاء رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقعد ، ثم أقبل علي ، فقال : « يا عثمان .. أجب به الى جنته ، فاني رسول الله اليك والى خلقه » قال عثمان : « فوالله ما تمالكت حين سمعت قوله ان أسلمت ، شهدت أن لا الـه الا الله وحـده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله » ..

ومن بين خلائـق عثمان التي قالها عـن نفسه ، أنه كـان في الجاهلية مستهترا بالنســاء .. وساق الكاتـب نموذجا لترفـه في العيش ، ونموذجا لنظرته الى المال .. واستخلص من ذلك ، أن خلائق عثمان كانت الى الطيبـة والسماحة ، أقرب منها الى صفات البأس والصرامة ، وان نشأة العيش الخفيض صحبته من صباه الى شيخوخته .

وأتى الكاتب بحادثة خصومته مع أبي عبيدة وبعد أن برأ عثمان مما أخذ عليه في تلك الحادثة ، عقب عليها بأن المعارك لم تحفظ لعثمان موقفا من تلك المواقف النادرة التي تتناقلها الألسنة ويتساير بها الركبان الا أن فضيلته العليا هي السخاء حيث يعز السخاء على أمثاله من ذوي الثراء وهذه هي آية العقيدة في مناقب عثمان .

فقد آلى على نفسه أن يسبق أكفاءه في ميادين الجود والسخاء ، لانه لم يستطع أن يسبقهم في ميادين الجهاد والفداء .

ولقد عاب الاستاذ العقاد على جمهرة المؤرخين وصفهم لعثمان بالضعف ، مبينا أن القول بضعف عثمان صعب على من يعلم أن السماحة نفسهـا قـوة لا يضطلع بها طبع ضعيف ، وان عهد عثمان لم يخل من عمل يدل على قـوة نفس ، ومناعة خلق ، وثبات لا يتزعزع أمام الهول والخطر .. فكان اسلامه تحديا لخاصة أهله ، وتلقى صدمات في بداية خلافته لم يتعرض الفاروق لأخطر منها في جميع أيامه .. وليس من السهل أن يوصف بالضعف رجل يحيط به خطر الموت من كل جانب ، ولا يذعن لمن توعدوه به ..

ثم بين الكاتب ان عثمان كان وسطا بين الانقياد والاقتحام ، وان انقياده لأبي بكر حين دعاه للاسلام لا يشينه ، لانه انقياد للاكبر ، وان انقياده لمروان بن الحكم الذي تغنى به المؤرخون ... فانسب ما يقال فيه : انه طاعة : طاعة اختيار وليست طاعة انقياد ، ولم تكن يوما بطاعة الضعيف يلعب به القوي ، بدليل ان عثمان كان يسمع لمروان اذا أصاب ، ويعرض اذا اخطأ .

ثم تناول المؤثرات التي أثرت في شخصيته سواء أكانت من فعل البيئة ، أم من فعل العقيدة .. فمؤثرات البيئة : وراثته الأموية ، ويتمه في صباه ، ونشأته في بيت يتولاه غير أبيه ، وانتماؤه من جانب الأمومة الى بيت عبد المطلب ، واصابته بالجدري في شبابه ، وبعض النفسانيين يرى ان الجدري اذا اهمل علاجه يترك أثرا في بنية المصاب ..

وأما أثر العقيدة : فانها لم تبطل سماحته ، ولم تغض من قيمتها ، بل زكت فيه تلك السماحة ، وجعلتها مزية له .

وأما عن ثقافته .. فانه كان عالما بالانساب ، والامثال ، وأخبار الايام ، وعرف من أطوار العرب وأحوالهم ما لا يعرفه غيره ، نظرا لكثرة رحلاته ، ومعاشرته لغير العرب ، كما كان خبيرا بمعارف البادية ..

وكان فقيها بأحكام الدين ، وأحفظ المسلمين لكتاب الله ، وروى قرابة مائة وخمسين حديثا ، وقال فيه ابن سيرين : « ... كان أعلمهم بالمناسك عثمان ، وبعده ابن عمر » ..

وكان سفيرا بين المسلمين وأعدائهم مما جعله على دراية بمجريات الاحداث ..

واعتمد عليه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في تدوين الوحي ، كما اعتمد عليه أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ في كتابة الوثائق الهامة .. واكتسب من ترحاله في البلاد لباقة في الحديث ، حتى قال فيه عبد الرحمن بن حاطب : « ما رأيت أحدا من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان اذا حدث أتم حديثا ولا أحسن من عثمان بن عفان ، الا انه كان رجلا يهاب الحديث » .. وكان الرسول يحب حديثه ، ويتوق الى سماعه في بعض أوقاته .. وروي عنه شعر لم يطمئن الكاتب الى أنه قائله ..

وعرض بعض كتبه الى عماله ، وامراء الاجناد ، والجباه ، مشيرا الى أن هذه الكتب لا يمكن أن تكون من املاء مروان بن الحكم ، لان بعضها قد بدىء وختم بآيات من القرآن تلائم ما يدعو اليه ، أو ينهي عنه ، ولم يكن مروان حافظا للقرآن مثل عثمان ، كما أنها ناطقة بخلائق عثمان .. وتميزت كتاباته وخطبه بالسلاسة والبساطة ، وعدم التكلف ، والبعد عن الاطناب .

وعلى مدى ثلاثين عاما سبقت اسلام عثمان عاصر خلالها أحداث الجزيرة العربية ، وتاريخ العالم ، ثم دخل الاسلام فشهد عهد النبي ، ووقف على اخباره العامة والخاصة نظرا لمصاهرته له ، واتصاله بالدعوة من البداية ، كما وقف على أخبار الخلافة في عهد أبي بكر وعمر ، وكان على دراية بكل أعمال التأسيس في الدولة الاسلامية ..

واستعرض الكاتب الآراء التي وردت في سر تسميته بذي النورين .. وبين ان ملازمته للرسول لم يقطعها الا الاذن له بالهجرة ، أو اختياره لمهمة لا يغني فيها سواه ، وكان شأنه من ذلك شأن الخلفاء الراشدين جميعا ، كأنما هي خاصة من خواصهم ، رشحهم لها ما رشحهم بعد ذلك للخلافة متعاقبين دون حاجة الى مفاضلة وترجيح ..

كما ساق العديد من الامثلة على بذله وسخائه ، وانه كان أمينا على سر الرسول ، الذي توفي وهو راض عنه ، وكان مفخرة لاي صحابي أن يقال عنه : ان رسول الله توفي وهو عنه راض .. فكان عثمان في طليعة من تحسب له تلك المفاخرة ، وان كان خصومه حاولوا أن ينزلوا شيئا من منزلته باتهامه بالتخلف عن وقعة بدر ، وبيعة الرضوان ..

وفي عهد أبي بكر كان عثمان من اقرب المقربين اليه بعد عمر ، خاصة وانهما كانا صاحبين قبل الاسلام ، وكان بينهما تشابه في الطباع والاخلاق ، وما تقدم عمر على عثمان عند أبي بكر الا من أجل المصلحة العامة ، لان أبا بكر وعمر كانا أوفق اثنين بين الصحابة للعمل معا في مهام الخلافة الاولى .. فتلازما وتشاورا ، وتقارب بينهما في الدعوة ما تباعد في الخلق والخليقة ، وكان أبو بكر يرى ان عثمان أهل للخلافة ، فلقد قال له لما أفاق من غشيته التي لحقته وهو يملي عليه وثيقة الاستخلاف : من كتبت ؟ فقال : عمر ، فقال أبو بكر : بارك الله فيك ، بأبي أنت وامي لو كتبت نفسك كنت لها اهلا . وأبو بكر اذ يرى عثمان اهلا للخلافة ، فانه كان يرى في الوقت نفسه ان عمر أحق بها منه ..

وجاء عمر .. فلازمه عثمان ، وركن عمر الى مشورته ، وعمل بها في كثير من الامور ...

ثم جاء عهد عثمان .. وعلى الرغم من تمرسه الطويل بشئون الدعوة والخلافة ، وتربيته السياسية التي لم يحظ بها أحد من الخلفاء ، فانه لم يعمل في خلافته عملا على غير سابقة تشبهه في كل شيء الا في ظروفه وملابساته ، مع ان الظروف والملابسات قد تغيرت !! فكانت عدة ولا عدة .. وهذه احدى النقائض الكبرى التي تأصلت في عهده .. ونقيضة اخرى كانت تضاف لمفاخره ، فصارت تحسب على معايبه ، وهي سبقه بني أمية الى الاسلام ، مع بقاء من يعودونه وهم كافرون أو مرتدون ، فكان ذلك نكيرا منفردا بين جلة الصحابة بعد انتهاء أمر الشرك .

وتناول الكاتب موضوع زواج عثمان من بنتي رسول الله : السيدة رقية، والسيدة أم كلثوم ٠٠ ثم زواجه من احدى الاجنبيات ، وهي نائلة بنت الفرافصة ٠٠ فكانت مثالا رائعا في حبها ووفائها لعثمان ، وكانت لها حظوة عنده ، لادبها ، وذكائها ، وحسن قولها ، واعتبر الكاتب ان حبها وطاعتها لعثمان مقياس يقاس به الرجال النابهون٠٠فقد انعكست عليها شخصية عثمان، وايمانه ، وكرم نفسه ، وتحنفت على سنته ٠٠ في الوقت الذي خاض معاوية نفس التجربة ، ففشل ، وآثرت زوجته الاجنبية عيش البادية على عيشه ، وعافت قصره بالشام ، وكانت من نفس قبيلة نائلة ٠٠ وفرق كبير بين سن معاوية وعثمان ، وقصور الشام وقصور الحجاز ، وهذا خير دليل على ان عثمان لم يكن رجلا امعة ، أو شيخا هزيلا ، وانه كان قوي التأثير فيمن حوله ٠

وعن شئون المجتمع ٠٠ ركز العقاد على التغييرات التي طرأت على المجتمع الاسلامي ، وصاحبها عثمان ٠٠ فصاحب الدعوة منذ أن كان أتباعها أفرادا قلائل ، وصاحب الاسلام في جهاده حتى انتشر في الجزيرة العربية قبيل وفاة النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ ٠٠٠ ثم صاحب الاسلام في جهاده وفتوحه التي أوشكت أن تحيط بالعالم المعمور في عهد الشيخين ٠٠٠ ثم صاحب الجهاد والفتوح في عهد خلافته ، فلم تمض الا سنوات قلائل حتى بسط الاسلام سلطانه على المعمورة كلها ، عدا ما كان في أقصى المشرق ، أو أقصى المغرب ٠

وتناول ما طرأ على المجتمع الاسلامي من وفر وثراء ٠٠ حيث تضخمت الثروات في أيدي المسلمين ، حتى جاء في مصادر متعددة ان عبد الرحمن بن عوف خلف ذهبا كان يقطع بالفؤوس حتى تمجل أيدي الرجال ، وترك ألف بعير ، وثلاثة آلاف شاة ، ومائة فرس ، وقسم ميراثه على ستة عشر سهما ، فبلغ السهم ثمانين ألف درهم ٠٠ ولم يكن هذا الثراء قاصرا على ابن عوف وحده ، بل كان هناك غيره من أمثال الزبير ، وطلحة ٠٠ حتى قال محمد بن سيرين : « كثر المال في زمن عثمان ، فبيعت جارية بوزنها ، وفرس بمائة الف درهم ، ونخلة بألف درهم » ٠٠ وعلل سر هذا الثراء ، بأبواب التجارة التي تفتحت أمام المسلمين ، ونظرة المسلمين الى المال على انه وسيلة تحقق الغايات الكريمة ، وليس غاية تستبيح الوسائل المحظورة ، وان الترف رذيلة مزدراة ، بالاضافة الى غنائم القتال التي لم يوافق القائلين على أنها السبب المباشر للثراء ، اذ لو كان الامر كذلك لم يكن في وسع ابن عوف وغيره أن يجمعوا من الانفال كل هذه الثروة ، ولم يكن التفاوت في الانصبة بين أكبر وأصغر عطاء يحقق تلك الطفرة لدى اناس معدودين دون سواهم ٠٠

ولقد بلغت مشكلة التضخم المالي ذروتها في خلافة عثمان ٠٠ بعد مرحلة من الملل والسأم في نهاية عهد عمر ، تطور في عهد عثمان الى سخط وتمرد ، لذلك لم تدم الحالة طويلا حتى كان من الناس من يغضب باطلا ولا يخجل من

ذلك ، ومن يغضب حقا وليس على يقين من ان ولاة الامـر أحق منه وأجـدر بالفضل والطاعة ، وكان منهم من يحار بين الفريقين ، ولا يدري أين الصواب ٠

وفي عرض الكاتب لمبايعة عثمان ٠٠ قدم لذلك بأن ما قام به الشيخان في تولية العهد ، كان بمثابة ابراء للذمة أمام الله ٠٠ حفاظا على المسلمين من الخلاف والتفرق ، فأزال بذلك كل شبهة ، ودحض كل افتراء ، وبدد كل هم ، ورد على من اتهمهما بالاحتيال والتدبير ٠٠ اذ لو كانا يرميان لتحقيق مآرب ، أو اتباع هوى ، لاختار أبو بكر من تميم ، وعمر من عدي أو بني الخطاب ٠٠ والنظام الذي اتبعاه كان سيتبعه كل منهما لو وضع مكان الآخر ، اذ لم يكن البحث لديهما ، أي أولياء العهـد أفضل وأحب اليهما ، وانمـا أيهم أحب الى المسلمين ، وأجدر أن يجمعهم على بيعة واحدة ، وكلمة سواء ٠٠

وعمر لم يكن في تركه الاستخلاف منقاد الهوى، اذ لو كان كذلك لاستجاب لقول المغيرة بن شعبة حينما رأى حيرة عمر فيمن يختار ، فقال له : « أدلك عليه ؟ عبد الله بن عمر » ولكن عمر نهره قائلا : « قاتلك الله ، والله ما أردت الله بهذا ٠٠ ويحك ٠٠ كيف استخلف رجلا عجز عن طلاق امرأته ؟ لا ارب لنا في اموركم ، فما حمدتها فأرغب فيها لاحد من أهل بيتي ٠٠ ان كان خيرا فقد أصبنا منه ، وان كان شرا فقد صرف عنـا ٠٠ بحسب آل الخطـاب أن يحاسب منهم رجل واحد ، ويسأل عن أمر أمة محمد ٠٠ أما لقد جهدت نفسي ، وحرمت أهلي ، فان نجوت كفافا لا وزر ولا أجر اني لسعيد ٠٠٠ » ٠

وعمر من خلال أقواله وأحواله تبدو الحيرة مسيطرة عليه ، فهو حذر لربه ودينه ، ويخشى أن يتحملها حيا وميتا ، ولذلك كان يحاول أن يستند في موقفه الى ما يريح نفسه ، وأثر عنه قوله : « ٠٠٠ انظر ، فان استخلف فقد استخلف من هو خير مني (يعني أبا بكر) ، وان أترك فقد ترك من هو خير مني (يعني الرسول) ، ولن يضيع الله دينه » ٠

ومجلس الشورى الذي اختاره عمر ، والمسئوليات التي أناطها به ، خير دليل على عظمته ، وحيطته ، ودقته ، وحكمة تدبيره ٠٠ وأشاد الكاتب بالدور الذي قام به عبد الرحمن بن عوف ، حيث خلع نفسه من حق الاستخلاف ، وقام بدور المحاور بين الباقين الى أن رجحت لديه كفة عثمان ، فأعلنه خليفة للمسلمين وهو يقول : « اللهم اسمع واشهد أني قد جعلت ما في رقبتي من ذلك في رقبة عثمان » وقام بمبايعته ، وتبعه المهاجرون والانصار ، وتبـاطأ علي ، فقال ابن عوف : « ومن نكث فانما ينكث على نفسه ومن أوفى بمـا عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما » ٠٠ فأسرع علي بمبايعة عثمان وهو يقول : « فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » ٠٠

ورد الكاتب على الافتراءات القائلة : بأن استخلاف عثمان كان خدعـة لعلي ، وأن عليا قال وهو يبايع عثمان : « خدعة وأي خدعة » ٠٠ واعتبر هذا

الزعم ضرب من ضروب المخترعات المألوفة ممن يحبون أن يسندوا كل شيء الى دهاء الدهاة ، وخديعة المخدوعين ٠

ولقد كان هناك شعور يخامر الصدور بأن هذه الحال لن تدوم ، وأنه لا بد من تغيير وتبديل ، وأنه جاء في أقوال الرسول والصديق والفاروق ما يشير الى ذلك ، فكان ترقب هذا التغيير تزداد مخامرته للصدور في فترات التوجس والترقب بين عهد وعهد ٠٠ ولما ذهب عمر بغتة كان الشعور السائد يومئذ شعورا بحالة يخشى ألا تدوم ، وخوفا من تغير لا يدري كيف يتقى ٠٠ ومن عجب أن عثمان نفسه كان يساوره هذا الشعور ، وتخامره تلك الحالة النفسية ، وظهر ذلك واضحا في خطبه التي كانت تدور حول فتنة الدنيا ، والوعد باتباع السنن واجتناب البدع ، وتهدئة النفوس من قبل ما تخافه ٠٠ ولكن النار كانت تحت الرماد ٠

ان خلافة عثمان أصعب خلافة قامت في صدر الاسلام ، ومحنتها فاقت محنة الصديق في مواجهة المرتدين ، لان المسلمين نهضوا للتصدي للمرتدين في صف موحد ، وتعاضد كامل ٠٠ أما عثمان فقد ابتلي في أول عهده بما يشبه هذه الثورة في وقت كثر فيه الاختلاف والتخلخل والتغير في الدواعي النفسية ، خاصة بعد ذهاب الهيبة العمرية ٠٠ تلك الهيبة التي كان يحسب لها الفرس والروم ــ أكثر من أبناء الجزيرة ــ ألف حساب ، وليس أدل على ذلك من قول رستم بطل الفرس المشهور : « أحرق كبدي عمر ، انه يكلم الكلاب فتفهم عنه » ٠

وما ان ذاع نبأ مقتل عمر حتى تلاحقت الثورات والفتن ، وتبردت قبائل الفرس والروم والترك ، ونقضت عهودها ، وكانت محنة تفوق محنة الردة في اتساع ميادينها ، وتباعد أطرافها ٠٠

ومع ذلك فقد أثبت عثمان كفاءته ومقدرته على مواجهتها ، فأسرع في تسيير النجدات ، وتصريف الامور بحزم وعزم ، وواجه تلك المحنة الجائحة بما أعاد للدولة هيبتها ، وثبت أركانها ، بعد أن اهتزت عقب مقتل عمر ، حتى أدرك الاعداء أن المسلمين لا يقدح من قوتهم موت خليفة ، أو تبديل قائد ٠

ومرة أخرى عاب الكاتب على اللائمين والعاذرين اتهامهم عثمان بالضعف، مبينا أن الضعفاء لا يتساوون ، ولا يلازمهم الضعف في كل ما يعملون ، والقوي في حالات أضعف من الضعيف في حالات ، والقول بضعف عثمان غير مقبول على الاطلاق ٠٠ واستند في ذلك الى الاعمال التي وليها عثمان ، وبرز فيها ، واتضحت قوته من خلالها ٠٠ خاصة معالجته لمشكلات الدولة الخارجية التي اعتمد فيها على الحزم والعزم والسداد والسرعة مع الحيطة والاناة والرفق في سياسة الاعداء والاولياء ، وكان معانا على ذلك بحمية الجند ، وكفاية القواد ٠٠

وعثمان في عزمه وسداده لم يركن الى اخماد الثورات التي قامت ، بل أمر قواده بمواصلة الزحف خارج الحدود ، حتى لا يعودوا فيثيروا الفتن والقلاقل من جديد ، وبذلك اتسعت الفتوحات الى حدود الهند والصين شرقا ، والى أبواب القسطنطينية وتخوم الاندلس غربا ، والى ما وراء بحر الخزر شمالا ، والى السودان وجوانب الحبشة جنوبا ٠

وعثمان في جرأته واقدامه حسم مشكلة غزوة قبرص ورودس وجزر بحر الروم ، لدفع الغارات البحرية عن شواطىء مصر والشام والقيروان ، وهذه مشكلة عرضت على عمر فتخوف منها ، لانه كان لا يحب أن يكون بينه وبين جيشه بحر أو جسر أو قنطرة ، وضرب بالحاح معاوية عليه في ركوب البحر عرض الحائط ، بل توعده ان فعل ، خاصة بعد أن هول له عمرو بن العاص أخطار البحر ، فأقسم عمر لا يحملن عليه مسلما أبدا ، وهادن ملك الروم من أجل ذلك ٠٠ فكان موقف عثمان تجاه هذه المشكلة من ادل أعماله على نصيبه من الاجتهاد والاقتداء ، وانه اقدم حيث أحجم من هو أشهر منه بالاقدام ٠٠ فقد كتب الى معاوية يأذن له بركوب البحر ، ويشترط عليه ألا ينتخب الناس ، ولا يقترع بينهم ، وأن يخيرهم ، فمن اختار الغزو طائعا حمله وأعانه ٠٠٠

وكان لاسطول المسلمين بقيادة عبد الله بن قيس الجاسي دور عظيم في تحقيق النصر ، والسيطرة على سبل الملاحة ، وقد كان لهذه الخطوة الجريئة أثرها في تهدئة الجبهة الداخلية ، حيث أصبحت تلك الغزوات شاغل المسلمين ٠٠ يتابعونها ويترقبون أخبارها ٠٠ ولكن هذا لم يدم طويلا ، خاصة بعد أن تفاوتت مواقع الجهاد ، وعدد المجاهدين ، ونصيب كل مجاهد ، مما جعل بوادر الثورة تظهر لدى من يستشعرون بأنهم دون غيرهم ٠٠ وساق الكاتب العديد من الامثلة منذ عهد عمر حتى نهاية عهد عثمان ، وعلل لذلك بقوله : انها جرائر الاختلاف من نظام الخلافة الى نظام الملك ٠٠

وقد عدد الكاتب أسباب القلاقل ٠٠ كتباعد مواقع الجيوش ، والتنافس بينها ، والتهم التي لحقت ببعض الولاة : كالوليد بن عقبة وسعيد بن العاص اللذين تعاقبا على ولاية الكوفة في عهد عثمان ، فاتهم الاول بشرب الخمر ، وثبتت التهمة ، واقيم عليه الحد ، وعزل ٠٠ واتهم الثاني بتعمد التشهير بسلفه ، خاصة بعد أن غسل المنبر قبل أن يجلس عليه ، فكثر اللغط في مجلسه ، وبدأت حركة نفور منه ، وتمرد ضده وضد عثمان ، وكثر الشاغبون من الروادف والاتباع ، وصار لهم تجمعات ، وبينهم مكاتبات ولقاءات ، فكانت تلك الزلازل النفسية بمثابة صدمة لعثمان ، ابتلي بها رعاياه في بحبوحة السلم والرخاء ، فكانت طورا جديدا في حياة أولئك الرعايا ٠٠ فلا هم رعايا خلافة ، ولا رعايا مملكة ٠٠ وفارق كبير بين نظام الخلافة ونظام الملك ، هو الفارق بين الثقة التي لا تحتاج الى حماية ، وبين السلطة التي تحمي نفسها ،

وقد وصلت الخلافه الى عثمان وهو احوج ما يكون الى هذه الثقة ، وهي أعصى ما تكون عليه ..

فالعلية كانوا يرون أنفسهم نظراءه بل ومنافسيه ، والدهماء فرغوا من الاشغال ، وتفرغوا للقيل والقال .. وسياسة عثمان مع العلية جاءت على عكس ما كان عليه الصديق والفاروق .. فأطلقهم في الآفاق ارضاء لهم ، وأملا في اسدائهم النصح للدهماء ، وحسن القيادة ، واتقاء الفوضى ..

كما اختار عثمان ولاته من أقربائه عسى أن يصدقوه العون ..

وكانت آفة عثمان تلك النزعة الاموية التي كشف عنها نظرته الى الامامة التي أوشكت أن تكون نظرة الى الملك ، حيث قال لابن مسعود : « مالك ولبيت مالنا ؟ » وقال في احدى خطبه : « ... فضل من مال ، فلم لا أصنع في الفضل ما أريد ؟ فلم كنت اماما ؟ » .. فهو بهذا يكاد يرفأ الخلافة برقعة الملك ..

وترتب على ذلك كله تغيير في أطوار النفس لا يمكن اسناده الى الرعية دون راعيها ..

وبعد أن أثبت العقاد نزاهة عثمان ، وأنه كان ينفق من ماله الخاص على المصالح العامة قبل وبعد الخلافة ، وأنه حقق العديد من الانجازات والاصلاحات، بالاضافة الى الانتصارات والفتوحات .. رد على المؤرخين الذين يحيلون عمل عثمان وتدبيره على الاعوان والنصحاء ، والتواني والتفريط اليه ، أو الى غلبة الاعوان عليه ، ولا سيما المسئول الاكبر — في رأي الاكثرين — عن أخطاء عثمان .. ابن عمه مروان بن الحكم .. فبين أن مروان لم تكن له تلك القوة ، وليس بالعون الغالب الذي لا يخالف ، وغاية شأنه ، أنه المأمور الذي لا يستعاض عنه بمن هو أنصح منه وأقدر على الطاعة ، وأن المحنة لم تكن علة عللها مشورة عثمان لمروان .. انما علة العلل .. ان خلافة عثمان جاءت في وقت يحتاج الى ثقة الخلافة فلا يجدها ، والى سلطة الملك فلا يجدها ، ولن يسلم حكم يحتاج الى سند الثقة في موضعه ، والى سند السلطة في موضعه ، فلا يجد هذا ولا ذاك .

وجاء نسخ المصحف مكرمة من أبرز مكرمات عثمان ، ومن أدل الاعمال على اقدامه وشجاعته ، وهو عمل قد تردد من قبله أبو بكر فيما هو دونه ، وذلك حينما عرض عليه عمر فكرة جمع القرآن ، بعد أن قتل عدد كثير من القراء في موقعة اليمامة .. ولما اتسعت رقعة الخلافة في عهد عثمان ، وتفرق المسلمون في الامصار ، حدث اختلاف في القراءة ، مما جعل حذيفة بن اليمان — بعد أن عاد من قتال أرمينية — يقول لعثمان : « أدرك الناس يا أمير المؤمنين قبل أن يختلفوا في الكتاب » فأرسل عثمان في طلب النسخة التي أودعها الفاروق عند السيدة حفصة قبيل مقتله ، وأمر زيد بن ثابت ، وعبد الله بن

الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام أن يقوموا بنسخها ، وبعد أن تثبت من صحتها وزعها على الامصار ، وأباد كل ما عداها ، فكان هذا العمل الجليل معدودا من أكبر سيئات عثمان ، مع أنه لم تبق لعثمان حسنة أعظم منه في تاريخ الاسلام !!٠

وفي النهاية ٠٠ بين الكاتب أن الدعوة النبوية رفعت مجتمعها الى الأوج الذي لا تقوى النفوس البشرية على مداومة البناء فيه ، ومن ثم كان ما حدث لا يمكن تسميته انقلابا ، وانما رد فعل للانقلاب العظيم ، الذي طرأ على حياة الامة العربية بعد الدعوة النبوية ٠٠ فهذا التطور هو أحد الحادثين المختلفين اللذين يتلاقيان في سيرة عثمان ، وفحواه : التحول مع الزمن من وثبة النبوة ، الى ثقة الخلافة ، الى سلطة الملك ٠٠ والحادث الاخر هو المشاغبات التي عملت فيها الاغراض الصغيرة ، والغرائز الهوجاء ، والدعاوى الملفقة ٠٠

واعتبر الاستاذ العقاد أساس البلاء : البطر على الحقوق التي كسبوها من الاسلام ، وسهولة الشكوى ٠٠ ومتى سهلت الشكوى صار الاعراض عنها محنة ، واستجابتها محنتين ، لانها تغرى بالشكوى من جديد ، وتزيد البلاء بزيادة السهولة طمعا في دوام الاصغاء ٠٠

وأورد العديد من الاتهامات التي كان عثمان في بعضها بريئا ، وفي بعضها له وجهة نظر جعلته يرجع أن ذلك هو الصواب ، والبعض الاخر محسوب عليه ، ولكنه ليس مسوغا للقتل ٠٠

ولقد أشير على عثمان بالضرب على أيدي الشاغبين ، في الوقت الذي ليم على مواقف الحزم مع بعضهم ، فكان من محنة الامامة في ذلك الوقت ، أن يلام الامام على النقيضين : الرأفة بالشاكين ، واغضابهم لانه لم يجبهم الى ما سألوه !!٠

وختم الكاتب كتابه ـ بعد أن كشف جوانب الخير في أغوار النفس الانسانية ـ بتحية صدق تمتحن بالنار والنور بين ظلمات الشرور ، وبين السر في عدم وصف عثمان بالعبقرية أسوة بالصديق والفاروق وعلي ٠٠ بأنه لا يؤمن بالعبقرية لعثمان ، وانما يؤمن بأنه ذو النورين : نور اليقين ، ونـور الاريحية والخلق الامين ٠

وبعد هذا العرض الموجز لما حواه الكتاب ، أود أن أقول : ان أي انسان يلي أمرا سبقه فيه عبقري عظيم يملأ العين والفؤاد مثل الفاروق ، لا يستغرب أن يحدث له ما حدث لعثمان ٠٠

ولقد وفق العقاد ـ رحمه الله ـ في الذود عن عثمان بالحجج القاطعة ، والبراهين الساطعة ، بلا تحيز ولا مبالغة ، فبدد الاوهام ، وصحح الافهام ، وأراح النفوس ، ووضع النقط فوق الحروف ، وأعاد الحق الى نصابه ، وكان مثاليا في عرضه ٠٠ مثاليا في نقده ٠٠ مثاليا في دقة فكره ، وروعة بحثه ٠

مهدي عبد الحميد مصطفى
مبعوث الازهر الشريف في لبنان

على العهد

علم قراء هذه التراجم وجهتنا التي نتجه اليها في كتابتها ، ولا نحسب أن أحدا ممن تتبعوها ـ أو تتبعوا معظمها ـ ينتظر منها بحثا غير بحوثها التي عنيناها ، فليس يعنينا منها سرد الحوادث ، ولا استقصاء البيان عن فترة من السنين ، وانما يعنينا من الحادثة التي نعرض لها ، ومن الفترة التي نستبينها أنها وسيلة الى مقصد واحد : وهو التعريف بالنفس الانسانية في حالة من أحوال العظمة والعبقرية ، أو حالة من أحوال النبل والأريحية ، فان جاوزنا هذا المقصد الى غيره ، فانما نجاوزه لجلاء فكرة تحيط بأطوار التاريخ الانساني ، وتخرجه من غمار التيه (١) والظلمة ، وتسلك به مسلكا غير مسلك التخبط والضلال ..

ونحن نقيس أثر هذه التراجم بمقياسين متقابلين ، بل متعارضين متناقضين ، ولكنهما ينتهيان الى نتيجة واحدة ..

نقيس آثرها بالرضى والقبول من الموافقين ، ونقيسه بالسخط والنفور من المخالفين ، وكلاهما دليل على أثر نغتبط به ونستزيد منه .. دليل على أن التراجم رمية أصابت مرماها ، وهذا كل ما نبغيه .

ومن الملاحظات التي نغتبط بها خاصة أن جانب الرضى عن هذه التراجم غير مقصور على أبناء دين واحد أو أبناء نحلة (٢) واحدة .. فتراجمنا لعظماء الاسلام قد اطلع عليها وتتبعها أناس كثيرون ممن لا يدينون بالاسلام ، وترجمتنا لغاندي قد كان أكثر قرائها من المسلمين ، وهؤلاء وهؤلاء قد عرفوا وجهتها ، ولم يخرجوا بها عن سبيلها ، فليست النفس الانسانية ملكا لأبناء دين واحد ، وليس الكشف عن أسرارها وأغوارها (٣) فريضة شرع واحد أو عرف واحد ، وما من شيء يجعل للدين نفسه معنى ان لم تكن النفس الانسانية ذات معنى وذات قيمة وذات علاقة أصيلة بهذا الوجود أجمع ، فلا يضل معتقد عن هدى عقيدته حين

---

(١) يأتي التيه بمعنى : الصلف والكبر وبمعنى الضلال وهو المراد هنا .
(٢) النحلة : الملة . (٣) أي أعماقها وخباياها .

يؤمن بجانب من جوانب عظمتها أو جانب من جوانب النبل والأريحية فيها .. والسؤال الذي يسأله من يعرف المسألة كلها هو :

ـ هل تستحق الحياة أن نحياها ؟..

فان كانت حياة الانسان أهلا للثقة بها والايمان بقدرها فالجواب نعم ، وان لم تكن كذلك فلا جواب للسؤال غير اليأس والضياع والانحلال .

بل نحن نرى أن الشاكين والمترددين يتوبون (١) الى طريق الامل والرجاء كلما لمسوا للنفس الانسانيه جذورا عميقه في أصول الحياة ، وهذه الجذور نلمسها لمسا كلما علمنا ان النفس الانسانية قابلة لعمل عظيم ، وكلما علمنا ان قوة الاعتقاد بالخير هي نفسها عمل عظيم . وليس الخلاف اذا بين دين ودين ، أو بين مذهب ومذهب ، او بين فلسفة وفلسفه ، ولكنه خلاف بين حياة لها جذور ، وحياة مستاصلة من جميع الجذور ، وهو بعبارة أخرى خلاف بين حياة لها معنى ، وحياة فارغه من كل معنى ، ولو كان هذا المعنى من مخترعاتها الملفقة وأباطيلها المزجاة (٢) .

نقيس أثر هذه التراجم بالرضى من هولاء المؤمنين بمعنى الحياة وهؤلاء الباحثين عن معناها ..

ونقيسه كذلك بسخط الساخطين وغيظ المحنقين (٣) ، وكلما اشتد هذا السخط ، واضطرم (٤) هذا الغيظ علمنا موقع الرمية من الهدف الصميم ، فهو موقعها الذي أصبنا به المقتل من ذلك المعسكر الذي يسمي نفسه بمختلف الأسماء ، ولا يصدق عليه اسم منها كما يصدق عليه اسم أعداء الانسان ..

وانما تصدق الأسماء حيث تصدق على الصفات والأعمال ، وقد سمي بأعداء النوع الانساني قديما معاشر من الخلق كانوا يكرهون النعمة ويعافون (٥) السرور ، ويتجنبون معاشرة الناس ، ولكنها تسمية لم تكن على صواب .. لأنهم كرهوا النعمة وعافوا

---

(١) أي يرجعون . (٢) أي الرديئة أو الزائفة . (٣) الحنق : الغيظ .
(٤) اضطرم : التهب . (٥) أي يكرهون .

السرور ايمانا بنعمة أشرف من جميع النعم ، وشوقا الى مسرة ارفع من جميع المسرات ، ثم تجنبوا معاشرة النـاس نبوا (١) بضمائرهم عن العيش الذي لا يعرف النعم والمسرات الا في أحضان الرذائل والشهوات ، فمن شاء فليسم هولاء المتزمتين بما شاء من الاسماء الا ان يسميهم باعداء الانسان ٠

اما اعداء النوع الانساني حقا فهم الحريصون على تصغير كل عظيم فيه ، الملوثون لكل صفحه نقيه من صفحاتـه ، العاكفون على هدم كل ما بناه في تاريخه الطويل من قيم الاخلاق ، وعقائد الخير والفلاح ، الذين يعملون مـا لا يعمله الا عدو معير على الارض ، يتعقب (٢) بقايا اهلها كما يتعقب العدو اللدود جنسا من الد الاعداء لجنسه ، فلا يسره شيء كما يسره ان يرجع الى ماضيه وحاضره بالتشويه والتخريب ، وذم الحميد منه وتسجيل الدميم المعيب ٠٠

ويبلغ المسخ (٣) بهؤلاء المساكين أنهم يخلصون في بغضائهم اخلاص الجنسين المتعاديين بالطبيعه ، فلا يقنعون بما يجدونه من العيوب والادناس بل يتجسسون عليها ويلحون في تاويلها ، ولا يطيب لهم شيء كما يطيب لهم ان يبطلوا الثناء على بطولة البطل وتفدية الشهيد وايثار الكريم ، فيردوه الى الزراية والمهانة ، وتعليل الامـور باسـوأ العلل ، وتفسيرهـا باقبـح البواعـث والاغراض ٠٠ ومثل هذه اللجاجة (٤) في تلطيخ تراث الانسانية كله بالاوزار والادناس لا تصدر الا من طبـع سقيم وخليقـة عوجاء ، فيجوز لكل صاحب عقل ان يفهم بعقله علل الأعمال سامية أو مسفة (٥) ، وعامة أو خاصة ، ومخلوطـة بالاثرة أو خالصة للايثار ، ولكن الهيام بتحقير كل عظيم واتهام كل ثنـاء والحماسة المتشنجة لتغليب الخسة على النبل ونبش السمعـة المأثورة عن جراثيم النتن والقذى ليس المرجع فيه الى فهم ودراسة، ولكنه يرجع الى مسخ في الكيان يسلخ المبتلى به في مسالخ العدو

---

(١) أي تباعدا وتجافيا ٠ (٢) تعقبه : تتبعه وأخذه بذنب كان منه ٠
(٣) المسخ : تحويل صورة الى صورة أقبح منها ، ومن معاني المسخ : الضعيف الاحمق ٠ (٤) الخصومة ٠ (٥) أي رديئة ٠

المبين لنوع الانسان ٠

وما كان في وسع انسان حي أن يسيغ الحياة كما يريدها هؤلاء المسخاء المنكودون ، ولكنهم فقدوا الثقة بالحياة المثلى فعوضوها ببديل منها لا يغني عنها الا الى حين ٠٠ ان المنحدر من القمة الى الهاوية يتحرك في انحداره ، بل يتحرك سريعا الى قراره، وهو في حركته هذه أسرع من الصاعد الى القمة ٠٠ بجهده وهدايته ، وأسبق منه جدا الى غايته بل نهايته ٠٠ الا أنها حركة المصاب بالحركة على الرغم منه ، فلا وجه للمقابلة بين الصاعد المجاهد والهابط المقذوف كما ينقذف الجلمود (١) ، وأن لاح لمن يراهما أنهما متحركان ، وأن الهابط منهما أقدر من الصاعد على العدو والجريان ٠٠

وقد امتلأ مكان الثقة من نفوس هؤلاء المسخاء بسخائم (٢) المقت والكراهية ، فكانت لهم عوضا بئس العوض ٠٠ كانت لهم عوضا كعوض الحركة الهابطة من الحركة الصاعدة ، وليس أدل على ضرورة الثقة للانسان في اجتماعه وانفراده من حاجة هؤلاء الى تعويضها بذلك الثمن الثقيل ، وانه لجد ثقيل في الحقيقة ، فانه لهو الانتحار بغير ارادة الانتحار ٠

ونحمد الله على نصيبنا من هذه الكراهية ، كما نحمده على نصيبنا من تلك النقمة ، فهذه وتلك كلتاهما مقياس صادق لأثر هذه التراجم التي نزيدها اليوم ترجمة جديدة ، وسنزيدها بمشيئة الله كلما اتسع الوقت وأحسسنا الرضى من هنا والكراهية من هناك ٠

ان سيرة الخليفة الثالث نمط (٣) من أنماط متعددة زخرت بها الدعوة الاسلامية من سير الخلفاء وغير الخلفاء : أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وأبي عبيدة ، وخالد ، وسعد ، وعمرو ، وأمثالهم من الصحابة والتابعين ، ما منهم الا من كان عظيما بمزية ، وعلما من أعلام التاريخ ، فأين كان موضع هؤلاء من العظمة ومن تاريخ بني الانسان لولا العقيدة الدينية ولولا الرسالة المحمدية ؟٠

---

(١) الجلمود : الصخر ٠ (٢) السخمة : السواد ، والسخام : سواد القدر والسخيمة : الضغينة والحقد ٠ (٣) نمط : أي نوع ٠

ليقل من شاء من فلاسفة التاريخ ما يشاء في التعليل والتحليل والتلخيص والتفصيل ، فمهما يقــل القائلون ، ومهمــا يشرح الشارحون ، فليس من السهل على عقل رشيد أن يزعم أنها كلها خدعة وهم في رؤوس أناس جاهلين • ولا حاجة هنا الى الفلسفة ولا الى الحذلقة (١) ولا الى الجدل الطويل ، فالقول الفصل بعد كل قول ووراء كل شرح : أن الوهم الخادع في رؤوس الجاهلين خير ألا يكون • وماذا يبقى من تاريخ الانسانية لو حذفنا منه هذه العوامل الحية وقلنا مع القائلين : أنها وهم من الأوهام كان خيرا لها أنه لم يكن ولم يكن بعده ما جرى في مجراه ؟•

وفي هذه السيرة على ما نرجو ، وعلى خلاف ما يخطر في بال الكثيرين لأول وهلة ، شواهد على هذه العبرة الكبرى أكبر من شواهد أخرى ، فلعلها لا تبرز لنا عبقرية كعبقرية الصديق أو الفاروق أو الامام ، ولكنها تبرز لنا من جانب الأريحية صفحة لا تطوى ، ولا يستطيع العقل الرشيد أن يرجع بها الى باعث غير باعث العقيدة والايمان •

● ❋ ●

---

(١) حذلق الرجل وتحذلق : اذا أظهر الحذق فادعى أكثر مما عنده •

الفصل الأول

بين القيم والحوادث

ربما كانت سيرة الخليفة الثالث ــ ذي النورين ــ أوفى السير بالشواهد على الخصائص التي تلازم تاريخ العقيدة في أطوارها الأولى ، ولا سيما أطوار التحول في طريق الاستقرار ..

وأبرز هذه الخصائص في تاريخ العقيدة ، أنه تاريخ قيم ومبادىء ، وليس بتاريخ وقائع وأحداث ..

فالوقائع والأحداث تتشابه في العصور المتطاولة ، ولو أننا تخيلناها معروضة في الصور الصامتة ، لما وجدنا من فارق يذكر بين الوقائع والأحداث التي تفصلها من مسافة الزمن آلاف السنين ، ومن مسافة المكان آلاف الفراسخ .. كلها صورة متكررة من حيث ظواهرها وأعراضها البادية للعيان ، ولكنها تختلف اختلافا بعيدا حين ننفذ من ظاهرها الى باطنها ، أو حين ننفذ من حركاتها المكشوفة الى القيم النفسية التي تكمن (١) وراءها ، والى الدعاوى التي تدور عليها ، ولو كانت من دعاوى المبطلين ، التي يصدق عليها في بعض الأحايين : أنها كلمات حق أريدت بها أباطيل ..

فالحوادث التي تدور على طلب السطوة (٢) ، غير الحوادث التي تدور على طلب الحرية ، ولو كان طلب الحرية أكذوبة يتعلل بها المتعلل لغاية في نفسه يسترها ويعلن ما عداها ..

فاذا كان المتعلل بالحرية مبطلا في دعواه ، فهناك فارق صحيح بين المعارك التي تذكر فيها الحرية حقا أو باطلا ، والمعارك التي لا ترد فيها على لسان أحد ولا تخطر بباله ، فلولا أنها أصبحت شيئا يهتم به الناس ويتنازعونه لما ذكرها الصادقون ولا المبطلون . ومتى أصبحت الحرية قيمة من القيم المحسوبة في حياة الأمم ، فهناك دليل عليها ممن يتعلل بها صادقا ويتعلل بها كاذبا ، ليخدع الناس بها عما يريده من ورائها .

---

(١) أي تختفي . (٢) السطوة : القهر بالبطش .

وفي سيرة عثمان ـ رضي الله عنه ـ صدمة عنيفة تواجه كل باحث في تاريخ صدر الاسلام ، وتلك هي قتلته البشعة وهو شيخ وقور جاوز الثمانين •

لم يكن عثمان أول خليفة قتل ، فان الفاروق عمر بن الخطاب قتل قبله غيلة (١) وهو يقيم الصلاة ••

ولكن مقتل عمر لم يكن صدمة في تاريخ العقيدة • قتله غلام دخيل على الاسلام ومن ورائه عصابة تدين بغير دينه ، وتكره منه ما عمله لاقامة ذلك الدين ، فلا غرابة ولا صدمة ، ولا شيء فيه غير الفاجعة (٢) التي تفجع نفوس المسلمين ••

أما تلك القتلة البشعة (٣) التي انتهت بها حياة الخليفة الثالث فشيء غير هذا ، وشيء بعيد عن هذا في صدمته المفاجئة لمن يتابع تاريخ العقيدة الاسلامية في أطوارها الأولى ••

لم يمض جيل على الاسلام ويقتل خليفة المسلمين هذه القتلة؟ فماذا صنعت هذه العقيدة اذا بنفوس الحاكمين والمحكومين ؟ •• وماذا تغير من فتكات (٤) الجاهلية بعد جهاد المؤمنين وايمان الكافرين ؟

والسؤال صدمة عنيفة ••

ولكنه قائم على خطأ جسيم (٥) ، وان يكن خطأ قريب التصحيح •

فالعقيدة لا تبطل الخلاف والنزاع ، ولا تختم الوقائع والأحداث في التاريخ ، ولم يحدث قط في دعوة اصلاح في الدين أو غير الدين أنها قسمت التاريخ الى عهدين : عهد سابق كان فيه نزاع وكانت فيه أحداث ، وعهد لاحق يبطل فيه النزاع وتنقضي فيه الأحداث •

لم يحدث هذا قط ولا يحسن أن يحدث ، فانه لو حدث لكانت العقيدة المصلحة شللا معطلا لحياة الأمم ، معوقا للتاريخ في مجراه المطرد (٦) الى غير قرار ••

ان العقيدة لا تلغي الحوادث والخصومات ، ولكنها تجدد القيم التي تدور عليها الحوادث والخصومات •

---

(١) اغتاله : أخذه من حيث لم يدر • (٢) الفاجعة : الرزيئة والمصيبة •
(٣) شيء بشع : أي كريه • (٤) الفتك : القتل • (٥) أي عظيم •
(٦) أي المستمر •

وليست الخصومات شر ما يبتلى به الناس ، فشر منها الخسة (١) التي ترضى بالدون (٢) ، وشر منها الوفاق على الغش والمهانة ، وشر منها شلل الأخلاق الذي لا يبالي صاحبه ما يحسن وما يقبح ، وما يرضي وما يسوء ، وشر منها الحياة بغير قيمة تستحق الخلاف عليها ، وبغير معنى يتسع للبحث فيه ..

فليس مطلوبا من العقيدة أن تبطل الخصومات ، ولكنما المطلوب منها أن ترتفع بالنفوس عن الخصومة في غير شأن ، أو ترتفع بها عن الخصومة في شأن هزيل ضئيل (٣) ..

وعلى هذا ينبغي ألا تكون الخصومات والأحداث هي مدار البحث في تاريخ هذه الفترة ، بل ينبغي أن يكون مدار البحث على القيم والمبادىء التي دارت عليها تلك الخصومات والأحداث .

ولا نقول : ان الفاجعة اذا تهون ..

وغاية ما نقوله : انها تفهم على وجهها الصحيح ، وأنها تفهم على وجه لا يريب (٤) في عمل العقائد ، وعمل العقيدة الاسلامية على التخصيص .

لقد كان مدار الخصومة على محاسبة الامام : محاسبة الرعية لامامها ، ومحاسبة الامام لنفسه ، وكل أولئك شيء جديد في التاريخ ، وكل أولئك شيء يقيم ويقعد في حياة الأمم ، ولا سيما حياتها في أطوار العقيدة الأولى .

أين كان أبناء الجاهلية من حق الحساب بين الحاكم والمحكوم ؟

أما في البادية فقد كان الحساب كله على شريعة (٥) الثأر والانتقام ، واغارة القبيلة الكبيرة على القبيلة الصغيرة ، وكان الغالب على الفرد أن يعيش في كنف قبيلته ، تحميه ان استطاعت ، أو تخلعه ان عجزت عن حمايته . وقد شاع في العصور الحديثة كلام كثير عن الحرية البدوية ولم تفهم على حقيقتها مع كثرة الكلام فيها ، فما كانت الحرية البدوية قط قائمة على حق انساني تحميه الشرائع والآداب ، ولكنها كانت أشبه شيء بانطلاق المادة حيث لا عائق (٦) لها مما حولها ، ومثل هذه الطلاقة طلاقة

---

(١) الخسة : الدناءة . (٢) الدون : الحقير . (٣) ضئيل : صغير .
(٤) لا يشكك . (٥) أي طريقة . (٦) أي حائل .

العصفور في فضائه ، والحيوان الآبد (١) في صحرائه : طلاقة المادة حيث لا حواجز ولا سدود ..

وأما الحكومات التي قامت في الجزيرة العربية ، على نحو من نظام الملك والامارة ، فقد كانت شريعتها ــ على خلاف المظنون ــ طغيانا مطلقا من جميع القيود ، وكان بعض ملوكهم يتخذ من أهوائه ونزواته شعائر يدين بها الناس في مسائل الحياة والموت ، فكان المنذر بن ماء السماء يجعل له يوم نعيم ويوم بؤس ، ويقتل كل من يسوقه اليه الحين (٢) في يوم بؤسه ولو كان عابر طريق ، وكان يسكر ويأمر بالقتل فينفذ لساعته ولا يدري بعد افاقته فيم كان هذا العقاب ان صح أن يسمى بالعقاب . وحدث أن حجر بن الحارث فرض على بني أسد أتاوة (٣) ، فتمردوا عليها ، فاستباح أحياءهم ، واعتقل رؤساءهم ، وأقسم ليقتلنهم بالعصا هوانا (٤) بهم عنده أن يقتلهم بالسيف أو السلاح ، فسموا من أجل ذلك بعبيد العصا ، وقال شاعرهم عبيد بن الأبرص يستشفع فيهم :

ومنعتهم نجدا فقد	حلوا على وجل (٥) تهامه
اما تركت عفوا أو قتلت فلا ملامه	
أنت المليك فوقهم	وهم العبيد الى القيامه

وكان عمرو بن هند يكلم الناس من وراء ستور (٦) ، وكانوا يضربون المثل بكليب وائل في عزته ، فيقولون عن العزيز البالغ في العزة : « انه أعز من كليب وائل » .. لأنه كان يحمي الكلأ (٧) فلا يقرب حماه ، ويمر بالمكان يعجبه ، فيرمى عنده بكليب (٨) وينادي بين القوم : انه حيث بلغ عواؤه كان حمى لا يرعى .. وكانوا يقولون : « لا حر بوادي عوف » لأنه كان من عزته يقهر كل من حل بواديه ، فكلهم عنده كالعبيد ..

وأقبح من ذلك ما روي عن عمليق ملك طسم وجديس ، فانه كان يأمر ألا تزف الفتاة الى بعلها (٩) قبل أن تزف اليه ، وفي ذلك

---

(١) الآبد : مفرد أوابد ، والاوابد : الوحوش . (٢) الحين : الهلاك .
(٣) الاتاوة : الخراج . (٤) هوانا : أي استخفافا بهم . (٥) الوجل : الخوف.
(٦) جمع ستر . (٧) العشب رطبا أو يابسا . (٨) كلب صغير . (٩) البعل : الزوج .

تقول احدى هؤلاء الفتيات :

يجمل ما يؤتى الى فتياتكم   وأنتم رجال فيكم عدد الرمل ؟

الى أشباه هذه المظالم التي أجملناها في كتابنا عن الديمقراطية في الاسلام ، وقلنا معقبين عليها : انها روايات لم تخل من اضافات القصة والخيال كجميع روايات التاريخ القديم المنقول بالتلقين والاسناد « ولكننا نثبتها ونعول عليها ، لأن الفكرة هنا أبلغ من الخبر ، وأصدق من وثائق الأوراق ، فلو لم تكن فكرتهم الغالبة عن الحكم أنه عزة وخيلاء لا تكملان لصاحبهما بغير اذلال الأعزاء، وتمحل (١) الذرائع (٢) للعتو (٣) والايذاء ، لما تواترت أنباء الملوك على هذه الوتيرة (٤) ٠٠ » ٠

ومن هذه الفكرة المتواترة عن سلطان الحكم الى محاسبة الخليفة على كل صغيرة وكبيرة في شؤون الدولة بون بعيد ، وشيوعها بين الخاصة والعامة حتى يتصدى للحساب صغير القوم وكبيرهم على السواء ، هو الفتح الذي جاءت به العقيدة الاسلامية على أعقاب الجاهلية ، وعلى مسمع من طغيان الأكاسرة والقياصرة والتبابعة (٥) ، في الشرق والغرب والشمال والجنوب ٠٠

وسنرى أنهم كانوا يحاسبون الخليفة على الزيادة في حمى المرعى المتروك ، لا بل الصدقة بعد تكاثرها ومضاعفة عددها ، وسنرى أنهم كانوا يحاسبون واليا من أكبر ولاته ــ وهو والي الشام معاوية بن أبي سفيان ــ لأنه سمى مال الدولة مال الله بعد أن كان يسمى بيت مال المسلمين ، وأشفقوا أن يكون تغيير الاسم تمهيدا لاستئثار الحاكم بالتصرف فيه ، وكف المسلمين أصحاب المال عن المحاسبة عليه ٠٠

هذه المحاسبة بين الحاكم والمحكوم قيمة كبيرة نشأت مع العقيدة المحمدية ، وهي قيمة كبيرة على جميع حالاتها من الصدق فيها أو التذرع بها الى غرض قد يخفيه أصحاب الذرائع والتعلات، فان القانون يصونه أناس مخلصون ، ويدعي غيرهم صيانته كاذبين مدلسين (٦) ، ولكن القانون على الحالتين كسب عزيز

---

(١) التمحل : الاحتيال ٠ (٢) الذرائع : الوسائل ٠ (٣) أي مجاوزة الحد ٠ (٤) الوتيرة : الطريقة ٠ (٥) ملوك اليمن ٠ (٦) مدلسين : أي غاشين٠

لا يستهين به عاقل ، ولا يقول أحد بالاستغناء عنه من أجل الكذب به أو الكذب عليه،وكذلك كل قيمة غالية من قيم الحياة الانسانية كالفضيلة والخير والحرية والصدق وما شابهها من فتوح الضمير في آماد (١) التاريخ ، مما يحرص عليه الناس ، أو يصطنعون الحرص عليه ، فانما تكسبها الانسانية بالتعارف عليها ، وقبولها أو قبول مقاييسها ، ولن تكون القيم جميعا الا من هذا القبيل ، وعلى هذا المثال ٠

ولقد كان من الناهضين (٢) لمحاسبة عثمان — رضي الله عنه — أناس مغرضون يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون غير ما يقولون : كان منهم من أقام عليه الحد ، ومن حبس أباه في جريمة ، ومن فرق بينه وبين حليلة تزوجها على غير الشريعة ، ومن أبى عليه الولاية ، ومن لم يصنع به الخليفة أمرا من هذه الأمور ولكنه كان منطوي النية على الفساد والافساد ٠٠ وكل هذه المآرب (٣) قد شيبت (٤) بها حركة المحاسبة على أعمال الخليفة ، فكانت عيبا للحركة ، ولكنها لم تكن عيبا لحق المحاسبة ، ولا ازراء (٥) بشأنه ، ولا بالشأن الذي كسبته الأمة من تقريره والتعارف عليه ، ولولا أنه حق لما تعلل به المبطلون ٠٠

وآفة البحث في تطور الأخلاق والقيم الانسانية ، أن يتولاه من لا يفقهون قيمة النهي عن شيء بعد أن كان مباحا غير منهي عنه ، ولا يخطر النهي عنه على بال أحد ، فاقامة الحدود التي يؤخذ الناس بالتزامها ، وينهون عن تجاوزها ، هي عنوان الدوافع الباطنية التي غيرت حياتهم ، وغيرت نظراتهم الى الأعمال والأخلاق ، فأعلنوها في تلك الحدود ٠

وأضل من هؤلاء من يبحثون في تطور الأخلاق ، فيأخذونها بالعناوين ويطلقون العنوان الواحد على صفتين مختلفتين أو متناقضتين ، ويكاد القس راشدال Rashdall أن يزن الأطوار الأخلاقية بهذا الميزان حيث يقول : « انه ندر من رذيلة أو جريمة

---

(١) الامد : الغاية والمنتهى والغضب ، والآمد : المملوء من خير أو شر ، والسفينة المشحونة ٠ (٢) أي القائمين ٠ (٣) أي المقاصد والغايات ٠
(٤) شيبت : أي خلطت ٠ (٥) الازراء : التهاون بالشيء ٠

الا كانت في زمن من الأزمنة منظورا اليها كأنها واجب من واجبات الديانة أو العرف ، كالسرقة التي كانت تحسب فضيلة من الناشئة الاسبرطية ومن الطائفة الهندية التي تسمى بطائفة الخناقين ، وقد كانت القرصنة ـ وهي سطو (١) وقتل ـ صناعة محترمة في العالم القديم ، وكان الاضطهاد الديني في القرون الوسطى أشرف الواجبات » ٠

وليس من الميسور في هذا المقام أن نفصل وجوه الخلاف بين الاباحة القديمة والتحريم الحديث في جميع هذه الفعال والخلال ، ولكننا نكتفي بما يستطاع بيانه بغير حاجة الى الافاضة والاسهاب (٢) كالقرصنة ما بين العصرين القديم والحديث ٠ فهل القرصنة التي نحرمها اليوم هي القرصنة التي كانت مباحة بالأمس ، أو هما نقيضان باسم واحد مشترك بينهما بوهم الاصطلاح ؟٠٠

الواقع أن قرصنة الأمس كانت حقا كحق صاحب الملك الذي تسطو عليه ، اذ كان صاحب الملك يجمع بضاعته بالسطو على قبيلة أو عشيرة أضعف منه ، وأعجز عن الهجوم والدفاع ، فان كان فيما يملكه شيء مصنوع فهو من صنع العبيد المسخرين في أرضه أو معمله ، وكلهم من أسرى الحرب المغتصبين من أبناء القبيلة التي قهرت ، لأنها عاجزة عن مقاومته ودفعه ٠ فحقه في بضاعة السفينة كحق القرصان في السطو عليها ، وليس هذا الحق الذي يستطيع القرصان في العهد الحديث أن يدعيه ويقبل التعارف عليه ٠٠

ويصدق على سرقة الناشئة (٣) الاسبرطيين ما يصدق على القرصنة في العصور القديمة ، ويمكن أن يقال كذلك : ان الاضطهاد الديني في العصور الوسطى غير الاضطهاد الديني في العصر الحديث ، لأن العمل لا يعتبر رذيلة (٤) أو جريمة الا اذا كان فيه نقض لقيمة أخلاقية مصطلح (٥) عليها ، ولم يكن التسامح ولا الحرية الفكرية قيمة مصطلحا عليها في العصور

---

(١) أي قهر وعدوان ٠ (٢) الاسهاب : كثرة الكلام ٠ (٣) الناشئة : من جاوزوا حد الصغر ٠ (٤) الرذيلة : ضد الفضيلة ٠ (٥) أي متفق ٠

المظلمة بين الأوربيين ، سواء منهم المضطهدون ومن يقع عليهم الاضطهاد . فلو أن أحدا من الذين وقع عليهم الاضطهاد ظفر بمخالفيه في العقيدة لاضطهدهم كما اضطهدوه وقسرهم (١) على التصديق بعقيدته كما قسروه ، وكلا الفريقين يستعيذ من حرية الفكر على اعتبارها تفريطا في الغيرة على الدين ٠

فالقيم الأخلاقية والوجدانية هي الجوهر المهم في تطور الأخلاق ، وليست هي الأسماء والعناوين ، ومتى ظهرت «القيمة» في أمة فهي مكسب حق لا شك في نفعه أيا كانت نية المنادي به على الصدق أو على الخداع ، فلو لم يكن الذهب ذا قيمة لما استحق أن يزيفه المزيفون ٠٠

ومحاسبة الحكام كانت قيمة جديدة بين العرب وسائر المسلمين في الصدر الأول من الاسلام ، فنادى بها الخاصة والعامة وادعاها الصادق والكاذب ، وظلت عاملا مهما في السياسة أيام الخلافة وبعد أن صار الحكم ملكا يتوارثه الأبناء عن الآباء ٠٠

أما الخليفة عثمان ــ رضي الله عنه ــ فأثر العقيدة فيه وهو فرد ، أوضح من أثرها فيمن قدموا اليه من الأمصار ليناظروه ويحاسبوه ، وهو واحد من آحاد معدودين لم يكن في وسع العقل أن يتخيلهم في جاهليتهم على حالتهم التي ارتفعوا اليها بعد الاسلام ٠٠

انه كان من سلالة (٢) الأمويين ، وهي سلالة اشتهرت في الجاهلية بالحرص على المال لا تبذله في غير مأرب أو متعة . ولم ينهض أحد منهم بتكاليف المروءة والسخاء الا منافرة لمن ينافسهم بين الملأ ، وغيرة منهم أن يسبقوه الى المجد والثناء ، فلما أسلم عثمان ــ رضي الله عنه ــ كانت شهرته الكبرى بالسخاء والأريحية . فنزل عن ماله لتسيير جيش في سنة العسرة ، ونزل عن ماله لشراء بئر يستقي منها المسلمون بغير ثمن ، ونزل عن ماله لتوسعة المسجد ، ونزل عن ماله لحمل المغارم واغاثة الملهوف والبر بالأقربين والأبعدين ٠٠

ومذهبه في محاسبة نفسه قد تتعارض فيه الأقوال والتأويلات ،

---

(١) أي أجبرهم ٠ (٢) أي نسل

ولكنه في الأمر الثابت الذي لا جدال فيه قد بلغ الذروة (١) من محاسبة النفس والتحرج من المساس بالحياة البشرية ولو في سبيل الذود (٢) عن حياته وحياة أقرب الناس اليه .. فلما أيقن من القتل ابى أن يبقى في داره من يقتل احدا ممن يحيطون بها ويعالجون اقتحامها (٣) لاغتياله ، ولما سئل أن يتنحى عن الخلافة أبى أن يتنحى عنها ، ولم يكن اباؤه (٤) ضنا (٥) بشيء يحتويه . فلا شيء أغلى من الحياة وقد هانت عليه . ولا يزعم أحد أنه غنم من الخلافة مالا ، بل يتفق المؤرخون على أنه ترك الدنيا وماله أقل مما كان لديه يوم ولي الخلافة . ولكنه أبى أن يخلع نفسه حذرا من أن يحمل جريرة (٦) الخلع وما يعقبه من النزاع والقتال . وقد صرح بذلك غير مرة فقال : انه يخشى على الذين يستطيلون أيامه أن يتمنوا بعده لو كان يومه مائة سنة ، فلا يبوءن (٧) بالعاقبة المحذورة وهو مختار .

فاذا تركنا الحوادث جانبا ونظرنا الى التاريخ في صدر الاسلام على أنه تاريخ قيم ومبادىء ، فلنا أن نقول اننا أمام فواجع مؤلمة ، يود الناظر اليها لو يزوي (٨) بصره عنها . وليس لنا أن نقول أننا أمام صدمة يصطدم بها من يسأل عن أثر العقيدة وأطوارها . فلا صدمة هناك اذا نحن وزنا الحوادث بميزان القيم ، وعلمنا أن التاريخ لن يخلو من الحوادث ، وأن حوادث الخلاف ليست بأكبر الشرور التي تبتلى بها ضمائر بني الانسان .

---

(١) الذروة : القمة . (٢) الذود : الدفاع . (٣) أي يحاولون دخولها .
(٤) اباؤه : رفضه . (٥) امساكا أو تمسكا . (٦) الجريرة : الذنب والجناية .
(٧) أي يرجع . (٨) أي يقبض .

وبعد الصدمة

وليست الصدمة العنيفة بالحائل الوحيد دون توضيح هذه الفترة وتمحيص أسبابها وعواملها وتبعات المسئولين عنها ، فالصعوبة الكبرى أننا في هذه الفترة أمام حادثين يرجع كل منهما الى أسبابه وعوامله ، ويتكلم عنهما بعض المؤرخين كأنهما حادث واحد متحد الأسباب والعوامل ..

هذان الحادثان هما : التطور السياسي، ومقتل عثمان ــ رضي الله عنه ــ ، وأسباب هذا لا تكفي لتعليل ذاك ، وليس من الحتم أن تؤدي اليه .. وقد طال الجدل حول عمل عبد الله بن سبأ الملقب بابن السوداء وأثره في هذه الفترة ، فرأى بعض المؤرخين أنه أهون من ذاك ، لأنهم اعتقدوا أن الانقلاب السياسي ومقتل عثمان حادث واحد له أسباب واحدة ، وليس هو كذلك . ولو انهم فصلوا بين الأسباب في كليهما لأمكن تقدير التبعة والاستطاعة في عمل كل عامل ، ودسيسة (١) كل مشترك في المؤامرة .

فابن السوداء ولا شك أهون من أن يحدث التطور السياسي ، وغيره ممن هم أعظم منه شأنا وأشد منه خطرا أهون من احداث ذلك التطور كله ، سواء تعمدوه (٢) أو عملوا له غير عامدين ، لأنه يرجع الى أسباب متفرقة عميقة القرار ، كثيرة التشعب ، لا تضطلع (٣) بها قدرة رجل واحد ولا عدة رجال متألبين (٤) متواطئين (٥) ..

ولكن مقتل عثمان شيء آخر غير التطور السياسي ، وفي وسع ابن السوداء ومن هو أقل منه أن يقترفه بيده وأيدي من يستمعون لتحريضه ودسيسته ، لأنه في حقيقته « مشاغبة » من مشاغبات الدهماء (٦) التي لا تعجز عن أمثال هذه الأفاعيل .

---

(١) الدس : الاخفاء . (٢) أي قصدوه . (٣) أي تقوم . (٤) التأليب : التحريض والافساد . (٥) واطأه على الامر : وافقه . (٦) من معاني الدهماء : العدد الكثير ، وجماعة الناس .

والذين يقرأون فاجعة عثمان ، ويلمون بالتاريخ ، يسبق الى خيالهم ما قرأوه عن مصارع رؤساء الدول في ابان (١) الثورات والفتن القومية : كالثورة الانجليزية مع شارل الاول ، والثورة الفرنسية مع لويس السادس عشر ، وغيرهما من الثورات في العالم القديم والعالم الجديد ..

ومتى سبقت الى خيالهم هذه الصورة ، حسبوا أن الثورة التي أفضت (٢) الى مقتل رئيس الدولة في الأمتين كالثورة التي أفضت الى مقتل رئيس الدولة الاسلامية في صدر الاسلام ، وبينهما في الواقع فارق بعيد أبعد من فارق الزمان والمكان .

ان الثورة التي أطاحت بشارل الأول قد اجتمعت فيها قوة الأمة بأسرها على وجه التقريب أمام قوة العرش وأنصاره من النبلاء ،وقد كانت هناك حرب وهزيمة غلبت فيها احدى القوتين، وانهزمت فيها القوة الآخرى .

وهكذا حدث في الثورة الفرنسية التي أطاحت بلويس السادس عشر ، وهكذا حدث في ثورات دهذه بالقارة الآمريكية والعالم القديم .

أما مقتل عثمان ــ عليه الرضوان ــ فلم تكن فيه حرب بين قوة الدولة وقوة الأمة ، ولم تتقابل فيه قوى الحكومات الاسلامية وقوى الأمم في البلاد العربية وغير العربية ، وغاية ما يوصف به أنه « حادثة محلية » قد تتم على أثر مشاغبة جامحة من مشاغبات الدهماء ، وقد يستطيعها ابن السوداء ومن هو أقل من ابن السوداء ..

وعلى سبيل الايجاز الذي يغنينا عن الاسهاب في المقارنة والمناقشة نقول : ان عثمان ــ رضي الله عنه ــ ما كان ليقتل لو كانت داره محروسة حراسة الدور التي يقيم فيها ولاة الأمور ، وان هذه الجمهرة التي اقتحمت داره واجترآت (٣) عليه بالسلاح ما كانت لتقتل واليا من ولاته ــ كمعاوية بن أبي سفيان في الشام مثلا ــ لو أنها هجمت على داره بين حرسه وأجناده ، فلا محل هنا للموازنة بين قوى الدولة وقوى المشاغبة أو الفتنة ، ولا محل

(١) ابان : وقت . (٢) أي أدت وانتهت . (٣) أي تجرأت .

كذلك للموازنة بين عوامل الانقلاب السياسي وعوامل الدفاع عن شخص الخليفة في داره ، فكل عوامل الانقلاب لم يكن من الحتم أن تؤدي الى مقتل الخليفة ولو بلغت أضعاف ما كانت عليه ، وقد كانت المشاغبة التي جنت جنايتها على حياة الخليفة كافية لاجتراح (١) هذه الفعلة ولو لم يكن وراءها كل عوامل التطور التي كانت تتجمع هنا وهناك في تلك الفترة الفاجعة ، وقد بقيت عوامل التطور وازدادت بعد انتهاء عهود الخلفاء الراشدين وقيام الملك الموروث ، فلم ينجم عنها مقتل ملك أو وال من كبار الولاة في بقاع الدولة الاسلامية من أقصاها الى أقصاها ..

فمن الواجب اذا عند احصاء الأسباب والتبعات ، والكلام عما يستطاع وعمن يستطيعه أن نفرق بين الحادثين وأن نرجع بالتطور السياسي الى أسبابه وعوامله التي تبلغ ما تبلغ ، ولا يلزم منها أن تؤدي الى مقتل ولي الأمر في عاصمته ، وأن نرجع بمقتل ولي الأمر الى أسبابه وعوامله التي قد تحدث مع ذلك التطور وقد تحدث منفصلة عنه في كل طور من أطوار القلق والتذمر (٢) ، مما يدوم أو ينقضي بانقضاء أوانه ، ثم لا يعود في عصره .

---

(١) أي لارتكاب . (٢) التذمر : الغضب .

أسبــاب ولا أسبــاب

على أن الأسباب التي ذكرت للحادثين جميعا لا تزال في حاجة الى اعادة نظر ، لأنها اما أسباب مزعومة يراد بها غير ظاهرها ، أو يجتهد بها المجتهدون بغير روية (١) في مواردها ومصادرها ، واما أسباب صحيحة ولكنها لم تفعل فعلها الا لاقترانها بأحوال تلك الفترة ، ولو جاءت في فترة أخرى لما حان لها ذلك الأثر .

خذ لذلك مثلا أسباب الفتنة كما ذكرها معاوية لابن الحصين .. سأله حين وفد عليه : « ما الذي شتت (٢) أمر المسلمين وخالف بينهم ؟ » . قال ابن الحصين وكأنه أراد ان يوافق هواه : « قتل الناس عثمان ! » . قال معاوية : « ما صنعت شيئا » فعاد ابن الحصين يقول : « فمسير طلحة والزبير وعائشة وقتال علي اياهم » . قال معاوية مرة أخرى : « ما صنعت شيئا » . فقال الرجل : « ما عندي غير هذا يا أمير المؤمنين » . قال معاوية : « فأنا أخبرك . انه لم يشتت بين المسلمين ولا فرق اهواءهم الا الشورى التي جعلها عمر الى ستة نفر ، وذلك أن الله بعث محمدا بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، فعمل بما أمره الله به ، ثم قبضه الله اليه ، وقدم أبا بكر للصلاة فرضوه لأمر دنياهم اذ رضيه رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لأمر دينهم ، فعمل بسنة الرسول ، وسار بسيرته حتى قبضه الله . واستخلف عمر فعمل بمثل سيرته ، ثم جعلها شورى بين ستة نفر ، فلم يكن منهم رجل الا رجاها لنفسه ورجاها له قومه .. ولو أن عمر استخلف عليهم كما استخلف أبو بكر ما كان في ذلك اختلاف » .

كذلك روى ابن الحصين عن معاوية ، وجاء أناس من ذوي النظر في الحكمة والتاريخ فقالوا بما قال به معاوية ومنهم محمد ابن سليمان المتفلسف فيما رواه عنه ابن مكي الحاجب . قال

---

(١) أي نظر وتفكر . (٢) أي فرق .

ما فحواه (١) : ان اختيار الستة من أهل الشورى ليكون الخليفة واحدا منهم بعد مقتل الفاروق قد جعل كلا منهم يشرئب (٢) اليها ، ويعلم أنه أهل لها ، وكان أشدهم عملا لها وكيدا لعثمان طلحة بن عبيد الله بن عثمان التيمي الملقب بطلحة الجود ، فهو من أبناء عمومة أبي بكر . محبوب لسخائه وشجاعته وسبقه الى الاسلام ، وكان ينافس عليها الفاروق فضلا عمن جاء بعده ، ويرى أن أبا بكر كان خليقا (٣) أن يكلها اليه (٤) ، وأنه اذا فضل عليه عمر فليس بعد عمر من يفضله ، وأعانه الزبير لأن منافسة علي وعثمان اذا وليا الخلافة اشق عليه من منافسة طلحة اذا هي آلت (٥) اليه .

وكان أناس من المجتهدين يتابعون محمد بن سليمان المتفلسف على هذا الرأي ، أو يتابعون معاوية بن أبي سفيان أول من قال به وذهب الى تخطئة عمر في ندبه لاهل الشورى ، ولم تزل منهم بقية في عصرنا هذا ترى الحصافة (٦) والحكمة فيما قاله معاوية، منهم الأستاذ محمد أحمد جاد المولى الذي كان كبيرا للمفتشين بوزارة المعارف ، فهو ينقل كلام معاوية في كتابه « انصاف عثمان » ثم يتبعه قائلا : انه رأي « الحصيف المجرب الذي حلب الدهر أشطره ، وغلب برأيه ودهائه صاحب الحق على حقه . وأقام دولة الاسلام على تخوم (٧) دولة الروم موطدة الأكناف قوية الدعائم . وحاش لعمر أن يتهمه أحد فيما فعل ، فانه لم يرد الا الخير للمسلمين جاهدا ، وكان أعظم ما يرجوه من ذلك ألا يكون خلاف وافتراق بين المسلمين .. وأكبر الظن عندنا أن عمر لو كان في حال غير هذه فربما فضل أن يريح المسلمين من العناء (٨) والمناوشات الحزبية ، ويعهد الى من هو أهل للخلافة . فقد يجد الناس لهذا التعيين حرمة تسكت الألسنة والدولة لا تزال فتية . أعدى أعدائها الشقاق والانقسام .. » .

هذا سبب من أشهر الأسباب المذكورة ، تواتر القول به من أيام الفتنة الى العصر الحاضر . ولو كانت الأسباب التاريخية

---

(١) أي ما معناه . (٢) اشرأب اليه : مد عنقه وتطلع . (٣) أي جديرا . (٤) أي يسندها اليه . (٥) أي انتهت اليه . (٦) حصف : استحكم عقله فهو حصيف ، وأحصف الامر : أحكمه . (٧) تخوم : حدود . (٨) أي التعب .

تهمل على قدر وهنها وظهور الغرض فيها ، لما ورد لهذا السبب ذكر على لسان بعد افضاء معاوية به الى أبي الحصين ، الا أن يكون ذكره لتوهينه والكشف عن غرضه ، وهو مكشوف لا يجهد من يريد أن يلتفت اليه ·

فمعاوية لم ينكر الشورى في اختيار الخليفة الا لأنه أجمع العزم على خطة ولاية العهد ، ورشح لها ابنه يزيد من بعده ، وما كان في هذه الخطة حصافة ولا تجربة لأنها لم تلبث أن أوقعت الخلاف في أقرب الأقربين الى معاوية ، وساقتهم الى تولية العهد اثنين بدلا من ولي عهد واحد ، ولم تحسم الخلاف بين بني أمية فضلا عن حسم الخلاف بين قريش وبين سائر المسلمين ··

وقد قال الشعبي : ان عمر لم يمت حتى كانت قريش قد ملته (١) لقمعه (٢) رؤساءهم وحبسه اياهم بالحجاز خوفا من فتنتهم بالدنيا وفتنة الدنيا بهم ، فاذا كانت هيبته في حياته قد سكنت بهم عن الخلاف ، فهم مختلفون بعد موته لا محالة ، ولو أنه اختار للخلافة أحدا سماه لما اختار طلحة ولا الزبير لأنه لم يذكرهما فيمن تمناه للخلافة من الموتى ولا من الأحياء · فقال : انه كان يختار أبا عبيدة لو عاش ، لانه سمع رسول الله يدعوه أمين الأمة ، أو كان يختار سالما مولى أبي حذيفة لو عاش لأنه رأى رسول الله يقدمه للصلاة بالمهاجرين ·· فلما سمى من يحسبهم مرشحين للخلافة من الأحياء سمى عليا وعثمان ولم يجاوزهما الى غيرهما من الستة أصحاب الشورى ·· فقال لعلي : « اتق الله يا علي ان صارت اليك ، ولا تحمل بني هاشم على رؤوس الناس » وقال لعثمان : « اتق الله يا عثمان ان صارت اليك ، ولا تحمل بني معيط على رؤوس الناس » وما نحسبه سكت عن طلحة الا عامدا وعلى علم بأن اتفاق الستة لا يجمعون عليه وتقية (٣) أن يظن ظان أنها وقف على بني تيم ، ويقينا منه أن اتفاق الستة على واحد أحرى (٤) أن يلزمهم الطاعة لمن يتفقون عليه ·

واذا كان في كلام معاوية لابي الحصين حصافة ألمعية (٥)

---

(١) ملته : سئمته · (٢) يأتي القمع بمعنى : الضرب ، والقهر والاذلال · (٣) أي حذرا · (٤) أحرى : أجدر · (٥) أي ذكية ·

فتلك هي اشارته المقصودة الى التفرقة بين أمور الدين وأمور الدنيا ، واعتباره أن تقديم النبي ــ عليه السلام ــ أبا بكر للصلاة بالناس بمثابة الرضى عنه لأمور دينهم فأضاف الناس اليه الرضى عنه لأمور دنياهم ، ويصح من ثم أن يكون المرضي عنه لهذه غير المرضي عنه لتلك ، وهذا هو المدخل الى ولاية الملك لأمثال يزيد وعقبة (١) مع وجود من هم أفضل منه دينا من جلة (٢) الصحابة والتابعين ··

ونعدل (٣) عن الأسباب المزعومة أو الأسباب التي اجتهد بها المجتهدون الى الاسباب الواقعة التي حدثت ، وكان لها أثر في اهاجة الخواطر وتسويغ الانقلاب ، ومنها ما يتعلق بأمور الدين، ومنها ما يتعلق بأمور الدنيا ، أو أمور الحكم والسياسة :

فمن الأمور التي تتعلق بالدين ، أن الخليفة الثالث زاد النداء في الأذان لصلاة الجمعة ، وأنه أتم الصلاة في منى وعرفة ، وكان النبي والخليفتان الأولان يقيمونها على القصر ، وقد صلاها عثمان نفسه في أول خلافته ركعتين ، ومنها ، [illegible] القرآن الكريم في نسخة ، وأمر باحراق ما عداها في المدينة والأمصار ··

ولم يكن عثمان ــ رضي الله عنه ــ في واحدة من هذه مستبيح حرام ، بل كان متحرجا غاية التحرج لدينه ، فقد زاد في الأذان لكثرة عدد الناس ، واتساع المدينة ، وصلى صلاة المقيم لأنه اتخذ بمكة أهلا . فتحرج أن يصلي صلاة المسافر وهو صاحب أهل فيها . وقد كان جمعه القرآن الكريم حسنة من أجل الحسنات، سبقه أبو بكر وعمر الى مثلها ، فحمد المسلمون صنيعهما وأنكره من أنكره منهم أولا ، ثم عادوا الى قبوله بل ألفوه وأثنوا عليه ·

قال عمر : ان القتل قد استحر (٤) بأهل اليمامة ، وأخشى أن يستحر بقراء الكتاب في غيرها ، فيذهب ما حفظوه بذهابهم ، الا أن يجمعوه ، وأشار على الخليفة الأول بجمعه ، فكانت مفاجأة نفر منها أبو بكر وجعل يقول : « كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله ؟ » · فقال عمر : « هو والله خير » · قال أبو بكر : « نعم خير » · ولم يزل عمر يراجعه حتى شرح الله لذلك صدره ··

(١) أي من جاؤا بعده من الأبناء · (٢) جلة القوم : سادتهم وعظماؤهم،
(٣) عدل عنه : حاد ، وعدل اليه رجع · (٤) استحر القتل : اشتد ·

ثم أخذوا يتتبعون آي القرآن ويجمعونها من الرقاع والعسب (١) والأكتاف وصدور الرجال ، حتى وجدوا من سورة التوبة آيتين عند خزيمة بن ثابت لم يجدوهما عند غيره ، وتم جمع الكتاب في مصاحف عند طائفة من جلة الصحابة كالامام علي ، وعبد الله بن مسعود ، وزيد بن ثابت ، ومعاذ بن جبل ، وأبي بن كعب ، وجاء عثمان فسد ذرائع الخلاف ، ولم يأت بشيء من عنده غير تعميم المصحف في جميع البلدان ليقرأه المسلمون على نسخة واحدة ٠

ولئن كان في بعض هذه الأمور التي تتعلق بالدين مخالفة للمألوف لقد خالف عمر المألوف في منع زواج المتعة ، وفي نقص الأعطية للمؤلفة قلوبهم ، وفي الاعفاء من حد السرقة في عام المجاعة ، وفي تسوية الصفوف بالمسجد عند الصلاة ، وفي مسائل أكبر مما أحصوه على عثمان ، فلم يتحدث بها متحدث على سخط وتذمر فضلا عن الثورة وحمل السلاح ٠

ولا نطيل في سرد الأمور « الدنيوية » التي قيل : أنها هاجت (٢) الفتنة على عهد عثمان . ومنها ، غلبة قريش على الأمصار وسيادة العرب على الأمم الاخرى ، واقامة بعض الولاة الذين اتهموا في تقواهم وبذل الاموال لذوي القرابة والنصراء٠

فقد ثار الثوار ، فجاء الكوفيون يطلبون الزبير ، وجاء البصريون يطلبون طلحة وجاء المصريون يطلبون عليا وكلهم من صميم قريش ٠٠ وقد أقام معاوية ملكه بقريش والعرب ، وكان بذل الأموال لذوي القرابة والنصراء عماد دولته ووسيلته الى تأسيس بيته وبسط سلطانه ٠

ومن الولاة الذين أنكر الثائرون ولايتهم لاتهامهم بشرب الخمر الوليد بن عقبة ، وقد حده (٣) عثمان بعد استماعه للشهادة عليه ، ولم تكن ولايته على عهد عثمان . بل ولاه عمر على الجزيرة ٠ واختاره عثمان لولاية الكوفة ٠

وسنرى بعد ، أنه ما من عمل نسب الى الخليفة الثالث الا حدث مثله من قبله ، فلم تنشب من أجله فتنة ، أو حدث مثله من

---

(١) جريد النخل ٠ (٢) هاج الشيء : أثاره ٠ (٣) نفذ فيه حد شارب الخمر ٠

بعده فلم تنشب من أجله فتنة ، بل لعله كان من دعائم الدولة وأساس السلطان ·

ولهذا قلنا : انها أسباب ولا أسباب ، وأنها بين أسباب مزعومة يراد بها غير ظاهرها ، أو أسباب صحيحة ولكنها لم تفعل فعلها الا لاقترانها بأحوال تلك الفترة ، ولو جاءت في فترة أخرى لما كان لها ذلك الأثر ·

لم ؟ ··

نعم ، لم والأسباب واحدة تختلف عواقبها بين هذه الفترة وغيرها ؟ ··

ذلك أنها فترة جاءت بين الخلافة والمملكة ، فلا تستقيم فيها وسائل الخلافة ولا تستقيم فيها وسائل المملكة ·· ومن هنا اضطراب الوزن ، واضطراب السخط والرضى ، وقياس الأمور في وقت واحد بمقياسين مختلفين أو متعارضين ·· ولعمر الحق (١) ما من شيء يدل على أن الأحداث السياسية تبع للحالة النفسية ومقاييس الفكر والأخلاق كما يدل عليه تاريخ هذه الفترة في صدر الاسلام بين خلافة الراشدين ودولة بني أمية ·

لقد كان الناس رعية « مملكة » يتصرفون في معايشهم ومطالبهم كما يتصرف رعايا الممالك ، ويسومون ولي أمرهم أن يسوسهم سياسة الخلافة وينتظرون من الخليفة الثالث ألا يجري في أمر من الأمور على نهج ينحرف قيد شعرة (٢) عن نهج الخليفتين الأول والثاني ، وهم أنفسهم قد انحرفوا عن نهج رعايا الخليفتين أبعد انحراف ·

ومما لا جدال فيه أن عثمان لم يكن بقوة أبي بكر وعمر ، ولكن عمر نفسه على قوته ومهابته قد أحس في أخريات أيامه وطأة (٣) الاختلاف بين العهود فكان يقول في دعائه : « اللهم كبرت سني ، وضعفت قوتي ، وانتشرت رعيتي ، فاقبضني غير مضيع ولا مفرط ·· » ·

فتكليف عثمان أن يستبقي الزمن حيث لا يبقى ضرب من

---

(١) أسلوب قسم · (٢) قيد شعرة : أي قدر شعرة · (٣) الوطأة: موضع القدم وهي أيضا كالضغطة

تكليف الأيام ضد طباعها كما قال الشاعر الحكيم ، وقد أسلفنا الاشارة الى ذلك فقلنا في عبقرية الامام : ان عثمان « أحس بها فما فارق الدنيا حتى ترك الخلافة والملك عسكرين متناجزين لا يرجع أحدهما الا بالغلبة على نده (ضده) » .

وقلنا قبل ذلك : « انه لا بد من ملك أو خلافة ، ولن يكون ملك بأدوات خليفة ولا خليفة بأدوات ملك .. ولم يكن معاوية زاهدا في الخلافة على عهد أبي بكر أو عمر أو عثمان ، ولكن الخلافة كانت زاهدة فيه ، فلما جاء عصر الملك طلب الملك والملك يطلبه .. » .

ثم قلنا : « كيف يكون المخرج بين سياسة الملك كما يطلبها العصر وسياسة الخلافة كما تطلبها البقية الباقية من آداب الفترة النبوية !.. أيفرق الأموال على رؤوس القوم وقادة الجند وطلاب الترف ، أم يلزمهم عيشة النسك (١) والشظف (٢) والجهاد ؟ واذا حرمهم وتألبوا عليه (٣) مع خصمه أفهو الغالب اذا بمطالب العصر ومقتضياته ودواعيه أم هم الغالبون ؟ واذا أعطاهم ليبذخوا (٤) بذخ الملك الدنيوي وهو وحده بينهم الناسك المجتهد على سنة النبوة ، أفيستقيم له هذا « الدور » العجيب وهو في جوهره متناقض لا يستقيم ؟ » .

تلك هي العقدة التي استحكمت في عهد عثمان ووجب أن تنقطع في عهد علي ومعاوية ..

واعادة النظر في جميع الأسباب والتبعات تعود بنا الى نظرة فاصلة في هذه المشكلة التي زادها نفر من المؤرخين اشكالا بما أضافوه اليها من الأسباب المختلفة (٥) والأسباب الصحيحة التي خرجوا بها على غير مخرجها .

---

(١) النسك : العبادة . (٢) الشظف : خشونة العيش . (٣) أي قاموا ضده . (٤) البذخ : الكبر . (٥) أي من نسجهم وتأليفهم

فنحن أولا في تاريخ الخليفة الثالث أمام حادثين لا تكفي أسباب أحدهما لتفسير الحادث الآخر .

ونحن في الحادثين جميعا بعد هذا أمام أسباب لا تفعل فعلها لو جاءت في فترة أخرى ، ولعلها تفعل نقيض فعلها فتؤيد ولي الأمر ولا تخذله كما تأيدت دولة بني أمية بالعطايا والعمائر وكان فيها خذلان عثمان ومشيره مروان ..

وما لم تنقطع غاشية هذا اللبس وهذا الابهام من تاريخ هذه الفترة فنحن نسلكها في ضباب لا تبدو فيه الأشباح والصور على حقيقتها ، ومن ثم رجونا أن نبدأ السيرة وقد تبدد ما حولها من غواشي ذلك الضباب الكثيف ، وسنبدؤها من حيث تبدأ في طريق لا يبهمه اختلاط الأسباب ولا التعويل عليها مبتورة (١) منفصلة الرؤوس والأذناب ..

❋ ✶ ❋

(١) مبتورة ومقطوعة .

الفصل الثاني

بين الجاهلية والاسلام

نشأ عثمان بن عفان في أسرة أموية تنتمي الى أمية جد أبيه ، وعند أمية يكثر الخلاف على سلسلة النسب بين أسرته والنسابين (١) ، فلا تتفق الأقوال المتضاربة على قول حاسم (٢) .

يقول المقريزي في رسالة النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم : « وقد كانت المنافرة لا تزال بين بني هاشم وبني عبد شمس بحيث أنه يقال : ان هاشما وعبد شمس ولدا توأمين ، فخرج عبد شمس في الولادة قبل هاشم وقد لصقت اصبع أحدهما بجبهة الآخر ، فلما نزعت دمي المكان ، فقيل : سيكون بينهما أو بين ولديهما دم ، فكان كذلك ..

« ويقال : ان عبد شمس وهاشما كانا يوم ولدا في بطن واحد ، كانت جباههما ملصقة بعضها ببعض ، ففرق بين جباههما بالسيف ، فقال بعض العرب : ألا فرق ذلك بالدرهم ؟ فانه لا يزال السيف بينهم وبين أولادهم الى الأبد » ..

وأمية هو في تاريخ الأسرة ابن عبد شمس أحد التوأمين أو الأخوين ، ولكن بعض النسابين يقول : انه ربيب (٣) عبد شمس ، وانه ابن جارية رومية وصلت الى الحجاز مع ركب سفينة جنحت (٤) الى الشاطيء ، ويفسرون بذلك أبياتا منسوبة الى أبي طالب يقول فيها :

قديما أبوهم كان عبدا لجدنا بني أمية شهلاء جاش بها البحر

ويفسرون به أيضا قول الامام علي لمعاوية في بعض كتبه : « ليس المهاجر كالطليق ولا الصريح (٥) كاللصيق (٦) » .. وجاء في ابن هشام أن عقبة بن ذكوان بن أمية صاح حين أمر

---

(١) النسابين : الذين يعرفون تسلسل الانساب . (٢) أي قاطع .
(٣) ربيب الرجل : هو ابن امرأته من رجل آخر . (٤) جنحت : مالت .
(٥) صرح نسبه : خلص . (٦) اللصيق : المنسوب لغير أصله .

النبي بقتله : « أأقتل من بين قريش ؟ » • فقال عمر بن الخطاب : « حن قدح (١) ليس منها » وهو مثل يضرب للقدح الدخيل في الميسر ، وروى ابن هشام أيضا •• أن النبي ــ عليه السلام ــ قال حينئذ : « انما أنت يهودي من أهل صفورية » ويقال في تفسير الحديث : أن الأمة التي ولدت أباه كانت ليهودي من أهل صفورية ، ويقال غير ذلك مما يعسر الفصل فيه ••

ولكنه من الراجح الذي ينتهي به التاريخ الى دور التحقيق ، أن التبني وتدعيم العصبية به معهودان في هذه الأسرة على نحو لم يذكر له مثيل في الأسر الجاهلية الكبيرة ، ومما رواه الأصفهاني وابن أبي الحديد : أن معاوية قال لدغفل النسابة : « أرأيت أمية ؟ » • قال : « نعم » • قال : « كيف رأيته ؟ » • قال : « رأيته رجلا قصيرا ضريرا يقوده عبده ذكوان » • قال معاوية : « ذلك ابنه أبو عمرو » • قال دغفل : « ذلك شيء تقولونه أنتم ، أما قريش فلم تكن تعرف الا أنه عبده » •

وفي التاريخ الثابت بعد الاسلام أن أبا سفيان استلحق زيادا الذي كان يسمى بزياد بن أبيه أو بزياد بن سمية ، وكان معاوية يغضب على من ينكر هذا الاستلحاق ، فقال يزيد بن مفرغ يخاطبه :

أتغضب أن يقال أبوك عف(٢) وترضى أن يقال أبوك زان
فأقسم ان رحمك من زياد كرحم الفيل من ولد الأتان

وروى البلاذري من أخبار هذا الاستلحاق : أن عثمان بن محمد بن أبي سفيان ولي المدينة بعد عمرو بن سعيد ، فعرض في خطبته بسلفه ، وكان هذا حاضرا في المسجد ، فنهض مغضبا ، وقال فيما قاله لعثمان حفيد أبي سفيان : « انني لا يستنكر شبهي ولا أدعي لغير أبي » ••

ويزيد المقريزي على ما تقدم من خبره : أن أمية « صنع في الجاهلية شيئا لم يصنعه أحد من العرب : زوج ابنه أبا عمرو امرأته في حياته » •

---

(١) القدح : السهم •
(٢) أي عفيف •

قال المقريزي : « والمقتيون (١) في الاسلام هم الذين أولدوا نساء آبائهم واستنكحوهن من بعد موتهم · وأما أن يتزوجها في حياته ، ويبنى عليها (٢) وهو يراه ، فان هذا لم يكن قط · وأمية قد جاوز هذا المعنى ولم يرض بهذا المقدار حتى نزل عنها له وزوجها منه » ·

ثم قال المقريزي : « وأبو معيط بن أبي عمرو بن أمية قد زاد في المقت درجتين » ··

وندع (٣) ما جاء في أنساب الأشراف وفي شرح نهج البلاغة من سائر هذه الأخبار عن استلحاق الأبناء ، فان الحرص على تدعيم العصبية ظاهر في هذه الأسرة ، مما ثبت من أخبارها ، فلا حاجة الى الاسهاب فيه ·

وكانت المنافرة شديدة بين أمية وهاشم الى أيام الدعوة المحمدية ، يحفظ لنا الرواة أخبارا كثيرة منها قديمة وحديثة ، فمن أحدثها قبل الدعوة الاسلامية : أن حربا بن أمية وعبد المطلب بن هاشم تنافرا (٤) الى حكم من بني عدي القرشيين هو نفيل جد الفاروق ، فقال نفيل لحرب : « أتنافر رجلا هو أطول منك قامة ، وأعظم منك هامة (٥) ، وأوسم منك وسامة (٦) ، وأقل منك لامة (٧) ، وأكثر منك ولدا ، وأجزل (٨) منك صفدا (٩) ، وأطول منك مذودا (١٠) :

أبوك معاهر (١١) وأبوه عف ... وذاد الفيل عن بلد حرام

يشير الى تعرض أمية للنساء ، ومنهن امرأة من بني زهرة راودها فتصدى له بعض قومها ، وأوشكت أن تكون من جراء هذا الخلاف فتنة بين قبائل قريش ··

وأقدم من هذه المنافرة منافرة أخرى بين هاشم وأمية تكلف فيها أمية أن يصنع صنيع هاشم ، وكان هاشم ــ واسمه عمرو ــ

(١) نكاح المقت : كان في الجاهلية ، وهو أن يتزوج الرجل امرأة أبيه ·
(٢) بنى على أهله : زف ودخل · (٣) أي تترك · (٤) تنافرا : أي تحاكما في الحسب أو المفاخرة · (٥) الهامة : الرأس ، وهامة القوم : رئيسهم · (٦) الوسيم : حسن الوجه · (٧) أي ما يلام عليه · (٨) أي أكثر · (٩) الصفد : العطاء · (١٠) المذود : اللسان · (١١) المعاهر : الذي يأتي النساء للفجور ·

قد غلب عليه لقب هاشم لأنه تكفل باطعام المعوزين من أهل مكة وجيرتها عام المجاعة ، فكان يهشم الثريد لهم وينحر الابل ويتعهد الفقراء ، وفيه يقول شاعرهم :

عمرو الذي هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف

فأراد أمية أن ينافسه في الشرف ومحبة الناس اياه فعجز عن هذه المنزلة ، فدعاه الى المنافرة كعادتهم ، واحتكما الى كاهن خزاعة بعسفان على خمسين ناقة تنحر بمكة وجلاء عشر سنين من جوار الحرم ، فقال الكاهن سجعا على أسلوب الكهان والمحكمين جميعا يومئذ : « والقمر الباهر (١) ، والكوكب الزاهر (٢) ، والغمام الماطر ، وما بالجو من طائر ، وما اهتدى بعلم مسافر . من منجد وغائر (٣) ، لقد سبق هاشم الى المآثر (٤) ، أول منه وآخر ، وأبو همهمة بذلك خابر » .

وأبو همهمة الذي أشار اليه الكاهن هو حبيب بن عامر الذي خرج مع أمية ، وينتهي نسبه الى فهر بن مالك . وكأنما أراد الكاهن بذكره أن يذكره بما في النسب الأول والآخر من سر هو به خبير .

قال الرواة : فأخذ هاشم الابل فنحرها وأطعم لحمها من حضر ، وخرج أمية الى الشام فأقام بها عشر سنين .

ويكاد التنافس بين العشيرتين أن يشمل كل مطلب من مطالب الحياة ، فشمل الفروسية ، ووسامة الذرية ، كما شمل الرئاسة ، ومفاخر السيادة .

تنافس أمية وعبد المطلب على سباق الخيل ، وتراهنا على أن تجز ناصية (٥) المسبوق سنة ، ويغرم عددا اختلفوا فيه من العبيد والاماء والابل ، فسبق فرس عبد المطلب فرس أمية ، ودان أمية بسيادته عليه سنة ، وينقل ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة كلمة لعبد الله بن جعفر في محضر معاوية جبه (٦)

---

(١) بهر القمر : أضاء حتى غلب ضوء الكواكب . (٢) زهرت النار : أضاءت ، والازهران : الشمس والقمر . (٣) أي مرتفع ومنخفض ، أو منجد : نسبة الى نجد ، وغائر نسبة الى تهامه . (٤) أي المكارم المتوارثة . (٥) الناصية : قصاص الشعر . (٦) جبه : ضرب جبهته ورده ، أولقيه بما يكره ، وهو المراد .

بها يزيد وهو يفاخره فقال : « أتفاخرني بحرب الذي أجرناه أم بأمية الذي ملكناه أم بعبد شمس الذي كفلناه ؟ » ٠

ويقول الكلبي في أبناء عبد المطلب : « كانوا اذا طافوا بالبيت يأخذون البصر » ، ورآهم عامر بن مالك فقال : « بهؤلاء تمنع مكة » ، وغير هذه الصفة تقال في أبناء حرب ، فلا يتصدى لنقضها أحد من الأمويين المتقدمين ٠٠

ونحسب أن المنافسة بين العشيرتين كانت ضربة لازب ، لأن الاختلاف بينهما أعمق غورا من الاختلاف على الرئاسة ومناصب الشرف فيما اصطلح عليه عرف الجاهلية : كان اختلافا في الخلق والطبيعة ، وكان بنو هاشم على ما ثبت من الروايات المتقدمة أقرب الى الأخلاق المثالية الدينية ، وبنو أمية أقرب الى الأخلاق العملية الدنيوية ٠ وقد يتردد المؤرخ في قبول بعض الروايات المتقدمة على علاتها ، ولكنه لا يحتاج الى المشكوك فيه من تلك المرويات ليعلم هذا الفارق الواضح من خلائق العشيرتين فيما أثر عنهم قبل الاسلام وبعد الاسلام ، ففي حلف الفضول قام بنو هاشم بالأمر وقام به معهم بنو أسد وبنو زهرة وبنو تيم ، وتخلى عنه بنو عبد شمس فلم يشتركوا فيه ٠٠ وحلف الفضول هذا هو الذي قال عنه النبي ـ عليه السلام ـ : « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلف الفضول ٠٠ أما لو دعيت به اليوم لأجبت ، وما أحب أن لي به حمر النعم وأني نقضته » ٠

وخلاصة قصته : أن رجلا يمانيا قدم مكة ببضاعة ، فاشتراها رجل ، فلواه (١) بحقه ، وأبى أن يرد اليه بضاعته ، فقام في الحجر أو في مكان على شرف (٢) وصاح يستغيث ، وكان من أجل ذلك أن تعاهد أناس من بني هاشم وأحلافهم ألا يظلم بمكة غريب ولا قريب ولا حر ولا عبد الا كانوا معه حتى يأخذوا له بحقه من أنفسهم ومن غيرهم ، وعمدوا الى ماء من زمزم فجعلوه في جفنة (٣) وبعثوا به الى البيت فغسلت به أركانه وشربوه ٠٠

وقد أبى الأمويون وبنو عبد شمس عامة على أحد منهم أن

---

(١) لواه بدينه : مطله ٠ (٢) شرف : مكان عال ٠ (٣) الجفنة كالقصعة ٠

يدخل هذا الحلف ، فكان أحدهم عتبة بن ربيعة يقول : « لو ان رجلا وحده خرج من قومه ، لخرجت من عبد شمس حتى أدخل حلف الفضول » .

وان طبيعتين يفصلهما هذا الفاصل من ذوات النفوس ، لا جرم (١) تتنافران وان ضمهما بلد واحد ، وانهما في البلد الواحد لأخلق بالتنافر من المتباعدين ..

هذه العجالة عما كان من المنافرة بين بني هاشم وبني أمية في الجاهلية تدخل في سيرة عثمان من مداخل شتى (٢) ، وقل أن يمر بنا مبحث في عمل من أعماله أو خلق من أخلاقه الا كانت به عودة الى تلك المنافرة .

فمنها نفهم أن فضل عثمان في اسلامه لا يدانيه أحد من السابقين المعدودين الى الاسلام . اذ لم يكن منهم من أقامت أسرته بينها وبين النبي هذه الحواجز العريقة من المنافسة والملاحاة . وكلهم كان بينهم وبين الاسلام ما كان بين القديم عامة والجديد عامة ، ولم تبلغ عداوتهم أن تكون من عصبية اللحم والدم أو عصبية البيت كما كانت عداوة الأمويين للهاشميين . وليست هذه العداوة في الجاهلية بالشيء الهين ولا بالعقبة المذللة (٣) . فقد رأينا رجلا من بني عبد شمس كان يتمنى أن يشهد حلف الفضول فحماه أن يفعل ذلك خشية الخروج على قومه ببدعة (٤) لم يقبلوها ولم يشتركوا فيها ، وهذا مع ما هو واضح من الفارق بين دعوة كحلف الفضول لا تنقض دينا ، ولا تغير عبادة ، ولا تميز أحدا من الداخلين فيها بشرف أو سيادة ، وبين دعوة كالدعوة المحمدية تحطم كل صنم ، وتبدل كل عبادة ، وتثبت لبيت عبد المطلب شرفا لا يسمو اليه شرف بين الناس كافة ، فضلا عن قريش وأمة العرب بكل من تشتمل عليه ..

وما تقدم من شواجر (٥) النزاع بين أمية وهاشم كاف للابانة عن فضل عثمان في سبقه مع السابقين الى قبول الدعوة المحمدية .. الا أن هذا الذي تقدم لم يكن شيئا الى جانب الشر الذي قوبل به النبي في بيت عثمان نفسه وبين عمومته وقرابته من جملة الأمويين ..

---

(١) بمعنى لا بد ، أو حقا . (٢) أي متعددة . (٣) أي السهلة .
(٤) البدعة : الامر المستحدث . (٥) شجر القوم : اختلفوا .

فالحكم بن العاص ـ عم عثمان ـ كأن يتصدى للنبي ويشتمه ويمشي وراءه يحكيه (١) في مشيته ويخلج (٢) بأنفه وفمه، فقيل: انه ـ عليه السلام ـ التفت اليه وهو بهذه الحالة فلزمه ذلك الاختلاج، وقال فيه عبد الرحمن بن حسان وهو يهجو مروان ابنه:

ان اللعين أباك فارم عظامه
ان ترم ترم مخلجا مجنونا
يضحي خميص (٣) البطن من عمل التقى
ويظل من عمل الخبيث بطينا (٤)

وقد لبث على دخلة (٥) نفسه بعد اسلامه عام الفتح خوفا من القتل، فكان يتطلع على النبي في داره، فرآه مرة فقال: « من عذيري من هذا الوزغة! (٦) » ثم أمر ألا يساكنه بالمدينة، فأخرج مع بنيه الى الطائف لا يدخل المدينة ما أقام فيها ـ عليه السلام ـ .

ومنهم عقبة بن أبي معيط الذي كان يتربص بالنبي حتى يسجد في صلاته فيلقي على رأسه سلا (٧) الشاء أو يطأ على عنقه الشريفة كما قال النبي في يوم بدر: « انه وطيء على عنقي وأنا ساجد فما رفعت حتى ظننت أن عيني قد سقطتا » .. وكان أحد الأسرى الذين قتلوا ببدر لشدة ما ابتلي به المسلمون من أذاهم قبل الهجرة، وفي بيت عقبة هذا أقام عثمان زمنا، لأنه تزوج من أمه بعد موت أبيه في صباه .

وتصدى للنبي ـ عليه السلام ـ كثيرون غير هذين من قرابة عثمان وخاصة أهله. ولم يدخل في الاسلام أحد من بني أمية قبله مع هذه العداوة في أسرته كلها وفي خاصة قرابته منها، فله من فضل هذه السابقة ما ليس لأحد السابقين الى قبول الدعوة المحمدية .

ولما أسلم ـ رضي الله عنه ـ أخذه عمه الحكم، فأوثقه رباطا،

---

(١) يحكيه: أي يمشي مثله ويقلده . (٢) من معاني خلج: غمز وحرك
(٣) الخمصة: الجوعة، وهو خميص: أي جائع . (٤) البطين: عظيم البطن .
(٥) دخلة الرجل: نيته، ومذهبه، وخلده، وجميع أمره . (٦) الوزغة: جمع وازغ، ومن معاني الوازغ: الكلب . (٧) أي الامعاء .

وعذبه ، وأقسم لا يخلينه أو يدع ما هو فيه ، فأقسم لا يدعنه أبدا ، وصبر على العذاب حتى يئس منه عمه فأخلاه ٠

وروي في سبب اسلامه أن أبا بكر شرح له قواعد الاسلام ، وهداية الدين الجديد ، وأنس منه خشوعا وتفكيرا ، فقال له : « ويحك يا عثمان ، والله انك لرجل حازم ما يخفى عليك الحق من الباطل ٠٠ ما هذه الأوثان التي تعبدها وقومك ؟ أليست حجارة لا تسمع ولا تبصر ولا تضر ولا تنفع ؟ » ٠ فراجع نفسه وقال : « بلى والله انها لكذلك » فدعاه أبو بكر الى لقاء النبي ، ولقيه ، فقال له ـ عليه السلام ـ : « يا عثمان ! ٠٠ أجب الله الى جنته » ٠ قال عثمان : « فوالله ما ملكت حين سمعت قوله أن أسلمت وشهدت أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، ثم لم ألبث أن تزوجت رقية » ٠

ومن المتواتر أن عثمان كانت له خالة اسمها سعدى بنت كريز تتكهن وتتعبد ، ونقل عنها : أنها هنأته باسلامه وزواجه ، فقالت :

هدى الله عثمان الصفي بقوله
فأرشده والله يهدي الى الحق
فبايع بالرأي السديد محمدا
وكان ابن أروى لا يصد عن الصدق
وأنكحه المبعوث خير بناته
فكان كبدر مازج الشمس في الأفق

وينقل عنها غير ذلك : أنها كانت طرقت (١) وتكهنت عند قومها فلما رأته يعد قيام النبي بالدعوة قالت :

أبشر وحييت ثلاثا تترى (٢)
أتاك خير ووقيت شرا
أنكحت والله حصانا (٣) زهرا (٤)
وأنت بكر ولقيت بكرا

(١) الطرق : الضرب بالحصى ، وهو نوع من التكهن ، والطراق ، المتكهنون ، والطوارق ، التكهنات : (٢) أي متتابعة ٠ (٣) الحصان : العفيفة ٠ (٤) الزهراء : ذات الوجه الابيض المشرق ٠

وافيتهـــا بنـــت عظيـــم قـــدرا
بنـــت نبـــي قـــد أشـــاد ذكـــرا

قال عثمان : « فعجبت من كلامها وسألتها : يا خالة !٠٠ ما تقولين ؟ » ٠ قالت : « يا عثمان !٠٠ لك الجمال ولك اللسان ، هذا نبي معه البرهان ، أرسله بحقه الديان ، فاتبعـه وأهجر الأوثان » ٠ واستزادها قائلا : « يا خالة !٠٠ انك لتذكرين شيئا ما وقع ذكره في بلدنا فأبينيه لي » ٠ قالت : « محمد بن عبد الله رسول من عند الله جاء بتنزيل الله يدعو الى الحق والهدى » ٠

ويقال : ان عثمان انما ذهب الى ابي بكر بعد ما سمعه من خالته ، فرآه أبو بكر مفكرا ، فسأله وجرى بينهما بعد ذلك ما تقدم من النصيحة والاستجابة على ما اتفقت به الروايات ٠

ونحن نسقط من حسابنا ما روي من كلام الكاهنة ، لأنـه ضعيف السند لا يبقى منه الا أن خالة لعثمان كانت تتكهن وتتعبد ، وأن مسألة الدين في بيته كانت شغلا شاغلا لمن يأخذه على العصبية والعناد ، أو يأخذه على العبادة والتقوى . فما نظن أن رجـلا في الثلاثين ــ وهي سنه عند اسلامه ــ كان يعصي اله جميعا ويطيع شيخة عقاما (١) لو لم يكن في ضميره باعث مطاع الى الايمـان بالدين الجديد ٠

وفي وسعنا أن نتخيل غضب قومه الأقربين من اسلامه ، فقد كان كأشد غضب لحق مسلما من قومه المقيمين على الجاهلية ، ولكنه مع هذا لم يمنع أناسا منهم أن يلوذوا (٢) به خوفا على أنفسهم بعد هزيمتهم ، ولم يمنـع أن يتشفع لهم عنـد النبي وصحبه ، ويسأله العفو عنهم ، وكذلك نرى ان تاريخ أمية في الجاهلية يحضرنا عند تقدير فضل عثمان في اسلامه ويحضرنا عند تقدير أعذاره وعلل أعماله التي أخذت عليه بعد ولايتـه الخلافة ٠ فقد كان لتدعيم العصبية وتأليبها شأن قديم في تاريخ هذه الأسرة ، ألجأها الى استلحاق الأبناء من الموالي ، والى تزويج البنين من زوجات آبائهم أو الموالي من زوجـات أوليائهم ، ولا

(١) المرأة العقام : التي لا يولد لها ٠ (٢) يقال : لاذ بفلان : أي لجأ اليه ٠

ندري على التحقيق بم نعلل هذه العادة التي انفردوا بهـا أو كادوا ، الا أنها قد تعلل بأن القوم لم يكونوا من الخمول بحيث يسكنون الى خمولهم ، ولم يكونوا من العزة الراسخة (١) بحيث يطمئنون الى عزتهم ، وأنهم ــ وان لم يعقموا ــ لم تشتهر عنهم غزارة (٢) الذرية في الجاهلية ، ولا في الاسلام ، وهذه سلسلة ولاية العهد أوشكت أن تنقطع في كل بيت من بيوتهم ولي الخلافة بعد قيام الدولة الأموية ، وربما انقرض (٣) البيت في جيل أو جيلين ، وبقي معاصروه من غيرهم عدة اجيال ..

وقد انتهت المفاخرة بعد الاسلام بين المسلمين من بني أمية وبين بني عبد المطلب ، فما من اموي مسلم كان يتعالى الى مطاولة آل النبي بالنسب من جانب آبائه ــ عليه السلام ــ خاصة ، ولكنهم مع هذا ــ ولا استثناء لأصدقهم اسلاما كعثمان وصحابة النبي ــ قد كانوا يودون لو سمعوا عن أمية كلما سمعوا عن هاشم وبنيه . وتقدم أن معاوية سأل دغفلا النسابة عن أمية [illegible] عن عبد المطلب ، وابن أبي الحديد ، يروي مثل هذا عن عثمان في أيام خلافته ، وأنه ــ رضي الله عنه ــ تمنى رجلا يحدثه عن الملوك وسير الماضين ، فذكروا له رجلا بحضرموت ، فكان مما سأله عنه : أرأيت عبد المطلب ؟ قال : « نعم ، رأيت رجلا قعدا أبيض طوالا مقرون الحاجبين بين عينيه غرة يقال أن فيها بركة ، وأن فيه بركة » .. فعاد يسأله : « أفرأيت أمية ؟ » قال : « نعم .. رأيت رجلا آدم (٤) دميما (٥) قصيرا اعمى يقال أنه نكد (٦) . وان فيه نكدا » . قال عثمان : حسبك من شر سماعه ، وصرف الرجل ..

ولا ينبغي أن ينسى العذر حيث يذكر الفضل للرجل من سوابق آله وذويه ..

---

(١) الراسخة : أي القوية . (٢) غزارة : كثرة . (٣) انقرض القوم : ماتوا ولم يبق منهم أحد . (٤) الآدم من الناس : الاسمر . (٥) الدميم : القبيح . (٦) رجل نكد : أي شؤم عسر ، ورجل نكد : قليل العطاء .

نشأتـه وشخصيتـه

ترجمة عثمان ترجمة سوية ، لا نستغرب من لاحقها بعد الاسلام شيئا مما نعلمه عن سابق سيرته قبل اسلامه ، واذا فاجأنا بالغرابة لأول وهلة فانما نستغرب به من أثر المفاجأة ، ثم نعود الى دواعيه فاذا هو مطرد لا غرابة فيه ..

نشأ في نعمة وعيش خفيض (١) ، وكانت ولادته بالطائف أخصب بقاع الحجاز ، لست سنوات مضت من عام الفيل ، ولم يؤثر عنه أنه اختبر شظف (٢) العيش قط في صباه أو طفولته ..

وهو ابن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، كان أبوه تاجرا واسع التجارة ، وكان يحمل قوافله الى الشام على دأب (٣) الأكثرين من تجار بني أمية ، وفي احدى هذه الرحلات التجارية مات عن ثروة عظيمة ، وترك ابنه بين الصبا والشباب ..

واذا صح ما جاء في أنساب الأشراف للبلاذري ، فقد كان عفان يعمل في حياكة الثياب : « عفان أول حائك لثيابكم » . ولكننا نستبعد جدا أن يجمع الثروة من حياكة الثياب بيديه ، ومن الراجح اذا أنه كان يدير مصنعا من مصانعها ، أو أنه عمل بها في صباه ثم تحول عنها الى التجارة .

وأم عثمان هي أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس ، وأمها أروى البيضاء بنت عبد المطلب عمة النبي ــ عليه السلام ــ وقد سبق أن أختها تتكهن وتنقطع للكهانة ، ففي وراثته من جانب أمه جنوح (٤) الى طبيعة التدين التي اشتهر بها عبد المطلب وآباؤه وبنوه .

ويروى كما جاء في ابن الأثير : أن عقبة بن معيط شكاه الى أمه ــ وكان قد تزوج بها بعد وفاة عفان ــ فقال لها : ان ابنك قد صار ينصر محمدا ، فلم تنكر ذلك من ابنها وقالت : « ومن أولى به منا ؟.. أموالنا وأنفسنا دون محمد » ..

---

(١) عيش خافض وخفيض : أي فيه دعة . (٢) شظف العيش : يبسه وشدته . (٣) الدأب : العادة والشأن . (٤) جنوح : أي ميل .

وقد كان مألوفا في الجاهلية أن تتزوج المرأة بعد تطليقها من زوجها أو بعد وفاته ، ولكن هذه العادة المألوفة لا تمنع أن ينقبض لها الابن وأن ينكسر لها بينه وبين نفسه ، فيلازمه منها بعض الخجل . ولا يرتاح اليها بأية حال ..

ويبدو من دراسات علم النفس الحديث أن « مشكلة الآب » قد تمكنت من طوية الصبي ، فكان لها فعلها في توجيه شعوره من ناحية ذويه ومن ناحية البيئة بأسرها ، فضاعفت ما في وراثته الأموية من الايواء الى ذوي قرباه ، وهيأت نفسه للنفور من الوضع القائم في البيئة فلم يصعب عليه أن ينكر الأوضاع القائمة في نطاقها الأعم الأوسع ، وهو نطاق الشعائر الجاهلية ..

ذلك أنه نشأ وهو يحس أن رب البيت الذي نشأ فيه عاصب ينتزع مكان أبيه ، فتمكنت من نفسه الريبة في الأوضاع القائمة ، ولم يحتملها الا على مضض (١) الكاره وترقب المتربص (٢) ، وبخاصة حين تأتي من ناحية الأم التي تتمثل لابنها في هذه الحالة كأنها مغلوبة على أمرها منتزعة ممن هو أحق بها ..

وقد أسلفنا أننا لا نعول كثيرا على الرواية التي تعود باسلام عثمان الى نصيحة خالته الكاهنة ، فليس في كلامها مقنع للفكر يحول رجلا في الثلاثين عن دينه وتراث بيته ، ولكنها على هذا تدل على داعية من الشعور لا نهملها ولا نستبعد مكانها من السريرة الباطنة ، ويعززها (٣) أن أسرة أمه كانت لا تخلو من عطف قوي نحو صاحب الدعوة الى الدين الجديد : عطف يبدو من قول أمه : « أموالنا وأنفسنا دون محمد » .. وهي كلمة لا ينبغي أن ننساها في مواطن كثيرة من سيرة ابنها — رضوان الله عليه — .

ونقرأ وصف عثمان على ألسنة معاصريه ، فنراهم مجمعين على صفتين لم ينسهما أحد منهم ، وهما : الجمال والحياء ..

---

(١) مضض : أي وجع . (٢) التربص : الانتظار . (٣) يعززها : يقويها .

كان ربعة لا بالقصير ولا بالطويل ، حسن الوجه ، مشرف (١) الأنف ، بوجنتيه نكتات من آثار الجدري ، رقيق البشرة ، أسمر اللون ، كثير الشعر ، له جمة (٢) أسفل أذنيه ، وبه صلع مع طول في لحيته وغزارة في عارضيه (٣) ..

وكان خفيف الجسم ، ولكنه لم يكن بضعيفه ولا معروقه (٤) ، بل كان ضخم الكراديس (٥) بعيد ما بين المنكبين .

أما خلائقه ، فقد أجمع واصفوه على أنه كان عذب الروح ، حلو الشمائل محببا الى عارفيه ، ومن ذاك أن نساء قريش كن يرقصن أطفالهن فيقلن :

أحبك والرحمن حب قريش عثمان

وكان يوتد (٦) أسنانه بالذهب ، ويخضب (٧) لحيته ، وربما تركها بغير خضاب .

وفي كتاب « الرياض النضرة » يروي المحب الطبري عن عمرو ابن عثمان : أن عثمان بن عفان قال : « كنت رجلا مستهترا بالنساء ، واني ذات ليلة بفناء الكعبة في رهط من قريش اذ أتينا فقيل لنا : أن محمدا قد أنكح عتبة بن أبي لهب رقية ، وكانت رقية ذات جمال رائع . قال عثمان : فدخلتني الحسرة لم لا أكون أنا سبقت الى ذلك ، فلم ألبث أن انصرفت الى منزلي فأصبت خالة لي قاعدة وهي سعدة بنت كريز ، وكانت قد طرقت وتكهنت عند قومها ، فلما رأتني قالت : « أبشر وحييت ثلاثا تترى .. الى آخر الأبيات ، وروي ما تقدم من حديثها في غير هذا الفصل الى قوله : « وكان لي مجلس عند أبي بكر فأتيته فأصبته في مجلس ليس عنده أحد ، فجلست اليه فرآني مفكرا فسألني عن أمري ــ وكان رجلا متأنيا ــ فأخبرته بما سمعت من خالتي ، فقال : « ويحك يا عثمان انك لرجل حازم ما يخفى عليك الحق من الباطل » . ثم قال : « فما كان أسرع من أن مر رسول الله

---

(١) مشرف : أي مرتفع . (٢) الجمة : مجتمع شعر الرأس .
(٣) عارضتا الانسان : صفحتا خديه . (٤) المعروق : القليل اللحم .
(٥) الكردوسة : كل عظمين التقيا في مفصل . (٦) أي يثبت . (٧) أي يصبغها بالحناء ونحوها .

ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعه علي بن أبي طالب يحمل ثوبا ، فلما رآه أبو بكر قام فساره (١) في أذنه بشيء ، فجاء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقعد ثم أقبل علي فقال: « يا عثمان! .. أجب الله الى جنته فاني رسول الله اليك والى خلقه » . قال : « فوالله ما تمالكت حين سمعت قوله أن أسلمت وشهدت أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله » .

وتتكرر قصة كهذه في كتاب الاصابة لابن حجر العسقلاني ، وهي قصة يلاحظ عليها أن زواج السيدة رقية من عتبة بن أبي لهب قد كان قبل البعثة النبوية ، فلما بعث النبي قال أبو لهب لابنه : « رأسي من رأسك حرام ان لم تطلق ابنته ، ففارقها ولم يكن دخل بها » .

فلا يبقى من هذه القصة ما يستبقي للتعريف بخلائق عثمان الا قوله عن نفسه : أنه كان في الجاهلية مستهترا (٢) بالنساء ، ولو لم يرد حديث هذه القصة في رواية من الروايات لما علمنا قط أنه كان كذلك في الجاهلية ، لأن أحدا من معاصريه في الجاهلية لم يشهده على حال يحسبها من الاستهتار بالنساء ، فانهم كانوا يبيحون كثرة الزوجات لمن استطاع أن يجمع بينهن ، وانما نعرف من هذه القصة خلائق عثمان بنعمته وحياته ، وبقدرته على المتعة والتعفف عما يشينه (٣) منها ، وبالخلق الذي لازمه طول الحياة ، وهو خلق ربيب النعمة الكريم .

روى عمرو بن أمية الضمري قال : « اني كنت أتعشى مع عثمان خزيرا (٤) من طبخ من أجود ما رأيت ، فيها بطون الغنم وأدمها اللبن والسمن ، فقال عثمان : كيف ترى هذا الطعام ؟ فقلت : هذا أطيب ما أكلت قط . فقال : يرحم الله ابن الخطاب . أكلت معه هذه الخزيرة قط ؟ قلت نعم ، فكادت اللقمة تفرث (٥) بين يدي حين أهوي بها الى فمي وليس فيها لحم ، وكان أدمها السمن ولا لبن فيها . فقال عثمان : صدقت ! .. ان عمر ـ رضي الله

---

(١) أي تحدث اليه سرا . (٢) مستهترا بالنساء : مولعا بهن .
(٣) يشينه : أي يعيبه . (٤) الحساء من الدسم . (٥) أي تتشقق وتتناثر .

عنه ـ أتعب والله من تبع أثره ، وأنه كان يطلب بثنيه ـ أي منعه ـ عن هذه الأمور ظلفا ـ أي غلظا ـ في المعيشة • ثم قال : أما والله ما آكله من مال المسلمين ولكني آكله من مالي ، وأنت تعلم أني كنت أكثر قريش مالا ، وأجدهم في التجارة ولم أزل آكل من الطعام ما لان منه وقد بلغت سنا ، فأحب الطعام الي ألينه ، ولا أعلم لأحد علي في ذلك تبعة (١) » •

ودخل زياد على عثمان في خلافته بما بقي عنده لبيت المال ، فجاء ابن لعثمان فأخذ شيئا من فضة ومضى به ، فبكى زياد •• قال عثمان : « ما يبكيك ؟ » • قال : « أتيت أمير المؤمنين عمر بمثل ما أتيتك به فجاء ابن له فأخذ درهما ، فأمر به أن ينتزع منه حتى أبكى الغلام ، وان ابنك هذا جاء فأخذ ما أخذ ، فلم أر أحدا قال له شيئا » • قال عثمان : « ان عمر كان يمنع أهله وقرابته ابتغاء وجه الله ، واني أعطي أهلي وأقربائي ابتغاء وجه الله •• ولن تلقى مثل عمر ، لن تلقى مثل عمر •• لن تلقى مثل عمر •• » •

وقد سمع غير مرة يقول : « يرحم الله عمر ، من ذا يطيق ما كان يطيقه » !

وصفوة القول في خلائق عثمان أنه كان الى صفات الطيبة والسماحة أقرب منه الى صفات البأس والصرامة ، وان نشأة العيش الخفيض صحبته من صباه الى شيخوخته ، وفي غير تبعة عليه كما قال ••

اختصم يوما هو وأبو عبيدة بن الجراح ، فقال أبو عبيدة : « أنا أفضل منك بثلاث » ، فسأله عثمان : « وما هن ؟ » • قال : « الأولى أني كنت يوم البيعة حاضرا وأنت غائب ، والثانية شهدت بدرا ولم تشهده ، والثالثة كنت ممن ثبت يوم أحد ولم تثبت أنت » ، فلم يغضب عثمان ولكنه قال له : « صدقت » • ثم أجابه معتذرا فقال : « أما يوم البيعة فان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعثني في حاجة ومد يده عني وقال : هذه يد عثمان بن عفان ، وكانت يده الشريفة خيرا من يدي • وأما يوم بدر فان رسول الله صلى الله عليه وسلم استخلفني على المدينة ولم يمكني

---

(١) التبعة : الشيء الذي لك فيه بغية شبه ظلامة •

مخالفته ، وكانت ابنته رقية مريضة فاشتغلت بخدمتها حتى ماتت ودفنتها ، وأما انهزامي يوم أحد ، فان الله عفا عني ، وأضاف فعلي الى الشيطان ، فقال تعالى : « ان الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان انما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا • ولقد عفا الله عنهم ان الله غفور حليم » (١) ••

والحق أن تخلف عثمان عن يوم البيعة وعن يوم بدر لم يكن باختيار منه ولم يكن فيه احجام عن خطر مخوف ، بل تخلف في اليومين طوعا لأمر النبي ــ عليه السلام ــ . أما يوم « أحد » فقد انهزم معه فيه كثيرون من شجعان الصحابة ، وكانت الهزيمة فيه صدمة من صدمات البغتة التي يكاد النكوص (٢) فيها أن يكون دفعة آلية ثم يثبت الجأش (٣) بعد الصدمة الأولى كما حدث من أكثر المنهزمين في ذلك اليوم العصيب •

بيد أن المعارك الأخرى لم تحفظ لعثمان موقفا من تلك المواقف النادرة التي تتناقلها الألسنة ويتساير بها الركبان من أخبار زملائه الخلفاء ، فان كان فيها غير متخلف ولا محجم فليست هي بفخره الأول وفضيلته العليا • انما كانت فضيلته العليا السخاء حيث يعز السخاء على أمثاله من ذوي الثراء ، ولا سيما ذوي الثراء من بني أمية الذين ضنوا بأموالهم في الجاهلية والاسلام الا لمطمع أو مصلحة ، وهذه هي آية العقيدة في مناقب عثمان ••

لقد أشربت النفوس من العقيدة الجديدة غيرة لا عهد لها بمثلها في التنافس بين أكفائها : غيرة في العقيدة وغيرة لها وغيرة عليها ، فجمعت من معاني الغيرة أشرفها وأصدقها وأبعدها عن التنازع بين الناس بالباطل والتلاحي (٤) بينهم بالعرض الزائل ، اذ كانت تجمع من معاني الغيرة الشريفة غيرة الحماسة للعقيدة وغيرة التنافس عليها وغيرة الصدق في منافستها ، وأشرف ما في هذه الغيرة الشريفة أنها لم تكن تغري أحدا بغمط (٥) حق لأحد ، أو بادعاء حق لا يؤمن به من يدعيه في قرارة ضميره ، لأنها لم

---

(١) الآية : ١٥٥ من سورة آل عمران • (٢) أي الرجوع والفرار •
(٣) الجأش : رواع القلب اذا اضطرب عند الفزع . ونفس الانسان • (٤) لحاه بلحوه : شتمه ، والحاه : لامه ، ولاحاه ملاحاة ولحاء : نازعه • (٥) أي جحود •

تكن غيرة العرف الظاهر قصاراها (١) الوجاهة عند الناس ، بل كانت الوجاهة عند الله قصاراها ومبدأها ومنتهاها ، فلا يدعيها مدع بالباطل ، ولا يأمن اذا ادعاها بالباطل أن تذهب جميعا فلا تبقى لها عنده ولا عند الناس أو عند الله باقية • ومن ثم كانت غيرة بناء وصدق ولم تكن غيرة هدم وادعاء •

ومضى الناس يتنافسون ، ويؤمرون أن يتنافسوا في مثل هذا الفضل فهم فيه متنافسون مجدون • وقد رأينا كيف كان آناس في رجاحة أبي عبيدة وعثمان يتعارفون على هذا التنافس الذي لا يخجل فيه أخ من أخيه ولا صديق من صديقه • فلا ينقم مسبوق على سابق . ولكنه يغبطه (٢) ويستحث مزاحمه على سبقه ما استطاع •

وهكذا نظر عثمان الى أكفائه ، فوجد أنه لم يسبقهم في ميادين الجهاد بالسيف فآلى (٣) على نفسه ليسبقنهم في ميادين الجود والسخاء ، وثابر على ذلك من أول أيامه في الاسلام الى ختام أيامه في الحياة ، فهاجر الى الحبشة وهو يعلم أن ماله كلة عرضة للضياع من جراء هذه الهجرة ، فلم يبال ما بقي منه وما ضاع ، وتقدم في كل محنة أصابت المسلمين من فاقة أو قحط أو نقص في السلاح والعتاد ، فبذل من المعونة والعطاء ما لم يبذله أحد من أمثاله في ثرائه ، وما لم يبذله الذين هم أقدر منه على معونة أو عطاء ، ولم يكن على أية حال بأغنى الأغنياء •

وكانت له سماحة محببة حيث يجود ويتكلم بكلام التجار في مساوماتهم وهو على غاية الجود ••

قال ابن عباس : « قحط الناس في زمن أبي بكر ، فقال أبو بكر لا تمسون حتى يفرج الله عنكم ، فلما كان من الغد جاء البشير اليه فقال : لقد قدمت لعثمان ألف راحلة برا وطعاما ، فغدا التجار على عثمان فقرعوا عليه الباب فخرج اليهم وعليه ملاءة قد خالف بين طرفيها على عاتقه ، فقال لهم : ما تريدون ؟

---

(١) أي غايتها • (٢) الغبطة : أن تتمنى مثل حال المغبوط من غير زوالها عنه ، فان تمنيت زوالها فهو الحسد • (٣) آلى : أقسم •

قالوا : بلغنا أنه قدم لك ألف راحلة برا وطعاما · بعنا حتى نوسع على فقراء المدينة ، فقال لهم عثمان ادخلوا ! فدخلوا فاذا ألف وقر (١) قد صب في الدار ، فقال لهم : كم تربحوني على شرائي من الشام ؟ قالوا : العشرة اثني عشر · قال قد زادوني · قالوا العشرة أربعة عشر · قال قد زادوني ·· قالوا : العشرة خمسة عشر · قال : قد زادوني ·· قالوا : من زادك ونحن تجار المدينة ؟·· قال : زادوني بكل درهم عشرة ·· هل عندكم زيادة ؟·· قالوا : لا ·· قال : فأشهدكم معشر التجار أنها صدقة على فقراء المدينة » ·

ويشير عثمان هنا ــ كما هو ظاهر ــ الى جزاء الحسنة بعشرة أمثالها عند الله . ولن تعدم في هذا المقام ابتسامة سخف على فم متحذلق يقول : أما أعطى عطاءه وهو ينتظر الجزاء في الآخرة ؟· فلقد آمن بالآخرة ألوف من ذوي الأموال التي لا تفنى ، وهم لا يبضون (٢) بدرهم يوقنون من جزائه ما أيقنه عثمان ·

وكان يدخل عرف الاحسان في صفقات التجارة ، وهي تلك المعاملة التي اصطلح الناس قديما على أنها شيء يتقدم فيه حساب المنفعة على حساب المودة بل القرابة ، وممن يعبرون اليوم عن هذا المعنى ويقولون باصطلاح العصر من يعبرون عن معنى قديم تفاهم عليه المتعاملون بالبيع والشراء من أقدم الأزمنة ، فقيل من أخباره في هذه الخصلة : أنه ابتاع حائطا ــ أي بستانا ــ من رجل ، فساومه حتى قام على عثمان فالتفت عثمان الى عبد الرحمن بن عوف فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله عز وجل أدخل الجنة رجلا كان سمحا بائعا ومبتاعا وقابضا ومقبضا ، ثم زاد البائع العشرة آلاف ·

وأسعدت شمائل السماحة فيه بخصال أندر في أبناء النعمة من خصال الكرم والاحسان ، فقد يهون على المرء أن يتجرد من بعض ماله ولا يهون عليه أن يتجرد من بعض كبريائه وخيلائه وتعاليه

---

(١) الوقر بكسر الواو : الحمل · (٢) بئر بضوض : يخرج ماؤها قليلا قليلا ، والبضيضة : المطر القليل وبض الماء يبض بضا وبضوضا وبضيضا : سال قليلا قليلا ·

على أنداده ونظرائه فضلا عمن يعلوهم بالبسطة (١) والجاه •
وكان المأثور عن عثمان كما روى صاحب الصفوة عن مولاة له :
« أنه كان لا يوقظ أحدا من أهله الا أن يجده يقظان فيدعوه » •
وروى الحسن أنه « رآه نائما في المسجد ورداؤه تحت رأسه
فيجيء الرجل فيجلس اليه ، ثم يجيء الرجل فيجلس اليه ، كأنه
أحدهم » ••

وربما أحرج كما يحرج أصحاب الحياء حين يجترىء على حيائهم من هو أولى بتوقيره (٢) ، فيبدر (٣) منه بعض ما يسوء مخاطبه ثم لا يلبث أن يندم على بادرته ويتوب الى الله ، ومن قبيل ذلك : غضبه على عمرو بن العاص حين واجهه بالزجر وهو يخطب الناس . فثارت ثورته أن يكون هو من يعظه عمرو بمثل ذلك الكلام وما فيه من اغراء بالفتنة عليه • قال عمرو : يا عثمان انك قد ركبت بالناس النهابير (٤) وركبوها منك ، فتب الى الله عز وجل وليتوبوا •• فالتفت اليه مغضبا وأجاب قائلا : وأنت هناك يا ابن النابغة ؟ ثم لم يلبث أن رفع يديه وقال : أتوب الى الله تعالى • ثم كررها فقال : اللهم اني أول تائب اليك •

فهذه شخصية سمحة ، تساندت فيها مناقب السماحة ، وأوشكت أن تستوفيها على مثال منقطع النظير فيمن عرفناهم من الاعلام بين الجاهلية والاسلام : كرم وحياء ودعة ورفق وأريحية ومروءة تعين على المروءات • فهل يقال على هذا : انها شخصية سمحة وكفى ؟ هل يقال : انها شخصية خلت من صفات البأس والصرامة ، أو كان حظها من هذه الصفات ضئيلا لا يلتفت اليه ؟ هل يقال انها شخصية ضعيفة بكلمة متيقنة لا تردد فيها ؟

من السهل أن يقال ذلك متابعة لجمهرة المؤرخين الذين درجوا على تعليل الحوادث الجلى (٥) في عصر عثمان بضعفه واستسلامه لمن حوله . وعلى رأسهم ابن عمه مروان بن الحكم •• فان السهولة هنا توحي الى المؤرخ أن يختار سبيلها ويعفي نفسه من

---

(١) البسطة : السعة • (٢) أي تعظيمه • (٣) البادرة : الحدة ، وبدرت منه بوادر غضب : أي خطأ وسقطات عندما حقد • (٤) الرمال المشرفة •
(٥) أي العظمى •

النظر الى طريق غيرها قد يعترضه فيها اعتراض من حيث لا اعتراض على سالك السبيل السهل الذلول ·

لكن القول بضعف عثمان صعب على من يعلم أن السماحة نفسها قوة لا يضطلع (١) بها طبع ضعيف ، وصعب على من ينظر في أعماله جميعا ولا يكتفى منها بأعماله التي يبدو عليها الضعف والتردد ، ولم يكن عهد من عهود سيرته يخلو من عمل يدل على قوة نفس ، ومناعة خلق ، وثبات لا يتزعزع أمام الهول والخطر ، وحسبنا من عهود سيرته ما أحاط بأطرافها من أول اسلامه الى ختام حياته · فقد كان اسلامه تحديا قويا لخاصة أهله ثبت عليه مع بقاء العلية من قومه بين عدو للاسلام أو مسالم له على دخل (٢) وسوء نية ، وقد تلقى في أول خلافته صدمات لم يتعرض الفاروق لأخطر منها في جميع أيامه ، ومنها هزيمة الجيوش وفناء بعضها بين عوارض الأجواء القصية (٣) وانقضاض الروم والخزر على أطراف الدولة الاسلامية الحديثة ، وبعض مواقفه في تلك الأيام لا يمكن الرجوع به الى رأي مروان بن الحكم ، كوصاياه في اعداد الحملات البحرية من المتطوعين بغير اكراه على أحد من المجندين ، وليس من السهل أن يوصف بالضعف رجل يحيط به خطر الموت من كل جانب ولا يذعن لمن توعدوه به جهرة ورددوه على مسمعه ليل نهار ·

كلا ·· لا يقول القائل عن رجل كهذا انه ضعيف ، ثم يستريح الى قولته ، الا أن يبتغي الراحة ولا يبتغي سواها ·

ولكنا نحسب أن مكان عثمان من القوة والعزيمة هو المكان الذي يحتاج الى التوضيح ،ولا يتضح لأول نظرة في سيرته وحوادث عصره ، فليس هو بالمكان الذي يتراءى على القرب والبعد كأنه العلم البين الغني عن التوضيح ··

من الناس من يقتحم طريقه ولا ينتظر من يدله أو يدفعه ، بل لعله يقتحمه ويصر على اقتحامه كلما كثر المعارضون له وقل من يدلونه عليه ، ومن شأنه أن يحسم تردد المترددين واعتراض المعترضين فلا يلبث أن يقودهم معتزما فينقادوا له معتزمين ··

---

(١) أي يقوم · (٢) الدخل : ما داخل الانسان من فساد في عقله أو جسمه · (٣) أي البعيدة ·

ليس عثمان من هؤلاء ..

ومن الناس من لا يعرف العزم تابعا أو متبوعا ولا يثبت عليه اذا عرفه الا ريثما يدفعه الخطر عنه ، وقد ينثني (١) عن عزمه بغير خطر لأنه من الوهن والعي (٢) بحيث لا يقوى على الثبات .

وليس عثمان من هؤلاء ..

فليس هو مقتحما ولا هو منقادا عاجزا عن العزم والثبات ، ولكنه وسط بين الاقتحام والانقياد لغيره في جميع الاحوال .

انه ينقاد ويسوغ انقياده لنفسه بمسوغ ترضاه ، ولا بد له من المسوغ المرضي في جميع الأحوال ..

هؤلاء أيضا يختلفون في مسوغ الانقياد للآخرين ، فمنهم من ينقاد لمن هم أكبر منه ويأبى الانقياد لمن هم مثله أو دونه في المنزلة ، ومنهم على نقيض ذلك من ينقاد لمن هم أنداده (٣) أو ينقاد لمن هم دونه ، ويأبى الانقياد للنظراء والرؤساء ..

ومسوغ الأولين الذين ينقادون لمن هم أكبر منهم أن الانقياد للاكبر طبيعة في كل علاقة بين رئيس ومرؤوس ، ويدين بهذا المسوغ من لا حق له في الرئاسة أو من لا مطمع له فيها على الأقل الى حين ، فقد يكون صغيرا يرجو أن يكبر ، أو خاملا (٤) يرجو أن يعرف ، أو مبتدئا يرجو أن ينتهي الى العظمة كما انتهى اليها من يعظمهم من الرؤساء .

أما مسوغ الآخرين الذين ينقادون لمن هم أنداد لهم أو من هم دونهم فهو أنهم أمنوا أن ينسب انقيادهم الى ذلة أو خوف ، وبخاصة حين يكون المنقاد معروف الوجاهة (٥) والرئاسة ، مساويا لمن يدله ويشير عليه ، أو راجحا (٦) عليه بالمكانة والسلطان .

وكذلك كان عثمان في اهتدائه الى الاسلام بنصيحة أبي بكر الصديق . فقد كان عثمان أجمع لأسباب الوجاهة من أبي بكر في عرف عصره : كان من أمية وأبو بكر من تيم ، وكان أغنى منه وأقدر على مخالفته ، وكان أبو بكر الى جانب هذا وذاك يدعوه

---

(١) يلين ويميل . (٢) العجز . (٣) جمع ند ، والند : النظير والمماثل .
(٤) أي غير معروف . (٥) وجهاء القوم : سادتهم وأشرافهم . (٦) أي متفوقة .

الى الايمان برسول يتبعانه معا فيقبل ان شاء الله ، ويأبى ان شاء الله ، ولا سلطان له عليه ..

وكذلك كان عثمان في اصغائه لمروان بن الحكم حيث أصغى اليه ، فقد كان مروان كاتبه وتابعه ، وكان اصغاؤه له لغير خوف أو مذلة ، وعلما منه بأنه محسوب عليه ..

وسماحة عثمان واضحة هنا أيضا لأنها فرض كفروض الحساب لا يتأتى بغيره تقدير الحقيقة الملتبسة ، فمن الناس من يأبى الانقياد للانداد والرؤساء حسدا ونكدا (١) ومن يأبى الانقياد للاتباع والأعوان تيها (٢) وتجبرا وذهابا مع شهوة الترفع (٣) والاستعلاء ، فهؤلاء كأولئك لا يعرفون السماحة ولا يوصفون بها ، ولو لم يكن عثمان سمحا مبرأ من الحسد والنكد ومن شهوة الترفع والاستعلاء ، لما أصغى الى ند ولا الى تابع ، ولا سوغ الاصغاء اليهما بمسوغ من المسوغات ترضاه نفسه وتطمئن اليه .

من أشد ما يروى استدلالا على ضعفه وانقياده لرأي مروان ابن الحكم قصة رواها ابن عباس عن أبيه وهو ثقة فيما عاينه وحكاه . قال :

« ما سمعت من أبي شيئا قط في أمر عثمان يلومه فيه أو يعذره ، وما سألته عن شيء من ذلك مخافة أن أهجم منه على ما لا يوافقه ، فأنا عنده ليلة ونحن نتعشى اذ قيل : أمير المؤمنين بالباب . فقال : ائذنوا له ، فدخل فأوسع له على فراشه وأصاب من العشاء معه ، فلما رفع قام من كان هناك وثبت أنا . فحمد عثمان الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد يا خال فاني قد جئتك أستعذرك من ابن أخيك علي . سبني وشهر أمري وقطع رحمي وطعن في ديني ، واني أعوذ بالله منكم يا بني عبد المطلب . ان كان لكم حق تزعمون أنكم غلبتم عليه فقد تركتموه في يدي من فعل ذلك بكم ، وأنا أقرب اليكم رحما منه ، وما لمت أحدا منكم الا

(١) نكد عيشه : اشتد ، ونكد البئر : قل ماؤها ، ونكد فلان حاجة فلان : منعه اياها ، ونكد فلان فلانا : منعه ما سأله ، ورجل نكد : شؤم عسر . (٢) تيها : تكبرا . (٣) بمعنى التعالي .

عليا ولقد دعيت أن أبسط يدي عليه فتركته لله والرحم ، وأنا أخاف ألا يتركني فلا أتركه ..

قال : « فحمد العباس لله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد يا ابن أختي ، فان كنت لا تحمد عليا لنفسك فاني لأحمدك لعلي ، وما علي وحده قال فيك بل غيره ، فلو أنك اتهمت نفسك للناس اتهم الناس أنفسهم لك ، ولو أنك نزلت مما رقيت وارتقوا مما نزلوا فأخذت منهم وأخذوا منك ما كان بذلك بأس .

قال عثمان : « فذلك اليك يا خال ، وأنت بيني وبينهم » .

قال : « فأذكر لهم ذلك عنك ؟ » .

قال : « نعم » وانصرف .

« فما لبثنا أن قيل : هذا أمير المؤمنين قد رجع بالباب فقال : ائذنوا له . فدخل فلم يجلس وقال : لا تعجل يا خال حتى أؤذنك » .

« فنظرنا فاذا مروان بن الحكم جالسا بالباب ينتظره حتى خرج ، فهو الذي ثناه عن رأيه » .

« فأقبل علي أبي وقال : يا بني ! ما الى هذا — يعني عثمان — من أمره شيء » ..

فاذا أخذت هذه القصة على عجل فعثمان قد كان أداة لمروان يذهب به ويجيء كما يشاء ويمضيه (١) على رأي أو يثنيه (٢) عنه على هواه .

ولكننا اذا تخيلنا عثمان على هذه الصورة وجب أن نسأل : من غير مروان كان يصنع بعثمان هذا الصنيع ؟ فان الرجل اذا كان هين المقادة الى هذا الحد هان على كل موسوس له أن يقوده ، ولا سيما أقربهم اليه وألزمهم له من حرمه ومساكنيه في داره . وقد عرفنا من تاريخ تلك الفترة أو ما قاربها أنه كان يستمع في بيته الى من يوغر (٣) صدره على مروان فلا يستجيب لتوغيره ، ومنهم نائلة بنت الفرافصة زوجته ، وقد كان للزوجات أثر في

---

(١) مضاء الامر : نفاذه ، ويمضيه هنا : أي يضره . (٢) أي يرده .

(٣) الوغرة : شدة الحر ، والوغر : تحريك الحقد والضغن والعداوة والتوقد من الغيظ .

قصور ذوي السلطان ممن عرفوا بالقوة والسطوة لم ينقطع في عصر من العصور ..

فالطاعة هنا ليست بطاعة نفس ضعيفة لكل من يوسوس لها على مقربة منها ، ولكنها طاعة اختيار لسبب له شأنه عند عثمان ، وان لم يكن له هذا الشأن عندنا نحن اليوم ، أو عند ناقديه من معاصريه ..

ونحن على يقين أننا اليوم نتردد في الجواب اذا سئلنا : « من غير مروان بن الحكم كان خليقا (١) أن يعمل لعثمان عمل الكاتب الوزير الذي يعمل له كأنه يعمل لنفسه في سره وجهره ؟ » .

اننا نعرف رجال تلك الفترة المرشحين لمثل هذا العمل ، فمن منهم يتولاه اذا استغنى عن مروان ؟

ليس مروان بأفضل من يكتب للخليفة في عصره ، ولكن الذين هم افضل منه لا يرتبطون بهذا العمل ارتباطه ، ولا يطالبهم عثمان بما يطالب به مروان من خدمته وولائه .

لقد ذهب عثمان الى العباس يشكو عليا . ويكاد يعم بالشكوى بني عبد المطلب ، لأنه يحسبهم ذوي (٢) حق غلبوا عليه ، فاذا خاسرته (٣) هذه الشكوى صوابا أو خطأ ، وخامرته في أناس كبني عبد المطلب على مثل ذلك الصواب أو ذلك الخطأ ، فهو لا يتخذهم وزراء كتبة يعملون له ويرتبطون بخدمته كارتباط مروان ومن اليه . ولعله لو لم يشكهم لا يخطر له أن يكلفهم عملا كعمل كاتبه ووزيره ، فانهم في مقام الأنداد ولهم شاغل عن عمل يرتبطون به الى جواره ..

ولا نقول : ان عثمان لم يكن يستمع لمروان ، ولا انه كان يستمع للصواب من رأيه ويعرض عن الخطأ منه ، ولكنما نريد أن نقول : ان ما بينهما ليس بطاعة الضعيف يلعب به القوي ، وانه اختيار له سببه الذي يوضع في ميزانه عند عثمان وغير عثمان حين يكون في مكانه .

والسؤال الواجب على أية حال في كل مقام كهذا المقام هو : « ماذا كان أجدر وأجدى (٤) من هذا ؟ » فان كان الجواب قاطعا

(١) خليقا : أي جديرا . (٢) أصحاب . (٣) خامره : خالطه .
(٤) أجدى : أي أنفع وأفضل .

فقد أمكن القطع بالخطأ ، وإن كان الجواب يحتمل رأيا هنا ورأيا هناك فليس التردد بينهما بالدليل حتما على الضعف والاستسلام .

واتباع عثمان لمشورة مروان أو لمشورة غيره ، لم يكن قط ذلك الاتباع الذي يعاب جملة أو يستحسن جملة ، ولم يكن طاعة المستسلم الذي لا يدري فيم يستسلم ، ولكنه أشد ما يكون من قبيل الحيرة التي يشترك فيها سالكان لا يأمن أحدهما اذا ضل صاحبه . ومن حار معك كما تحار أقرب اليك ممن يهتدي وهو في طريق وأنت في طريق .

ونعود فنقول : ان شخصية عثمان بما اشتملت عليه من نواحي قوتها وضعفها شخصية سوية (١) ، لا تناقض بين ما علمناه من أخبارها وأعمالها وبين ما نرجحه من المؤثرات فيها من فعل البيئة والعقيدة ، وقد ذكرنا بين مؤثرات البيئة وراثته الأموية ويتمه في صباه ونشأته في بيت يتولاه غير أبيه ، وانتماءه (٢) من جانب الأمومة الى بيت عبد المطلب ، وعلينا أن نشير الى مؤثر آخر يلحق بهذه المؤثرات ولا يورد على أنه مؤثر يتواتر في جميع الحالات ، ولكنه يورد لأنه لا يهمل في اعتبار بعض النفسانيين .

ذلك السبب هو اصابته بالجدري في شبابه . وعند بعض النفسانيين أن الجدري يعقب أثرا في بنية المصاب به اذا أهمل علاجه — بعد سن الطفولة خاصة — وليس اهمال علاجه يومئذ بالأمر البعيد .

أما أثر العقيدة فمن الواجب ونحن نتعرف معادن الشخصية الانسانية أن نتثبت من معاييره (٣) في تقويم الأخلاق ، والتفرقة بين فاضلها ومفضولها ، ويجب هذا التثبت خاصة في الزمن الذي يكثر فيه الخلط (٤) بين قيمة الفضيلة وبين التعريف بأسبابها ، فيعذر بعض المقصرين أنفسهم أن يكونوا دون المؤمنين بالدين شجاعة وسخاء ، ويقولون : اننا كنا خلقاء أن نقدم مثل اقدامهم ، ونسخو مثل سخائهم ، ونجود بالروح والمال مثل جودهم ، لو كنا ننتظر الجزاء في اليوم الآخر أضعافا مضاعفة من النعيم والسعادة .

---

(١) السوي : المعتدل . (٢) أي انتسابه . (٣) أي موازينه . (٤) أي المزج

وتلك في الواقع خديعة الطبع اللئيم ، وأنهم ليزعمون أنهم يشجعون ويجودون لو آمنوا بالجزاء بعد الموت والواقع أنهم واهمون أو مغالطون ، وأن لهم أشباها صدقوا بالجزاء بعد الموت ولم يتركوا الجبن والشح (١) ولا تركوا ما هو أقبح من الجبن والشح وهو السلب والغصب والعدوان على النفس والمال ٠

فانتظار الجزاء بعد الموت لا يبطل قيم الأخلاق ، ولا يجعل الشجاع ٠

قلنا في كتابنا أبي الشهداء : « كذلك يقول من يقول : ان الأريحية التي سمت (٢) اليها طبائع أنصار الحسين انما هي أريحية الايمان الذي يعتقد صاحبه إنه يموت في نصرة الحسين فيذهب لساعته الى جنات النعيم ٠٠ فهؤلاء الذين يقولون هذا القول يجعلون المنفعة وحدها باعث الانسان الى جميع أعماله ، حتى ما صدر منها عن عقيدة وايمان ، وينسون أن المنفعة وحدها لن تفسر لنا حتى الغرائز الحيوانية التي يصاب من جرائها (٣) الفرد طوعا أو كرها في خدمة نوعه ، بل ينسون أن أنصار يزيد لا يكرهون جنات النعيم ولا يكفرون بها ، فلماذا لم يطلبوها كما طلبها أنصار الحسين ؟ أنهم لم يطلبوها لأنهم منقادون لغواية أخرى ، ولأنهم لا يملكون عزيمة الايمان ونخوة (٤) العقيدة ، ولا تلك القوة الخلقية التي يتغلبون بها على رهبة الموت ، ويقرعون بها وساوس التعلق بالعيش ، والخنوع (٥) للمتعة القريبة ، فلولا اختلاف الطبائع لظهر شغف (٦) الناس جميعا بجنات النعيم على نحو واحد ، ومضى الناس على سنة واحدة في الأريحية (٧) والفداء ٠ ومرجع الفرق اذن في آخر المطاف الى فرق واضح بين طبائع الأريحيين وطبائع النفعيين » ٠٠

وهذا الفرق بين الطبائع هو الذي نرجع اليه في رجل يمتاز بالشجاعة البالغة ، ورجل يمتاز بالسماحة البالغة ، ولا يمتازان

---

(١) الشح : البخل ٠ (٢) من السمو ، وهي الرفعة والرقي ٠ (٣) أي بسببها ٠ (٤) نخوة : أي عظمة ٠ (٥) الخنوع : الخضوع والذل ٠ (٦) أي حبهم ٠ (٧) الاريحية : سعة الخلق ٠

بمزية واحدة ، وكلاهما يؤمن بالثواب والعقاب .

وهذا الفرق بين الطبائع هو الفرق بين من يطمح الى المثل الأعلى ولا يقنع بما دونه وبين من يكفيه من الجزاء انه يأمن العذاب .

وهذا الفرق بين الطبائع هو الفرق بين فرقتين من المسلمين تحارب كلتاهما في صف ، وكلهم مصدقون بجزاء السماء ، واطلاع علام الغيوب بما يطوونه (١) في الخفاء .

فالعقيدة الدينية لا تبطل سماحة عثمان ولا تغض (٢) من قيمتها ، وتظل هذه السماحة سماحة مقومة في معيار كل فضيلة ومعيار كل فاضل ، لا يغير منها أن العقيدة بعثتها في مبعثها هذا ، أو حركتها بعد سكون ، او خلقتها خلقا من حيث لم تكن . فقد كان مع عثمان أناس من منبته لم يعتقدوا كما أعتقد ، ولم يزل بينهم وبين الاعتقاد حجاب (٣) من عوج العقول وعمي الأبصار وأثرة الجهالة ، وكل أولئك محسوب معدود في معايير الأخلاق ..

ونعمم هذا القول في تقويم الفضائل والمواهب ، فنفرق بين التقويم والتقدير وبين التعليل والتفسير ، فليست كل فضيلة عللناها أو فسرناها شيئا قد أبطلنا قيمته وقدره ، وليس قولنا : ان هذه الروضة تنبت الرياحين والثمرات مبطلا ما بينها وبين الفلاة (٤) المجدبة من الفرق والاختلاف . وليس قولنا : ان هذا الانسان شجاع لأنه استمد مناقب الشجاعة من وراثته أو من تعليمه أو من اعتقاده ذاهبا بفضل الشجاعة ، مسويا بينه وبين الجبان أو بينه وبين الشجاع الذي هو دونه في شجاعته واقدامه ..

فالأسباب تثبت الفضائل والمواهب ولا تنفيها ، وهي من أجل هذا جديرة بالاثبات ، وجديرة بالطلب ، وجديرة بالثناء ، وان من تعرف أسباب حسنه لحسن ، وان من تعرف أسباب قبحه لقبيح ، فلن يصبح الحسن قبيحا لأنه معروف السبب ، ولن يصبح القبيح حسنا لأنه معروف السبب ، وان قل العجب مع عرفان السبب كما قيل ، فقد يذهب العجب ولا يذهب الاعجاب ..

---

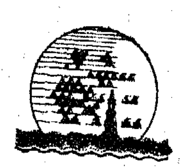
(١) أي يخبئونه . (٢) أي تقلل . (٣) حجاب : أي ستر . (٤) الفلاة : المفازة .

والشاعر قد بلغ غاية الاعجـاب بيحيى حفيد علي بـن أبي طالب حين قال :

كدأب (١) علي في المواطن كلها
أبي حسن والعرق من حيث يخرج

وأين له من ذاك ؟ لا أين ! انه
اليـه بعرقيـه الزكيـين محرج

تفسير للشجاعة هو غاية التقدير ، وابطال للعجب هو غايـة الاعجاب ، وانما يتجنى على الفضائل الانسانية بتفسير أسبابها من يتحمل (٢) للنوع الانساني كأنه يتمحل لعدو لا يرضيه أن يوصف بخير الا أن يتعلـل لمعابته بعلـة ، ويبطل العجـب منه والاعجاب به سواء ٠



• ❋ •

---

(١) الدأب : العادة والشأن ٠ (٢) المحل : المكر والكيد ٠

ثقافة عثمان

نعنى في تراجم عظماء الصدر الأول من الاسلام بالكلام على ثقافتهم ومصادر هذه الثقافة من معلومات زمنهم ، ونرى أنها من العناصر التي لا غنى عنها في التعريف بمنازلهم وكفاياتهم ، لأن هذه الكفايات قسمة بين قوة النفس والخلق وبين قوة الفهم والتفكير ، ولا تخفى علاقة ثقافتهم بما يفهمون ويفكرون ..

وبديه ان ثقافة الأقدمين غير ما نريده بكلمة الثقافة في العصر الحديث ، ولكنه فرق يحسب للأقدمين ويشهد باجتهادهم ودرايتهم بالاستفادة من القليل المبعثر حتى لا يستفاد اليوم من الكثير المجموع الميسر لطالبيه ، ولو أننا جعلنا ودائع الورق مقياسا للثقافة لكانت أوراق تلميذ مبتدىء في عصرنا أضخم من أوراق نوابغ (١) المثقفين في صدر الاسلام ، ولكنهم كانوا بهذا المحصول القليل يعملون ما يعجز نوابغنا وأبطالنا ، ويتكلمون في المعضلات (٢) فاذا بالكلمة الوجيزة (٣) فصل الخطاب .

ونخال أن الاختلاف بيننا وبينهم في ثقافتنا وثقافتهم يتلخص في فرق واحد يحصر جميع الفروق : وذاك أن الكلمة قد رخصت في زمن المطبعة واباحة الكلام أو ابتذاله لمن لا يحسنه في قول ولا استماع .

كانت الكلمة تسمع وتحفظ ، وتنقل من سلف الى خلف ، وتندمج في تجربة كل سامع كأنها زيادة عضوية تتوالد ولا تموت .

كانت بضعة (٤) من حياة ..

كانت تصان كما تصان ذخائر الآباء والأجداد ، ولو أنها صينت هذه الصيانة لأول مرة في عصر التنزيل لما استغرب أحد تقديسهم للكلمة التي يعلمون أنها مقدسة ، ويصونونها ايمانا

---

(١) جمع نابغة ، والنابغة : الرجل العظيم الشأن . (٢) المعضلات أي الشدائد . (٣) الوجيز من الكلام : القصير . (٤) بضعة : أي قطعة .

بالفريضة الالهية . وما في ذلك غرابة عند الأقدمين أو المحدثين ، ولكنهم فعلوا ذلك قبل عصور التنزيل ، وتعودوا الحرص على ذخيرتها الانسانية قبل أن يتعودوا الحرص عليها وهي ذخيرة سماوية يدخرونها لحياة أبقى من حياة الدنيا ، وهي حياة الخلود ..

اليك مثلا علمهم الذي كانوا يسمونه علم الانساب : ما مبلغه من العلم بالقياس الى العلم الذي يقابله في زماننا وهو علم التاريخ ؟

أين ذلك مما يستوعبه اليوم من النقد والتحليل والشرح والتفصيل والتفريع والتأصيل ؟

لكن علم الأنساب هنالك وشائج (١) أعراق وأحساب . وعروق في الأبدان والأنفس لا يدفنها التراب ..

اذا عرف أحدهم نسبا فقد عرفه ليهتز بفخراه ، أو يهتاج بعداواته أو يقرنه بفعال صاحبه . ويشتهدها في ذريته وخلفائه .

واذا عرف ذلك النسب فهو فلان هذا الذي أمامه ، يساجله (٢) المودة أو البغضاء ، ويذكر ما كان له ولآبائه من عزة ومضاء (٣) أو ذلة واستخذاء ، ويضيف الى كل نسب رواية عن ملحمة (٤) . أو طرفة (٥) من حكمة ، أو ملحة من فكاهة ، ولا يجد بينها وبين أنباء نهاره فاصلا بين قديم وجديد أو بين مدثور (٦) مهجور ، وحاضر مسموع ومذكور ..

وقل مثل ذلك في أمثال العرب وشواهدها ومعارض الاستشهاد بها في مواضعها ..

وقل مثل ذلك في أشعارها ومدائحها وأهاجيها وبلاغتها ومحاسن ألفاظها ومغازيها (٧) ..

كل ممدوح كائن حي من مجد ومنعة وجود ومطاولة بالغلبة والعطاء ، وكل مادح كائن حي بما استجاشه (٨) من طمع ، وما

---

(١) أي روابط وعلائق . (٢) يساجله : يباريه ويفاخره . (٣) أي قطع . (٤) الملحمة : الوقعة العظيمة القتل . (٥) ما يستطرف لحداثته . (٦) من قولهم : دثر الرسم : درس . (٧) مغازيها : أي معانيها . (٨) أي تحرك في نفسه وقلبه .

استقبله من أمل ، وما خلفه وراءه من عطف وحنين ، وما آثار في كلامه من تنافس وتناظر ، أو من سوابق بين عشائرهم تذكر وتستعاد ، وتعود منها محاسن آباء وأجداد ومساوىء أضغان(١) وأحقاد ..

فاذا سطرت تلك الأمثال والقصائد كلاما في الورق فهي بضع صفحات مختزلات (٢) . واذا تمثلتها خوالج بين الصدور فهي حيوات تضاف الى حياة ..

لقد كانوا يعيشون عيشهم المحمل بتجاربه وعواقبه كلما تكلموا أو استمعوا الى متكلم من رواتهم وبلغائهم وثقاتهم ، فلا جرم كانوا يفاخرون آمم العالم ، بأنهم يتكلمون .

وكان عثمان على علم بمعارف العرب في الجاهلية ومنها الانساب والأمثال وأخبار الأيام . وساح (٣) في الارض فرحل الى الشام والحبشة وعاشر أقواما غير العرب فعرف من أطوارهم وأحوالهم ما ليس يعرفه كل عربي في بلاده ، وجدد في رحلاته جديد الخبرة والعمل معارف البادية عن الأنواء (٤) والرياح ومطالع النجوم ومقارناتها في منازل السماء، وهي معارف القوافل والأدلاء (٥) من أبناء الصحراء العربية ، وأبناء كل صحراء ..

وأسلم فكان من أفقه المسلمين في أحكام الدين وأحفظهم للقرآن والسنة . روى عن النبي — عليه السلام — قرابة مائة وخمسين حديثا ، قال محمد بن سيرين وهو يتكلم عن الصحابة : « كان أعلمهم بالمناسك عثمان ، وبعده ابن عمر » .

وكان أقرب الصحابة الى مجرى الحوادث بين المسلمين والمشركين . فكان من سفراء الاسلام في غير موقف من مواقف الخلاف أو الوفاق ، تارة بين المسلمين وأعدائهم وتارة بينهم وبين الأسرى منهم في أرض الأعداء ..

وكان كاتبا يجيد الكتابة ، فاعتمد عليه النبي — عليه السلام — في تدوين الوحي واعتمد عليه الصديق في كتابة الوثائق الهامة ، ومنها الوثيقة التي عهد فيها بالأمر بعده لخليفته الفاروق .

---

(١) بمعنى أحقاد . (٢) الاختزال : الحذف والاقتطاع . (٣) ساح في الارض : ذهب . (٤) الانواء : جمع نوء ، والنوء : النجم مال للغروب .
(٥) الادلاء : جمع دليل ، وهو من يدل على الطريق .

وزودته معرفته بالأخبار والأنساب وسياحته في البلاد بزاد حسن من مادة الحديث مع ذوي الكمال من الرجال • قال عبد الرحمن بن حاطب : « ما رأيت أحدا من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان اذا حدث أتم حديثا ، ولا أحسن ، من عثمان بن عفان ، الا أنه كان رجلا يهاب الحديث » ••

ولم يكن حديثه لغوا ولا ثرثرة يزجى (١) بها الفراغ بين أهل الفراغ ، بل كان من تلك الأحاديث التي كان يتوق (٢) اليها النبي ـ عليه السلام ـ في بعض أوقاته فيتمناها ، وتروي السيدة عائشة من ذلك : أنها سمعت النبي ذات ليلة يقول : لو كان معنا من يحدثنا :؟ قالت : يا رسول الله أفأبعث الى أبي بكر ؟ فسكت • ثم قالت : أفأبعث الى عمر ؟ فسكت • ثم دعا وصيفا (٣) بين يديه فساره فذهب فاذا عثمان يستأذن ، فأذن له فدخل فناجاه (٤) عليه السلام طويلا ••

وينقل عنه الرواة كثيرا من شواهد الأمثال والأشعار ، وكأنه كان ينظم الشعر ان صح ما قيل انهم وجدوا في خزانته وصية مكتوبا على ظهرها :

غنى النفس يغني النفس حتى يجلها
وان غصها حتى يضر بها الفقر
وما عسرة فاصبر لها ان لقيتها
بكائنة الا سيتبعها يسر
ومن لم يقاس الدهر لم يعرف الأسى(٥)
وفي غير الأيام ما وعد الدهر

ولكن هذا الشعر وغيره مشكوك في نسبته اليه •

الا أنه كتب في خلافته رسائل من النمط الذي لا يرتضي الظن نسبته الى كاتبه مروان ••

ومن هذه الرسائل كتاب الى عماله يقول فيه :

---

(١) يزجي : أي يدفع ويسوق ، والمراد الاول • (٢) يتوق : يشتاق •
(٣) الوصيف : الخادم • (٤) نجوته نجوا : ساررته ، وتناجوا : تساروا •
(٥) الاسى : الحزن

« استعينوا على الناس وكل ما ينوبكم (١) بالصبر والصلاة ، وأمر الله أقيموه ولا تداهنوا (٢) فيه ، واياكم والعجلة فيما سوى ذلك . وارضوا من الشر بأيسره ، فان قليل الشر كثير ، واعلموا أن الذي ألف بين القلوب هو الذي يفرقها ويباعد بعضها عن بعض · سيروا سيرة قوم يريدون الله لئلا تكون لهم على الله حجة » ·

ومنها كتاب الى العمال يقول فيه : « ان الله ألف بين قلوب المسلمين على طاعته . وقال سبحانه : « لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم » (٣) . وهو مفرقها على معصيته ، ولا تعجلوا على أحد بحد قبل استيجابه (٤) فان الله تعالى قال : (لست عليهم بمسيطر الا من تولى وكفر (٥)) ومن كفر داويناه بدوائه ، ومن تولى عن الجماعة أنصفناه وأعطيناه حتى يقطع حجته وعذره ان شاء الله » ·

ومن كتبه الى العمال :

« أما بعد ، فان الله أمر الأئمة ان يكونوا رعاة ، ولم يتقدم اليهم أن يكونوا جباة (٦) . وان صدر هذه الأمة خلقوا رعاة ولم يخلقوا جباة . وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يكونوا رعاة · فاذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء · ألا وان عدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين فتعطوهم الذي لهم وتأخذوا بما عليهم ، ثم تثنوا بالذمة (٧) فتعطوهم الذي لهم وتأخذوهم بالذي عليهم · ثم العدو الذي تنتابون (٨) فاستفتحوا عليهم بالوفاء » ·

ومن كتبه الى الجباة :

« أما بعد فان الله خلق الخلق بالحق ، فلا يقبل الا الحق ·

---

(١) ينوبكم : أي ينزل بكم ويصيبكم . (٢) دهن : نافق ، والمداهنة : اظهار خلاف ما يبطن · (٣) الآية : ٦٣ من سورة الانفال · (٤) أي استجوابه ومحاكمته · (٥) الآيتان : ٢٢ ، ٢٣ من سورة الغاشية · (٦) أي يجمعون الاموال · (٧) أي أهل الذمة · (٨) انتابهم انتيابا : أتاهم مرة بعد أخرى ·

خذوا الحق وأعطوا الحق . والأمانة الأمانة . قوموا عليها ولا تكونوا أول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم الى ما اكتسبتم . والوفاء الوفاء . لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد ، فان الله خصم لمن ظلمهم » ..

وكتب الى أمراء الأجناد : « أما بعد فانكم حماة المسلمين وذادتهم (١) ، وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا ، بل كان على ملأ منا . لا يبلغني عن أحد منكم تغيير ولا تبديل ، فيغير الله ما بكم ويستبدل بكم غيركم . فانظروا كيف تكونون ، فاني أنظر فيما ألزمني الله النظر فيه والقيام عليه » .

وبعض هذه الكتب يبدؤه ويختمه بذكر آيات من القرآن تتوالى في بيان ما يدعوهم اليه وينهاهم عنه . وليست هي مما يكتبه مروان ، لأنه لم يكن يحفظ القرآن حفظ عثمان . وليس ما تقدم من الوصايا بالذي يكتبه مروان غير مملى عليه ، لأنها هي الوصايا التي هي أحرى (٢) بحياء عثمان وألفته ووفائه ورحمته لليتيم وايثاره الموادعة وكراهته اللجاجة (٣) في القصاص . لهذا نقول : انها من اسلوبه الذي يوائمه (٤) - رضي الله عنه - ، واسلوبه ثمة (٥) هو ترجمان نفسه . فان الرجل يكتب لغيره ليقنعهم بما يحس انه مقتنع به ، كتب اليه . وهذه كتابة عثمان لا كلفة فيها ولا مخاولة ولا اطناب . الا الدعوة القويمة في استقامة وسهولة وبساطة لا تقدر في الناس انهم يخالفون ما وضح لهم واستقام بين أعينهم من الأمور . وكذلك كان عثمان يعقل ما يطيعه وما يطاع . وكذلك استجاب لدعوة أبي بكر حين دعاه الى الاسلام . فما هو الا أن اتجه ذهنه مستقيما الى حقيقة الأصنام وحقيقة الاسلام حتى قال لصاحبه : نعم .. هو ذاك ..

أما الخطابة فقد كانت على هذا النهج من الكتابة السهلة

---

(١) أي المدافعون عنهم . (٢) أي أجدر . (٣) اللجاجة : القصاص : المبالغة في تنفيذه . (٤) يوائمه : يلائمه ويناسبه . (٥) ثمة : أي هناك .

القويمة ، وربما ارتج (١) عليه فلا يبتئس (٢) لذلك ، ولا يزيد على أن يقول ما معناه : سيأتي القول حين الحاجة الى القول ..

ومن خطبه في أوائل الفتنة : « ان الناس يبلغني عنهم هنات وهنات (٣) ، واني والله لا أكون أول من فتح بابها وأدار رحاها . ألا واني زام نفسي بزمام (٤) وملجمها بلجام .. ومناولكم طرف الحبل ، فمن أتبعني حملته على الأمر الذي يعرف ، ومن لم يتبعني ففي الله خلف منه وعزاء عنه . ألا وان لكل نفس يوم القيامة سائقا وشاهدا : سائق يسوقها على أمر الله وشاهد يشهد عليها بعملها . فمن كان يريد الله بشيء فليبشر ، ومن كان انما يريد الدنيا فقد خسر » .

ومن خطبه بعد تفاقم الفتنة خطبة على الروية لم تكن مرتجلة قال فيها :

« ... آفة (٥) هذه الأمة وعاهة هذه النعمة، عيابون طعانون، يرونكم ما تحبون ، ويسترون عنكم ما تكرهون ، يقولون لكم وتقولون . أمثال النعام يتبعون أول ناعق ، أحب مواردهم اليهم البعيد ، لا يشربون الا نغصا (٦) ويردون الا عكرا ، لا يقوم لهم رائد .. وقد أعيتهم الأمور ..

« ألا فقد والله عنتم علي ما أقررتم لابن الخطاب بمثله ، ولكنه وطئكم برجله ، وضربكم بيده ، وقمعكم (٧) بلسانه ، فدنتم له على ما أحببتم وكرهتم ، ولنت لكم وأوطأتكم كنفي (٨) وكففت عنكم يدي ولساني فاجترأتم علي . أما والله لأنا أعز نفرا وأقرب ناصرا وأكثر عددا وأحرى ان قلت : هلم أتي الي . ولقد أعددت لكم أقرانا وأفضلت عليكم فضولا وكشرت لكم عن

---

(١) ارتج عليه : توقف ولم يقدر كأنه أطبق عليه . (٢) أي فلا يحزن .
(٣) أي أشياء وأشباه . (٤) الزمام : المقود . (٥) بمعنى العاهة والداء .
(٦) لعلها : نغصا ، والنغص : أن تورد ابلك الحوض ، فاذا شربت صرفتها وأوردت غيرها . (٧) قمعكم : أي قهركم . (٨) كنفي : أي جانبي .

نابي وأخرجتم مني خلقا لم أكن أحسنه ، ومنطقا لم أنطق به فكفوا عني ألسنتكم وعيبكم وطعنكم على ولاتكم . فاني كففت عنكم من لو كان هو الذي يكلمكم رضيتم مني بدون منطقي هذا • ألا فما تفقدون من حقكم ؟ والله ما قصرت عن بلوغ ما بلغ من كان قبلي ، ولم تكونوا تختلفون عليه ••• » •

وهذه الخطبة هي التي قام مروان بعدها يهم بالكلام ويتكلم متوعدا فأسكته عثمان . ونرى انها قيلت على الروية (١) لأنه خرج من داره وهو يعلم باجتماع الوفود وتحفزها ولم يفاجأ منها بأمر لم يكن يعلمه وهو ينوي الخطابة فيها ••

وهذه النماذج من كتبه وخطبه لا تورد في هذا المقام من ناحية البلاغة والبيان مستقلة عن مواضعها ودواعيها ، ولكنها تورد قبل كل شيء لأنها ــ مع ما تبديه من بيانه ــ تبدي لنا أسلوب الخليفة الثالث في علاقته برعاياه من خلال أسلوب الكتابة والخطابة • فقد كانت أوائل كتبه أشبه الكلام بما نسميه اليوم « الأسلوب الرسمي » أو أسلوب التشريع والوثائق القانونية : تبليغ وتقرير بغير تنميق (٢) ولا محاولة تأثير . وهو كذلك أسلوب الخلافة التي تعلم ان التفاهم بينها وبين من تخاطبهم مفروغ منه متفق عليه مستغن عن الاقناع وعن المسحة الشخصية التي يصطبغ بها الكلام اذا وقع الاختلاف في النظر بين السامع والمتكلم . ثم يستطرد الموقف بالخليفة الى ما رأيناه في خطابه الأخير . واول ما يبدو منه ان الراعي والرعية لا يثوبون (٣) الى قسطاس (٤) واحد . وتلك بوادر الملك تظهر في مضامين القول كما ظهرت على ما نراه في الأعمال والنيات •

---

(١) الروية : التفكر في الامر • (٢) تنميق : اي تزيين وتحسين
(٣) يثوبون : يرجعون • (٤) القسطاس الميزان •

الفصل الثالث

من اسلامه الى خلافته

١ ـ شئونه

مضى من اسلام عثمان الى مبايعته بالخلافة نيف وثلاثون سنة ، شهد فيها من الغير (١) في تاريخ الجزيرة العربية وفي تاريخ العالم من حولها ما لم يعهده العالم قط قبل البعثة المحمدية ، وشهد فيها عهد الدعوة النبوية وعهد الخلافة في أوجها (٢) على أيام الصديق ثم على أيام الفاروق .

وجمعت المصاهرة بين حياته الخاصة وحياة النبي ـ عليه السلام ـ في بيته مع اتصاله به في الدعوة الكبرى من سنتها الأولى ، فلم يفته شيء من أخبار النبوة الخاصة والعامة في حياة النبي ، ولم يفته شيء بعدها من أخبار الخلافة في حياة الشيخين ، ولم يفته بعبارة أخرى شيء مما نسميه اليوم بأعمال التأسيس في الدولة الاسلامية .

تزوج من السيدة رقية بنت النبي ـ عليه السلام ـ ، وهاجر بها الى الحبشة ، فكان أول المهاجرين اليها ، ثم هاجر بها الى المدينة فمرضت للعناية بها ، فماتت يوم ورد البشير الى المدينة بنصر المسلمين وهزيمة قريش في تلك الوقعة الحاسمة ، وقيل : ان عثمان كان قد أصيب بالجدري قبل الخروج الى بدر ، فحال مرضه ومرض زوجته دون الخروج اليها مع جلة (٣) الصحابة .

وكانت غبطة (٤) عثمان بمصاهرة النبي ـ عليه السلام ـ عظيمة ، وحزنه لانقطاع هذه الصلة أعظم ، فلم ير بعد ذلك الا محزونا مهموما لفقد زوجته وانقطاع صلته بنبيه وأكرم الناس عليه ، ورآه النبي على تلك الحال فسأله : «ما لي أراك مهموما»؟ قال فيما رواه سعيد بن المسيب : « وهل دخل على أحد ما دخل

---

(١) غير الدهر : أحداثه . (٢) الاوج : ضد الهبوط . (٣) جلة : أي كبار وعظماء . (٤) غبطة : أي فرحة .

علي يا رسول الله ؟! ماتت ابنة رسول الله التي كانت عندي ، وانقطع ظهري ، وانقطع الصهر بيني وبينك » فطيب النبي خاطره وزوجه أختها أم كلثوم ، وبقيت معه الى ان توفيت في السنة التاسعة للهجرة بعد بنائه (١) بها بست سنوات .

وأشهر الروايات على انه سمي بذي النورين، لأنه تزوج من رقية وأم كلثوم بنتي النبي ـ عليه السلام ـ ، « ولم يعلم أحد تزوج بنتي نبي غيره » ..

ويقال انه سمي بذلك لان النبي ـ عليه السلام ـ قال : «فيه نور أهل السماء ومصباح اهل الارض » ويقال : انه كان يختم القرآن كل ليلة في صلاته « فالقرآن نور ، وقيام الليل نور » .

ومما خرجه الحافظ السلفي في سياق هذه الكنية: ان اسماعيل ابن علين أتى يونس بن خباب ليسمع منه ، فسأله يونس « من أين أنت ؟ » فقال : « من أهل البصرة » قال يونس : « أنت من أهل المدينة الذين يحبون عثمان بن عفان وقد قتل ابنتي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ! .. » فقال يونس ما فحواه (٢) : « أتراه قتل واحدة فزوجه الثانية من أجل ذلك » !

وجواب اسماعيل مفحم (٣)،وقصته مع يونس بن خباب عبرة من عبر الدعوة « السياسية » اذا لجت (٤) بالنفوس وغلبت على العقول ، فما يسمى عثمان من أجله بذي النورين يجري على لسان صاحب الهوى في النقد والمعابة فينعاه عليه ، وينعاه على البلد الذي يحبه ، ويحسبه قتلا لبنتين من بنات النبي ولا يدور بخلده (٥) جواب اسماعيل ان من قتل واحدة لا يعطى غيرها ليقتلها . ولا يرد على بأنه ما لا يغيب عن مثله من حديث ابن عباس حيث يروي عن النبي انه قال لعثمان مواسيا بعد موت رقية : « والذي نفسي بيده ولو ان عندي مائة بنت تموت واحدة بعد واحدة زوجتك أخرى حتى لا يبقى من المائة شيء .. » .

وحقيق بهذه القصة أن نحضرها أخلادنا (٦) ونحن مقبلون

---

(١) بنى بامرأته : أي زف ودخل عليها . (٢) أي ما معناه . (٣) يقال : أفحمه . أي أسكته . (٤) أي ترددت أو كثرت وعظمت . (٥) بخلده : أي بقلبه أو عقله . (٦) جمع خلد

على العلل والتعلات في الدعوة لعثمان والدعوة عليه ، فاننـا لواردون (١) على علل كثيرة وتعلات (٢) أكثر منهـا ، تسبقها الرغبة في خلق المحاسن أو المآخذ فلا تعيا مرة بخلق ما تريد ..

ومنذ اليوم الذي أسلم فيه عثمان لزم النبي حيث كان ، ولم يفارقه الا للهجرة باذنه ، أو في مهمة من المهام التي يندب لها ، ولا يغني أحد فيها غناؤه . شأنه في هذه الملازمـة شأن الخلفاء الراشدين جميعا ، كأنما هي خاصة من خواصهم رشحهم لها مـا رشحهـم بعد ذلـك للخلافه متعاقبـين بغير حاجـة الى مفاضلة وترجيح ..

فمن الصحابة من كان يبرح (٣) المدينة أو مكة في عمل من أعماله ، ومن كان يحضر الغزوات ويغيب عما عداها في مصالحه ومصالح أهله ، ما عدا أبا بكر وعمر وعثمان وعليا ، فقد أصبح عملهم بعد اسلامهم مقترنا بعمل النبي في مقامه وسفره ، وقد يقترن به فيما عم أو خص من أمـره ـ صلوات اللـه عليه ـ ، وتلك وشيجة من وشائج الواقع غير مدبرة ولا مقدرة ، تجمـع بين النبوة والخلافة كما ينبغي أن تجتمعا بحكم القرابة اللدنية بين المهمتين المتلازمتين ..

وترك عثمان تجارته الواسعة لمن يتولاها عنه من وكلائـه وذوي قرباه ، وجعل بيته بيتا لمال المسلمين قبل أن يكون للدولة الاسلامية بيت مال ، فلم يتطلب عمل الرسالة مددا من زاد السلم أو الحرب الا نهض به عثمان وحده ، أو كان أول ناهض به مع القادرين على بذل المال في هذا السبيل ..

شكا المهاجرون تغير الماء بالمدينة ولم يجدوا فيها غير بئـر واحدة يستسيغون ماءها ، وكانت عنـد يهودي يغالي بثمنها ، فاشترى منه نصفها وغلبه دهاء ، لأنه قسم سقياها يوما له ويوما لصاحبها ، وأباح السقيا منها بغير ثمن في يومه ، فكان طـلاب الماء يأخذون منه كفايتهم في ذلك اليوم .. ونظر اليهودي فرأى أنه لا ينتفع من نصفه الباقي له بكثير أو قليل فلما باعه بالقليل

---

(١) أي مقبلون . (٢) جمع تعلة ، وهي ما يتعلل به . (٣) أي يغادر ويترك .

بعد المغالاة فيه وهبها عثمان لمن يستقي منها في جميع الايام ·

ولما ندب النبي المسلمين لغزوة تبوك لم يكن عندهم من المال ما يقوم بنفقاتها . لبعد شقتها (١) واشتداد القيظ (١) في وقت الخروج أليها ، فتكفل عثمان وحده بثلث نفقاتها . وتبرع للمجاهدين بالمطايا والاطعمه ، وجاء بألف دينار في كمه فنثرها في حجر الرسول ، وكرر ذلك غير مرة على ما جاء في جمهرة الأخبار ··

واشترى أرضا ليزيدها في بناء المسجد بذل فيها عشرين ألف درهم أو خمسة وعشرين الفا ، ولم يقصر عن معونة يستطيعها في عسرة او مجاعة ، مدعوا الى ذلك او ملبيا من نفسه داعية النجدة والسماحة ، فلم يضارعه (٣) في سخائه احد من اقرانه . وكان بحق اسخى الاغنياء وأغنى الاسخياء ··

وعهد اليه النبي في السفارات التي يخشى خطرها . فلما كانت حملة الحديبيه التي تاهب فيها النبي لدخول مكه دعا بعمر ليبعثه الى رؤساء عشائرها ، فقال عمر : « ان قريشا تعرف عداوتي اياها وغلظتي عليها ، وليس بين القوم احد من بني عدي ينتصر لي ، فلو بعثت يا رسول الله عثمان اليهم فهو بينهم اعز مني » · وقد بعثه النبي فلم يسلم من سفاهه السفهاء ولم يمنعهم ان يبطشوا به لولا ان تصدى لهم ابن عمه ابان ابن سعيد بن العاصي ، وشاع يومئذ في معسكر المسلمين ان المشركين قتلوه . وكانوا قد احتبسوه ثلاثة ايام يتشاورون في امره . فلما دعا النبي جنده الى بيعة الرضوان أو بيعة الشجرة ، وضع يده اليمنى على يده اليسرى وهو يقول : هذه بيعة عثمان ·· «اللهم هذه عن عثمان في حاجتك وحاجة رسولك » ··

وسيأتي من أمر الدعوة على عثمان أنهم كانوا يحسبون عليه انه لم يشهد بدرا ولم يشهد يوم البيعه ، ولا لوم عليه في المرتين ولا سيما التخلف عن بيعة الشجرة ، اذ كان قد تخلف فيما هو أخطر وأعسر من حضور المبايعة كما حضرها سائر الصحابة .

---

(١) الشقة : السفر البعيد · (٢) القيظ : حرارة الصيف · (٣) يضارعه: يساويه ·

وهذه وما تقدمها من حديث يونس بن خباب بعض أفانين (١) التهم التي تخلقها الفتنة ، ويعلم بطلانها القائل قبل المستمع اليها ..

ومن المهام التي اختصه النبي بها أنه كان يكتب له الوحي عند نزوله ، وكان ــ عليه السلام ــ يناديه متحببا ويقول له وهو يملي عليه : « أكتب يا غثيم (٢) » . واستخلفه على المدينة في غزوته الى ذات الرقاع ، وأرسله الى اليمن مستطلعا حين كانت امارتها الى علي ، وكاد أن يفرده بالعمل فيما نسميه اليوم أمانة السر أو الكتابة الخاصة ، وهي أمانة يضطلع بها من يوثق بصدقه وكياسته (٣) ولطف أدائه لما يؤتمن عليه من رسالة أو سفارة ..

لا جرم يروي عنه أبو عبد الله الجبيري في رواية راجحة : انه كان موضع سر النبي في مرضه ــ عليه السلام ــ ، وفي هذه الرواية ينقل عن السيدة حفصة أنها حادثت السيدة عائشة تذكرها بما كان من هذه المسارة فقالت : « اني كنت أنا وأنت عند رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فأغمي عليه فقلت لك: أتريه قد قبض ؟ فقلت : لا أدري ، ثم أفاق فقال : افتحوا له الباب ، فقلت لك : أبوك أو أبي ؟ فقلت : لا أدري ، ففتحنا فاذا عثمان . فلما رآه النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : ادنه . فأكب عليه فساره بشيء لا أدري أنا وأنت ما هو ثم رفع رأسه فقال : أفهمت ما قلت لك ؟ قال نعم . قال : ادنه .. فأكب عليه أخرى مثلها فساره بشيء ما ندري ما هو، ثم رفع رأسه فقال: أفهمت ما قلت لك ؟ قال نعم . سمعته أذناي ووعاه (٤) قلبي . ثم أمره فانصرف ..

كان بين الصحابة منزلة من منازل الفخر يعتدون بها ويتعارفون عليها وهي منزلة الرضى من رسول الله الى يوم وفاته ، وكان من الكلمات الجارية على الألسنة في معرض الثناء أن يقال عن الرجل : انه توفى رسول الله وهو عنهم راض ..

---

(١) أفانين : أي أساليب . (٢) لعلها « يا عثيم » بالعين ، وهو أسلوب تصغير ، الغرض منه المداعبة والتدليل . (٣) كياسته : أي عقله . (٤) رعاه : أي حفظه .

فهذه المنزلة كانت من مفاخر عثمان التي يذكرها ويذكرها له من يحمده ، وكان في الطليعة ممن تحسب لهم هذه المفخرة بين الصحابة ، وانما كان شانئوه (١) يتحدثون بتخلفه عن وقعة بدر وعن بيعة الرضوان لينزلوا به شيئا من منزلته تلك التي ليس عليها خلاف ·

وصارت الخلافة الى الصديق ، وهو الذي أسلم عثمان على يديه ، وطالت الصحبة بينهما من قبل الاسلام ، والفت بينهما مشابه كثيرة في الطباع والأخلاق ، وكان ابو بكر يعتقد في عثمان الحزم كما قال له يوم فاتحه في أمر اسلامه.وليست هي من كلمات المجاملة في منام الترغيب والارتفاع فما كان أبو بكر بالرجل الذي يرسل الكلمات جزافا ولا بالمتكلم الذي يعييه أن يجامل أحدا بالصدق الذي يرضيه ·

ولم يكن مستغربا بعد طول الصحبة ان يكون عثمان أقرب المقربين الى الخليفة الجديد في أعمال سياسته واواصر (٢) مودته ، ولكننا هنا أمام عهد نادر من عهود الانسانية تتقدم فيه النظرة الى الدعوة القائمة على كل نظرة الى ما عداها . وقد يحب الانسان من يحب لأنه أقرب الى اعتقاده في نصرة الدعوة ، والأمانة لها ، والقدرة على خدمتها ، وان هذه الظاهرة العميقة الأغوار لمن أقوى ظواهر العهد وأحقها من المؤرخ بالانتباه اليها، وقد سبقت الاشارة الى فعلها اللدني في الجمع بين النبوة والخلافة . وتخصيص الخلفاء الراشدين على غير تدبير ولا تقدير بملازمة النبي في مقامه وسفره وغيابهم حين يغيبون بأذنه وفي رسالة من رسائل الدعوة النبوية،ثم ها هي تتكرر في التقريب بين الخليفة الأول وبين أوفق الصحاب لمعونته وملازمته ، والاطلاع على مقاصده ونياته ، فلم يكن بين أبي بكر وعمر من الصحبة قبل الاسلام ولا من المشابهة في الخلق بعض ما كان بين أبي بكر وعثمان ، ولكن أبا بكر وعمر كانا أوفق اثنين بين الصحابة للعمل معا في مهام الخلافة الأولى ، فتلازما وتشاورا وتقارب بينهما في الدعوة ما تباعد في الخلق والخليقة ، حتى كان

---

(١) شانئوه : كارهوه وخصومه · (٢) أي روابط ·

من يريد الوقيعة يسأل أبا بكر متجاهلا : والله ما ندري أأنت الخليفة أم عمر ؟ فيقول ــ رضي الله عنه ــ : هو لو كان شاء ··

ويحق لنا أن نقول : ان الأمر لم يكن باختيار أبي بكر ولا باختيار عمر ، ولكنه كان باختيار المصلحة العليا التي غلبت على كل مصلحة في ذلك العهد النادر ، وانها لمن وحي الله ··

في أيام أبي بكر لم يكن احد بعد عمر اقرب اليه من عثمان ، وكتب أبو بكر عهده الآخير وهو على سرير الموت وعثمان الى جواره يملي عليه · فلما أفاق سأله : من كتبت ؟ قال : عمر ·· كتبها وهو يعلم أنه لا يعدو بها نية الخليفة المحتضر ، فان أفاق أتم عهده كما أراد ، وان ذهب في تلك الغشية بطلت اللجاجة (١) فيما أراد ، وانسد باب الفتنة والخلاف ··

قال أبو بكر وهو على سرير الموت مستريح الى وفاء صاحبه ، مطمئن الى أمانة كاتبه : « بارك الله فيك ! بأبي أنت وأمي · لو كتبت نفسك كنت لها أهلا » ··

وهذا هو أسلوب الصديق فيما يرتضيه لمجاملته وصدقه : كلمة حق توافق السامع ولا تخالف الحقيقة في ضمير القائل ، ومما لا شك فيه أن أبا بكر كان يرى في عثمان أنه أهل للخلافه ، وان رأى أن عمر أحق بها منه ··

ثم صارت الخلافة الى عمر ولم يكن عنده قريب أو بعيد غير من يقربه عمل أو يبعده عمل ، ولم تكن للناس عنده أقدار غير أقدارهم عند الله وعند رسول الله ، وكان يستمع الى كل ويعتمد على كل ، ويستبقي كبار الصحابة جميعا عنده ليستعين برأيهم ويجنبهم غواية الدنيا اذا انطلقوا اليها ، أو كما قال : انه كان يخشى عليهم من الدنيا ويخشى على الدنيا منهم ، فبقي منهم من بقي على رضى وموافقة ، وبقي الكثيرون منهم على تبرم (٢) وملل (٣) ، فلم يرسل أحدا منهم في البلاد الا من أرسله في ولاية أو جهاد ، ولم يكن يطيل الولاية لأحد منهم وان أحسن وأفضل ، مخافة على الناس أن يفتتنوا باحسانه وأفضاله ، ان لم يخف عليه أن يفتنه الناس ··

---

(١) أي الخصومة · (٢) أي ضيق وضجر · (٣) ملل : سآمة ·

وكان عثمان ممن بقي معه ولازمه غير مكره ولا راغب في الرحلة كما رغب فيها الذين ارتحلوا أو لم يرتحلوا ارتحاله قبل الاسلام ، ولم يشتغلوا بالدين اشتغاله بعد الاسلام ، فركن اليه عمر في طلب المشورة، وعمل بمشورته في احصاء الناس والأعطية، وفي بدء السنة بشهر المحرم ، وعمل بها في خطته الكبرى ، وهي خطة العزل (١) بين الامامة والقيادة الى ميادين القتال • فان اصابة الامام قد تطمع العدو وقد تيئس الصديق ، وليست كذلك اصابة القائد الذي من ورائه امام يوليه ويولي أنداده (٢) وأمثاله من بعده ، وهي نصيحة من عثمان لعمر ما أدلها على سرائر المؤمنين في ذلك العهد الأمين : ينصح الناصح ولا يبتغي بنصيحته غير وجه الله ، ويتقبلها السامع وهو لا يبتغي بقبولها غير وجه الله •

شيء واحد من أشياء كثيرة يكشف لنا عن أصالة المشكلات والنقائض في عهد عثمان ••

فها هنا فترة من التربية السياسية مرت به ومر بها ولم تهيأ لخليفة قبله ولا بعده ، فهي أطول من فترة التربية السياسية التي تهيأت لأبي بكر مع النبي ، وأطول من الفترة التي تهيأت لعمر مع النبي والخليفة الأول ، ثم هي أطول من الفترات التي تهيأت للخليفة الرابع علي الذي جاء بعده ، لأن عليا ـ رضي الله عنه ـ أسلم وهو صبي ومضت عليه سنوات قبل مشاركته في أعمال الرأي أو أعمال الفعل والانجاز ، وقد كان اسلام عثمان وهو في نحو الثلاثين ، مشهود له بالحزم والبصر ، ومتأهب (٣) من اللحظة الأولى للمشاركة في كل خطة يتعاون عليها أقرب المقربين من صاحب الدعوة ، وبينه وبين صاحب الدعوة ـ عليه السلام ـ صهر ومودة وقرابة ليست بالبعيدة •

وفي هذه الفترة التي تمرس (٤) فيها بشئون الدعوة وشئون الخلافة عرضت كل مشكلة ، وارتسمت كل خطة في معاملة الصحابة وسائر المسلمين ، وارتسمت كذلك كل خطة في معاملة

---

(١) العزل اي الفصل • (٢) أي أقرانه • (٣) أي مستعد • (٤) تمرس بالشيء وامترس اختك به

المشركين والمنافقين من مسالمين أو محاربين ومن أنـاس على المواربة (١) بين السلم والقتال ، واتضحت على هذا النحو حدود الامام وحدود الرعية ، ومواضع الترخص والتشدد في جميع هذه الحدود على اختلاف أحوال اليسر والعسر أو أحوال التبسط والحرج ، وكان خليقا به وهو مطلع على كل قدوة وكل سابقة أن يكون اطلاعه هذا عدة جامعة يستعد بها لولاية الخلافة وتدبير الولايات من قبلها ، وصراطا يستقيم عليه فلا يعوزه (٢) الرأي الواضح ولا التصرف العاجل في أمر من الأمور ..

وهذه هي المشكلة الكبرى ..

بل هذه هي مشكلة المشاكل في عهد عثمان من قبل ابتدائه الى ما بعد نهايته ..

المشكلة الكبرى كما سوف تتراءى لنا أنه لم يعمل في خلافته عملا قط على غير سابقة تشبهه في كل شيء الا في ظروفه وملابساته ، فقد تغيرت كل الظروف والملابسات وهي هي بيت القصيد في كل استعداد لها بالقدوة والسابقة ..

لقد كانت له سابقة في كل شأن من شئونه حتى في شئون زواجه ومصاهرته ، وحتى في شئون تمييزه وتأليفه لذويه ولأعدائه ، ولكن مع هذا الفارق الواحد الذي هو في الحقيقة جامع لكل فارق يخطر على البال ، وهو فارق الظروف والملابسات .

كانت تربيته السياسية عدة له وأي عدة ، وكانت مع هذا هي مشكلة المشكلات بين الاستعداد بها والتصرف فيها وفاقا لما اختلف من ظروفها وملابساتها ..

عدة ولا عدة ..

وهذه هي احدى النقائض الكبرى التي تأصلت في عهد هذا الخليفة الشهيد ..

ونقيضة أخرى من نقائض عهده تعود الى مزيته العظمى في اسلامه قبل عامة قومه ..

---

(١) المواربة : المداهاة والمخاتلة . (٢) الاعواز : الفقر والاحتياج .

فهذه المزية العظمى ، ما معناها اذا نحن عبرنا عنها بعبارة أخرى لا تخرج عنها في لبابها (١) وقشورها ؟

معناها القريب البسيط أن قومه تأخروا في الاسلام ، وأنه كان مسلما من صفوة المسلمين ، اذ كان قومه عامة على لدد (٢) الكفر واصرار العداوة بينهم وبين النبي وصحبه الأبرار ، وكان منهم من يعودون به وهم كافرون أو مرتدون فيبدو ذلك نكيرا منفردا بين جلة الصحابة ، لأنه كان وحده منفردا بالمزية التي لم ينفردوا بها مثله ، وهي سبقه الى الاسلام بين أسرة مصرة على المكابرة والعداء ..

ولقد كان العربي يلوذ بالعربي وهما في المعسكرين المتناجزين (٣) ، وكان عثمان مسلما يوم أوفده النبي الى مكة وتلقاه أهلها بالأذى فتصدى لنصرته بعض أبناء عمومته المشركين ، ومضى ذلك في حينه ولم يلتفت اليه ملتفت في ذلك الحين ، لأنه لم يكن بدعا من عادات القوم قبل الاسلام ولا بعده ، وكان مشركو مكة يهابون المساس بصاحب الدعوة نفسه لعلمهم أن عشيرته تغضب له اذا جد الجد ، وأصابه المكروه في سبيل الدين .

فلما انتهى أمر الشرك ، وانتهى عرفه وعاداته ، وبقيت مفاخر الاسلام وسوابقه أصبحت المزية العظمى نقيصة (٤) من جانبها الآخر لم تكن مزية على الاطلاق .

يحضرنا في هذا الصدد مثل يستوحيه الذهن قسرا (٥) في موقعه من هذه السيرة ، وهو مثل الرؤيا التي فسرها المنجمون للملك تفسيرا قضى عليهم بالعقاب ، ثم فسرها له غيرهم تفسيرا أغدق (٦) عليهم النعمة والثواب ، ولا فرق بين التفسيرين في المدلول ..

قال له المنجمون أولا : ان الرؤيا مشئومة لأنها تريهم أعزاءه يهلكون واحدا بعد واحد ثم لا يلبث الملك أن يهلك على آثارهم .

ثم قال له المنجمون آخرا : انها لرؤيا سعيدة تبشره بالعمر الطويل ، وانه لأطول عمرا من قومه أجمعين .

---

(١) أي جوهرها ومظهرها ، واللب خالص كل شيء . (٢) اللدد : شدة الخصومة . (٣) المناجزة والتناجز : بمعنى المقاتلة . (٤) نقيصة : أي عيب . (٥) أي كرها أو قهرا . (٦) أي أكثر .

والتفسيران واحد في المدلول . ولكن الأول يسخط ويسوء والثاني يرضي ويسر ، ولا فارق بينهما في غير التعبير

وعثمان ـ رضوان الله عليه ـ كان أسبق قومه الى الاسلام فهذه منزيته العظمى ..

وكان كل أهله على الشرك ما عداه . وهنا تتغير الصفحة في النظر بعد ذهاب الشرك وأهله ، وما بدا في الصفحة الأولى الا الذي بدا في الصفحة التالية : قريب من قريب .

ليس من المألوف في أيام عثمان أن يكون الزواج مسألة من مسائل المجتمع ، فانما كانت شئون الزواج تجري على وتيرة (١) واحدة بحكم العادة كأنها من شئون الزوج والزوجة التي لا تعني (٢) أحدا غيرهما ، ولكن زواج عثمان لم يجر على هذه الوتيرة سواء قبل الخلافة أو بعدها . فكان زواجه على التعاقب من بنتين للنبي ـ عليه السلام ـ تاريخا في علاقات الزواج يكفي من ندرته أنه عرف به في كنيته على قول من أشهر الأقوال .

ولم يختلف بعد وفاة السيدة أم كلثوم عن سنة أمثاله في الزواج من عقيلات البيوت على الأغلب الى أن توفي عن زوجاته الثلاث : رملة وفاختة ونائلة ، الا أن زواجه من نائلة بنت الفرافصة كان من قبيل الزواج الذي يقال فيه : انه مسألة من مسائل المجتمع في حينه ، فقد كان زواج الصحابة من غير المسلمات خارج الحجاز أحد الطوارىء التي جدت في المجتمع الاسلامي بعد فتوح العراق والشام ومصر ، وكان لها أثرها البعيد في تطور البيت العربي واختلاف أنماط (٣) المعيشة بين ذوي البيوتات من جلة الصحابة ، وبعضها مما دخل على المعيشة العربية بعادات للأمم الغربية لم يتعودها العرب قبل مخالطتهم تلك الأمم مخالطة الصهر والمعاشرة البيتية .

وتتعدد الروايات في الباعث الى خطبة عثمان لنائلة بنت الفرافصة كما هو الغالب في أخبار العصر كله ، وأشهرها : أنه سمع بزواج سعيد بن العاص والي الكوفة من أختها هند ، وتناقل

---

(١) وتيرة : طريقة . (٢) أي تخص وتهم . (٣) أنماط : طرق وأنواع .

ذوو قرباه الأحاديث عن كياستها (١) وجمالها وحسن قيامها على أمور بيتها ، فكتب الى سعيد يخطب أختها ولا يعرفها ، وكان ضب بن الفرافصة قد أسلم ، فأمره أبوه أن يزوجه أختها نائلة ، وكانت أديبة ذكية تنظم الشعر وتحسن القول ، ولها في زواجها من عثمان أبيات مما تغنى به ابن عائشة في بعض ألحانه ، ومنها قولها تخاطب أخاها :

ألست ترى يا ضب بالله أنني
مصاحبة نحو المدينة أركبا

اذا قطعوا حزنا (٢) تخب (٣) ركابهم
كما حركت ريح يراعا (٤) منقبا (٥)

لقد كان في فتيان حصن بن ضمضم
لك الويل ما يغني الخباء المطنبا (٦)

ثم قولها تخاطب نفسها :

قضى الله حقا أن تموتي غريبة
بيثرب لا تلقين أما ولا أبا

وغادرت قومها في بادية الشام وحواضرها على كره منها الى مسكنها الغريب ، وسألها عثمان حين رآها : « لعلك تكرهين ما ترين من شيبي ؟ » قالت : « والله يا أمير المؤمنين اني من نسوة أحب أزواجهن اليهن الكهول » . قال عثمان : « أنا قد جزت (٧) الكهول ، وأنا شيخ ، ولن تجدي عندنا الا خيرا » .

وعلى هذه النقرة (٨) بعد هذه الغربة توثقت المحبة بين الزوجين حتى كرهت الزوجة الفتية بعد مقتل عثمان أن تتزوج من أحد بعده كائنا ما كان قدره ونسبه ، وتكاثر خطابها فأحبت أن تصرفهم عنها وتصرف نفسها عنهم ، فعمدت الى حجر فهتمت به ثناياها ، وردت معاوية بن أبي سفيان حين خطبها قائلة لرسوله : « ماذا يرجوه من امرأة جذماء ؟ » .

---

(١) أي عقلها . (٢) الحزن : خلاف السهل . (٣) الخبب : ضرب من العدو . (٤) اليراع : ذباب يطير بالليل كأنه نار ، وشيء كالعوض يغشى الوجه . (٥) يقال : نقبوا في البلاد : أي ساروا فيها طلبا للمهرب . (٦) أي المشدود بالحبال والاوتاد . (٧) أي تجاوزت . (٨) النقرة : مراجعة في الكلام .

ونائلة هي التي كتبت الى معاوية تصف مقتل زوجها ، وقالت من خطابها الذي تواترت نسبته اليها : « من نائلة بنت الفرافصة الى معاوية بن أبي سفيان • أما بعد فاني أدعوكم الى الله الذي أنعم عليكم وعلمكم الاسلام وهداكم من الضلالة وأنقذكم من الكفر ونصركم على العدو وأسبغ (١) عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ، وأنشدكم الله وأذكركم حقه وحق خليفته أن تنصروه بعزم الله عليكم ، فانه قال : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء (٢) الى أمر الله (٣) » وان أمير المؤمنين بغي عليه ، ولو لم يكن لعثمان عليكم الا حق الولاية لحق على كل مسلم يرجو امامته أن ينصره ، فكيف وقد علمتم قدمه في الاسلام ، وحسن بلائه ، وأنه أجاب داعي الله وصدق كتابه واتبع رسوله ، والله أعلم به اذ انتخبه (٤) فأعطاه شرف الدنيا وشرف الآخرة » ••

ثم استطردت تقص خبر مقتله ، وتتهم المقصرين عن نجدته •• فما كان صوابها بأدل على الوله والحزن من خطئها فيما اتهمت ، ومن تخبطها فيما زعمت ، فان خطبا (٥) أهون من خطبها الذي شهدته بعيني رأسها ليذهل الحزين عن سداد رأيه ، كما قال حكيم المعرة فيما دون ذلك :

ربما أذهل الحزين جوى (٦) الحزن
الى غير لائق بالسداد
مثلما فاتت الصلاة سليمان
فأنحى على رقاب الجياد

وقد كان لها عند عثمان مثل هذا الحب وهذه الحظوة ، بل كان له من الثقة بنصحها ما لم يكن له في مروان بن الحكم أقرب المقربين •• وكانا يتلاحيان (٧) كثيرا في محضره ، وعيرها مرة أباها « الذي لا يحسن الوضوء » فقالت له تعرض بأبيه — وهو

---

(١) أسبغ : وسع وأتم • (٢) تفيء : ترجع • (٣) الآية : ٩ من سورة الحجرات • (٤) انتخبه : أي اختاره • (٥) الخطب : المصيبة • (٦) جوى : أي حرقة • (٧) يتلاحيان : يتشاتمان ، أو يتنازعان ، أو يتلاومان

عم عثمان ـ « أما والله لولا أنه عمه وأنه يناله غمه لأخبرتك عنه ما لم أكن أكذب عليه » •• وغضب عثمان فتوعد مروان لئن تعرض لها ليسودن وجهه • ثم قال له : « والله لهي أنصح لي منك » •

ان خلق الرجل لا يقاس بمقياس أصدق من المرأة وأسبر (١) منها لأغوار طبعه ، وقد يعز على هذا المقياس ـ مقياس المرأة ـ أن يسبر لنا أغوار عقله وأعماق بديهته ، ولكنه لا يعز عليه أن يفرق بين الرجل الذي يحب ويطاع ويهاب ، والرجل الذي تنزل به الألفة منزلة الوهن والعجز في نظر من يألفونه قبل من يعرفونه على البعد أو لا يعرفون منه الا القليل ••

وهذا مقياس صادق من هذا الزواج الغريب أو الطارىء على المجتمع الاسلامي بعد فتوح العراق والشام وسائر الفتوح الآسيوية والافريقية ، وهو مقياس قيس به رجال من النابهين على نحو واحد فلم يكن بينهم من هو أرجح فيه من عثمان ، ولا سيما مقياس الشخصية الغالبة التي تؤثر فيمن يعاشرها ، وتصبغه بصبغتها ، كما تأثرت السيدة نائلة بايمان عثمان وتقواه وكرم نفسه فنسيت نفرتها واختلاف عقيدتها وبيئتها وتحنفت (٢) على سنة (٣) زوجها كما قال من وصفوها في حياته وبعد مقتله •

وفي ذلك العصر نفسه تزوج أناس من ولاة الدولة العربية بالعقائل (٤) والجواري في الحاضرة والبادية ، فكان منهم من تعود عاداتهن من الشراب على الطعام ، وسوغه (٥) لنفسه باختلاف المختلفين في الخمر وأنواعها ، وكان أمر هؤلاء ومن شاكلهم يرفع الى الفاروق قبل خلافة عثمان فيحسمه على دأبه (٦) بتأديب من عصى ، والتنكيل بمن أصر على استباحة الشراب المحظور •

ومن لم يبلغ من ضعفه أن ينقاد هذا الانقياد لم يبلغ من شخصيته الغالبة على ذوي جواره وعشرته أن يصبغهم بصبغته

---

(١) السبر : الاختبار • (٢) تحنفت : أي استقامت • (٣) أي طريقته •
(٤) جمع عقيلة ، والعقيلة : كريمة الحي • (٥) سوغه : أجازه • (٦) أي عادته •

ويحولهم الى معيشة كمعيشته ، وهذه ميسون بنت بحدل الكلبية من قبيلة نائلة بنت الفرافصة قد تزوجت بمعاوية ، وداره الى جانب دارها ، ومقامه في دمشق أقرب الى باديتها ، فلم تلبث أن سئمت مقامها ، وعافت (١) القصر الذي تسكنه زوجة لأمير المؤمنين وأما للأمير من بعده ، ونظمت أبياتها التي جرت مجرى الأمثال على لسان كل زاهد في مقامه ، حنينا الى مآلف عيشه الأولى ، وان كانت دون ذلك المقام في الرغد والنعيم ٠

قالت ميسون تذكر القصر والبادية :

لبيت تخفق الأرواح فيه
أحب الي من قصر منيف
ولبس عباءة وتقر عيني
أحب الي من لبس الشفوف (٢)

وقالت تشير الى زوجها :

وخرق (٣) من بني عمي نحيف
أحب الي من علج (٤) عليف (٥)
فما أبغي سوى وطني بديلا
فحسبي ذاك من وطن شريف

وذلك مع الفارق البعيد بين قصور الشام وبيوت الحجاز وبين سن معاوية وسن عثمان ، وبين ما ترجوه زوجة الخليفة بعد موته وما ترجوه زوجة معاوية وأم يزيد وأم شقيقته « أمة رب المشارق » وسيدة القصر تكاد أن تنفرد فيه ، وأن تغدو وتروح بين الحاضرة والبادية حين تشاء ٠

هذه لمحة من ملامح « الشخصية العثمانية » لا تهمل في مكانها من سيرته الخاصة . ولعلها أهدى للمؤرخ من شيم (٦) كثيرة توضح له خلائقه التي يؤثر بها فيمن حوله ، ولا شك أنها تزداد

(١) أي ملت وكرهت ٠ (٢) الشفوف : الثوب الرقيق الذي يظهر ما تحته لرقته ٠ (٣) الخرق : الفتى الحسن الكريم الخليقة ٠ (٤) العلج : الرجل من كفار العجم ٠ (٥) أي معلوف ٠ (٦) الشيمة : الخلق ٠

وضوحا اذا اتضحت معها ملامح الشخصية التي تأثرت بهذا الأثر ، وهي السيدة نائلة التي جاءته نافرة تنعي غربتها وزواجها من غير بني عمومتها ، ولم تلبث أن تحنفت وأخلصت لبعلها في وفائها واعتقاده ·

فهذه شخصية قوية من بيئة عريقة في القوة والاعتزاز بالعرف والقوة وقومها بنو كلب أحد القبائل التي هجرت موطنها قديما في الجزيرة العربية وحافظت على أرومتها (١) وعصبيتها وفصاحتها ، فكانت الى ما بعد الاسلام بعدة قرون مرجعا لمن يتقصى أساليب الفصحى ، او يريد أن ينشيء أبناءه على خشونة البادية وصحتها ، ومهما نصعد مع أصولها في القدم نجد في أخبارها — بل في أسمائها — لونا من ألوان هذه العصبية وهذه الخشونة وهذه العراقة البدوية التي لا يسهل على أبنائها وبناتها أن يتخلقوا بخلق غيرها ··

وتنسب هذه القبيلة الى وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران ابن الحاف بن قضاعة ، ويقول النسابون : « ان وبرة ولد له كلب وأسد ونمر وذئب وثعلب وفهد وضبع ودب وسيد وسرحان » ثم يزيدون على ذلك بعد الاسلام: « أن من أشراف كلب الفرافصة بن الأحوص بن عمرو بن ثعلبة ، وهو الذي تزوج عثمان بن عفان ابنته نائلة بنت الفرافصة ، ومنهم زهير بن جناب بن هبل ابن عبد الله بن كنانة ، ومن أسلافهم في الاسلام دحية بن خليفة الكلبي وهو الذي كان جبريل — عليه السلام — ينزل في صورته ، ومنهم حسان بن مالك بن جذيمة ·· » ·

ويؤخذ من بعض أخبار الكنيسة الشرقية أن رؤساءهم دانوا بالمسيحية تلبية لدعوة الرسل الأولين في بادية الشام قبل أن تدين بها الدولة البيزنطية ، خلافا لما قد يظن من أنهم دانوا بها مع الدولة القائمة في بلاد الروم ··

وأيا كان مقطع القول في ذلك فلا مراء في قوة هذه القبيلة وعراقتها واعتزازها بأصولها واعتدادها بأنفتها (٢) وخشونتها

---

(١) أرومتها : أصلها ·
(٢) أنفتها : أي كبريائها ·

كأنها ضرب من الايمان أو أصرة من أواصر الأنساب ، وقد عجزت قصور الملك في دمشق أن تروض أم يزيد على البقاء مع بعلها في القصر المنيف ، فلم يسع معاوية الا أن يرسلها وابنها الى باديتها عسى أن يستفيد من تلك النشأة منعة (١) في الخلق تواتيه يوم ينهض باعباء الدولة التي أعدها له من صباه ٠

فاذا كانت خلائق عثمان هي التي حببت الى زوجته من تلك العشيرة أن تفارق النشأة التي عزت مفارقتها على أترابها (٢) فلن يرد على الخاطر أنها خلائق رجل امعة (٣) ، أو رجل هزيل يذهب به من يذهب ويجيء به من يجيء ، ولا بد لتردده وحيرته حين يقع منه التردد والحيرة أن يثاب بهما الى باعث بعمل عمله في طبائع الأقوياء وغير المستضعفين ولا ينحصر عمله في النفوس التي برئت من القوة وخلصت للضعف والهزال ٠

وقد ولدت له نائلة بنته مريم ، فكان مما يخطر على البال أن هذه التسمية من ايحاء أمها ، ومن بقايا حنينها الى عقيدتها الأولى ، ولكن اسم مريم كان من الاسماء المحببة الى عثمان ، وقد سمى به بنته من ام عمرو بنت جندب ، وهو أشبه أن يكون تحية للزوجة المخلصة من أن يكون متابعة لها فيما لا تعاب المتابعة فيه ٠

تزوج عثمان على التعاقب تسعا من النساء ، ومات عن ثلاث منهن هن : نائلة وفاختة ورملة ، اذا صح أنه طلق ام البنين وهو محصور ٠

وقد ولد له تسعة من الذكور وسبع من الاناث ، ولم يولد له من بنتي رسول الله رقية وأم كلثوم غير عبد الله ابنه من رقية ، عاش الى السادسة ثم نقر عينه ديك فورم وجهه ومات ، وسائر أبنائه من زوجاته الأخريات لم يؤثر عنهم أمر ذو خطر في التاريخ ، وهي حالة من حالات السلالة الأموية لا نجزم بتعليلها على وجه واضح ، فهم على خلاف بني هاشم الذين بقيت فيهم بقايا النجابة (٤) والعزيمة على استمرار القتل في أصولهم وفروعهم ،

---

(١) منعة : أي قوة ٠ (٢) أترابها : لداتها ٠ (٣) الامع والامعة : الرجل الذي لا يثبت على شيء ويتابع كل أحد على رأيه ٠ (٤) النجابة : الكرم ٠

وانما كان بنو أمية في المشرق والمغرب يعقبون كأنما يأتي العقب منهم على قدر الضرورة ، مع أنهم قد اتخذوا الجواري الى جانب زوجاتهم ، وتزوجوا من قريباتهم وغير قريباتهم ، فاذا تسلسل النسب منهم جيلا أو جيلين لم يمض على سؤاله في الجيل الثالث . أو يرزقون الولد ولا يرزقون فيه النجابة والنبوغ ، وربما كان للنسب الدخيل في أصولهم الجاهلية آثر في هذه الحالة المتلاحقة ، وأقرب من ذلك الى التعليل المقبول آن أولئك الأصول في الجاهلية لم يتصونوا في المخادنة (١) والمعاشرة كما شاع عن بعضهم فأصابهم من الآفات الجنسية ما كمن في أعقابهم وتداركوه بالتبني تارة والاستلحاق تارة والتماسك بين ذوي القربى حيث لا موضع للتبني والاستلحاق ..

ونحن نوميء (٢) الى هذه الملاحظة بسبيل الكلام على ذرية عثمان . لأنها ملاحظة شوهدت في تاريخ الأصول الاموية وشوهدت في نسله وعشيرته ، وشوهدت في أعمال خلافته ، فلها محل فيما خص أو عم من سيرته وتاريخه ..

٢ ـ شئون المجتمع

منذ أسلم عثمان الى آن تولى الخلافة تغير المجتمع العربي في نطاق واسع ، وأصبحت الصبغة الاسلامية نوعا من الصبغة العالميه يكاد أن يقرب بين أساليب المعيشة في جميع أمم الحضارة الشرقية والغربية ..

أسلم عثمان والدعوة الاسلامية محصورة في آحاد معدودين يلتمسون النجاة بعقائدهم وأنفسهم وذويهم من مجتمع الى مجتمع ومن بلد الى بلد . وصاحب الاسلام في جهاده وفتوحه حتى عم الجزيرة العربية قبيل وفاة النبي ـ عليه السلام ـ ، وأصبح بذلك دينا عربيا يجمع بين قبائل العرب على اختلاف الأنساب والطبقات ..

ثم صاحب الاسلام في جهاده وفتوحه آيام حروب الردة وفتوح

---

(١) الخدن : الصاحب · (٢) نوميء : نشير ·

العراق وما جاوره من أرض فارس والروم ، ثم صاحبه في جهاده وفتوحه حتى أوشكت هذه الفتوح أن تحيط بالعالم المعمور يوم تسلم زمامه من سلفه العظيم عمر بن الخطاب ..

ولم تمض سنوات من خلافة عثمان حتى أحاط العالم الاسلامي بالعالم المعمور كله الا ما كان منه في أقصى المشرق او أقصى المغرب ، فأصبحت الصبغة الاسلامية كما اسلفنا ، صبغة عالميه تشمل العربي والفارسي والرومي والمصري والبربري ،وتسلكهم كلهم في دوله واحدة لاول مرة في التاريخ ..

وليس الذي طرأ على المجتمع العربي خاصة أنه عرف الترف ولم يكن يعرفه ، أو عرف الثروة وكان محروما منها ، فان الترف والوفر قديمان في الجزيرة العربية ، وزيادة المقدار لا نحسب من التغير الجوهري في المجتمع ان لم تكن مصحوبة بالتغير في نظرة الانسان الى الحياة ، وهذا الذي غير المجتمع العربي ، وغير المجتمع الاسلامي ، بعد اتساعه وامتداده الى اقصى مداه في خلافة عثمان .

ان الغني المترف من عرب الجاهلية لم يكن يخجل من ترفه . ولم يكن يحسب أنه يختلس به شيئا ليس من حقه ، ويستمتع بشيء لا ينبغي لمروءته بل كان يبذخ (١) في ترفه ويفاخر نظراءه ببذخه ، ومن لم يدرك من الترف والبذخ حظا كحظه فهو متطلع له ، حاسد عليه ، ناظر اليه كما ينظر الى أمنية الحياة ، ان فاتته فقد فاته من حياته خير ما يتمناه ..

تغير هذا بعد الاسلام كل التغير ، وأصبح الترف رذيلة مزدراة (٢) كائنا ما كان نصيب المترف من الجاه والثراء ،وأصبح الثراء نعمة دون النعمة الكبرى التي يتطلع اليها المسلم في حياته الجديدة ، فهو وسيلة دون غاية ومتاع في حاجة الى تسويغ ، ثم لا مسوغ للسرف (٣) فيه بأية حال .

وعلى هذا كبر مقدار الثروة التي ينعم بها أصحابها بعد أن تغير النظر الى كثيرها وقليلها ومسوغاتها ومحظوراتها ، فربما

---

(١) البذخ : الكبر . (٢) مزدراة : أي محتقرة . (٣) أي الاسراف .

بلغت ثروة الرجل الواحد في خلافة عثمان ما يعدل ثروة السادة المترفين جميعا على آخر عهد الجاهلية ، وما يحسب حتى في زماننا هذا غنى مفرطا عند أغنى الأغنياء •

قيل في مصادر متعددة : ان عبد الرحمن بن عوف خلف (١) ذهبا كان يقطع بالفؤوس حتى تمجل (٢) أيدي الرجال ، وترك ألف بعير وثلاثة آلاف شاة ومائة فرس ، وقسم ميراثه على ستة عشر سهما فبلغ السهم ثمانين ألف درهم،وكان يزرع بالجرف(٣) على عشرين ناضحا (٤) ويتجر فيكسب من التجارة مئات الألوف •

وكان كلما اجتمع له من الربح مدخر كثير فرّقه على الغزاة ، وتصدق به على الفقراء • قال ابن عباس : « مرض عبد الرحمن ابن عوف فأوصى بثلث ماله فصح فتصدق به ، ثم قال : يا أصحاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ، كل من كان من أهل بدر له علي أربعمائة دينار ، فقام عثمان وذهب مع الناس ، فقيل له : يا أبا عمر ! ألست غنيا ؟• قال : هذه وصلة من عبد الرحمن لا صدقة ، وهو من مال حلال ، فتصدق عليهم في ذلك اليوم بمائة وخمسين ألف دينار » •

وكان كلما اجتمع له عدد من العبيد أعتقهم ووصى لهم بما يكفيهم •

ولما مات الزبير بن العوام طلب أبناؤه ميراثه ، فأبى عبد الله أن يقسم بينهم حتى ينادي بالموسم أربع سنين من كان له على الزبير دين فليأتنا فلنقضه ، لأنه كان يؤتمن على الودائع ممن يترددون على الحجاز للتجارة ، فلما انقضت أربع سنين قسم بينهم ما بقي من ماله خالصا فاذا هو خمسون ألف ألف ومائتا ألف •

---

(١) خلف : أي تركه ومات عنه • (٢) المجلة : قشرة رقيقة يجتمع فيها ماء من أثر العمل • (٣) الجرف : الخصب ، وأرض جرفة : مختلفة ، والجرف : المكان الذي لا يأخذه السيل ، والجرف : ما تجرفته السيول وأكلته من الارض •
(٤) الناضح : البعير يستقى عليه •

وكان طلحة يغل (١) بالعراق ما بين أربعمائة ألف الى خمسمائة ألف ، ويغل بالسراة عشرة آلاف دينار ، وكان لا يدع أحدا من بني تيم عائلا (٢) الا كفاه مؤونة عياله ، ويزوج أياماهم ويقضي دين غارمهم . وأخرج صاحب الصفوة فيما اخرج من أخباره : أنه باع عثمان أرضا بسبعمائة ألف حملها اليه ، فلما جاء بها قال : ان رجلا تبيت هذه عنده في بيته لا يدري ما يطرقه من أمر الله لغرير بالله .. فبات ورسله تختلف في سكك المدينة حتى أسحر وما عنده منها درهم .

وعن سعدى بنت عوف امراته : أنها دخلت عليه يوما فرأته مغموما ، فسألته : ما شأنك ؟.. قال المال الذي عندي قد كثر وآكربني ، قالت : وما عليك ؟.. اقسمه ، فقسمه حتى ما بقي منه درهم ، وقال خازنه : كان المال الذي فرقه يومئذ أربعمائة ألف ..

ونحن لا نشك في عظم هذه الثروات التي توافرت لهؤلاء النخبة من أجلاء الصحابة شيئا فشيئا من ايام النبي ــ عليه السلام ــ الى ما بعد قيام الدولة الاموية ، ولا نجري على عادة المحدثين الذين يتلقون أخبار العصور الماضية جملة واحدة بالشك أو بالنفي من غير بينة ، فان الرفض المطلق كالتسليم المطلق كلاهما من الآليات التي تحكم حكمها بغير تصرف ولا انتقاد ، ومن الجائز أن الناقلين لم يتحروا الدقة في حساب الأرقام بالملايين والألوف والمئات كما نحسبها اليوم ، ولكن الذي نعتقده أن مقادير تلك الثروات أكبر وليست أقل مما توحيه تلك الأرقام ، لأنها اجتمعت من أربح التجارات في جميع العصور ، وهي التجارة المتبادلة بين الشرق والغرب من طريق العراق والشام والجزيرة العربية مجتمعات .

لقد كان الملأ من قريش أغنياء مفرطين في الغنى أيام الجاهلية ، وكان موردهم كله من مواصلات الحجاز بين اليمن والشام ، ولم يكن لهم فوق ذلك سلطان على بقعة وراء الحجاز ، بل كان

(١) الغلة : الدخل من كراء دار ، وأجر غلام ، وفائدة أرض .
(٢) عائلا : فقيرا .

سلطانهم في الحجاز نفسه عاجزا عن تأمين قوافلهم بغير المساومة بينهم وبين قبائل الطريق ..

فلما استقر الامن في الجزيرة العربية وامتدت الفتوح الى العراق والشام وفلسطين ومصر ، واطمأنت القوافل على هذه الطرق شرقا وغربا والى الشمال والجنوب ، واتسعت مواصلات التجارة العالمية في تلك البقاع ، لم يكن مورد في العالم قط أعظم ولا أربح من هذا المورد الذي تهيا لبيوت التجارة العريقة في قريش ، ويكفي أن يسلم هذا المورد سنة في كل سنتين أو ثلاث ليغنم منه التاجر الكبير الوف الألوف ، ويأخذ من ربح سنة ما يعوض وقف التجارة سنوات .

ومن المعلوم في العصور الحديثة أن شركة الهند الشرقية جمعت الملايين من أرباح تجارة دون هذه التجارة في السعة والضمان ، اذ كانت تؤدي الضرائب والأتاوات (١) في البحر والبر ، ولا تملك خطوطا من المواصلات كتلك الخطوط التي تمهدت لأصحاب التجارات في الحجاز ، أما أصحاب هذه التجارات فلم تكن عليهم ضريبة مفروضة غير الزكاة ونفقات الحراسة ، وكانت أرباحهم معدنا خالصا أو عملة مقبولة في كل جهة من جهات العالم يومذاك ، دون أن تتعرض لتقلب المضاربات في الأسواق بين أقصى المشرق في الهند وأقصى المغرب على الشواطيء الأطلسية .

فاذا قام على هذه التجارة العالمية عشرون بيتا أو ثلاثون بيتا من بيوت التجارة العريقة في مكة والمدينة فليس من المبالغة أن يقال عنها : أنها كانت تملك الملايين وتعمل الفؤوس في حطام(٢) الذهب والفضة ، فربما كانت المبالغة هنا الى القلة لا الى التزيد في التقدير .

ويهمنا أن نلتفت الى مصدر الثروات من التجارة تصحيحا لوهم الواهمين أنها قد اجتمعت كلها من غنائم القتال ، فان عطاء المقاتلين لم يكن يتفاوت هذا التفاوت في الأنصبة بين أكبر عطاء وأصغر عطاء ، ولم يكن في وسع طلحة ولا الزبير ولا عبد الرحمن

---

(١) جمع اتاوة ، والاتاوة : الخراج . (٢) الحطام : ما تكسر من اليبيس .

ابن عوف أن يجمعوا من أنفال (١) القتال ثروة تزيد على نصيب الأجناد بمثل ذلك الفارق الكبير ·

وليس هذا كل ما يهم من تحقيق مصدر الثروة أو من الرجوع بأكثره الى التجارة دون غنائم القتال ، اذ المهم في الواقع أن المجمتع الذي تدور ثروته على الأعمال التجارية غير المجتمع الذي تدور ثروته على أعطية الجند من غنائم القتال دون سواها ، فهما مجتمعان متغايران في آداب المعاملة ، وفي موازين الأخلاق ، وفي النظر الى متع الحياة ، واذا التقيا معا في أقل من عمر الرجل الواحد فلا قرار ولا تفاهم بين موازين التجارة وموازين الجهاد الى حين ··

قال محمد بن سيرين : « كثر المال في زمن عثمان فبيعت جارية بوزنها ، وفرس بمائة ألف درهم ، ونخلة بألف درهم » ·

وهذا الذي كان يقال عنه في الزمن الماضي : انه وفرة الخير ودرة الرزق ·· وهذا الذي نقول عنه اليوم : انه آفة « التضخم » في النقد مع فارق بعيد بين أحوال عصرنا وأحوال العصور الماضية : ذلك هو الفارق بين عملة الورق وعملة الذهب والفضة، فاذا رخص الذهب والفضة كما حدث في ذلك العصر فقد رخص المال في جوهره ولم تكن ثمة (٢) غرابة في كتل الذهب التي تقسمها فؤوس العبيد ، ولا حيلة في مثل تلك الحالة لمن يعيش على مورد محدود ولا يقتني من الذهب والفضة ما يكفيه من الكفاف ، وليست كذلك أزمة التضخم من عملة الورق وما جرى مجراها ، اذ يقل الشراء لقلة ما يشترى من المتاع المطلوب ، وبعضها يطلب ولا يوجد عند طلبه في الأسواق ··

هذه الأزمة بلغت غايتها في خلافة عثمان ، ولكنها بدأت بعد الهجرة الى المدينة واستئناف مسير القوافل الى رحلتي الصيف والشتاء ببضع سنوات ·

والاسلام لا يمنع التجارة ولا ينكر الثروة ، ولكنه يمنع الترف ، وينكر كنز الذهب والفضة ، ويأمر بانفاق المال في المنافع والمرافق كما جاء في القرآن الكريم : « كي لا يكون دولة بين

---

(١) أنفال : مغانم · (٢) ثمة : أي هناك ·

الأغنياء منكم (١) » ويتقي أشد التقية أن يترف أناس ويعدم أناس آخرون ..

ولم يصعب على المجتمع الاسلامي تدبير مشكلة الثروات الكبيرة في السنوات الأولى من الدعوة ، أو على الأصح أن الثروات الكبيرة لم تكن مشكلة من مشكلات المجتمع في تلك السنوات ، سواء من جانب الأغنياء أو جانب الفقراء ، فان أصحاب تلك الثروات كانوا يتعوذون منها ، ويشفقون من فتنتها ، ويسارعون الى تفريقها على مستحقيها من الغزاة والمجاهدين وعلى المحرومين والمعوزين (٢) ، وكان تخصيص الغزاة بالصلات التي تأتيهم من فيض (٣) تلك الثروات تشريفا لهم يتنافسون عليه ولا يأنفون منه ، بل كان منهم من يأبى أن تفوته هبة يراد بها أهل بدر أو غيرهم من أصحاب المغازي والسرايا ، كأنه يرى في ذلك انكارا لصفته وكرامته وسابقته في جهاده ، وقد تقدم أن عثمان ذهب مع الناس الى عبد الرحمن بن عوف ليأخذ حصته من العطاء الذي نذر تفريقه على البدريين(٤)، وموقف عثمان هنا خاصة ـ ونحن بصدد ترجمته ـ يصور لنا شعور الغني والفقير يومئذ بشرف العطاء الذي يخص به البدريون ومن حذا حذوهم في غزوات الجهاد ، فقد كان عثمان ـ رضي الله عنه ـ يفرق أضعاف ما أخذه من عبد الرحمن بن عوف ، ولكنه أشفق أن يدخل البدريون في حساب ولا يكون هو مثلهم من الداخلين فيه ، وبخاصة حين عيره بعضهم أنه تخلف عن غزوة بدر ، ودفع عنه هذا التعيير بما اعتذر به من اذن النبي له بالتخلف ومن حسبان سهمه في الغنيمة وهو غائب ، فمثل هذا الشعور الذي يشمل الواصل والموصول من الغزاة والمجاهدين لا يجعل الثروة الكبيرة مشكلة يضيق بها المجتمع بين أغنيائه وفقرائه ، اذ هي ودائع عند الأغنياء يحرصون على تفريقها ، ولا يحرصون على اكتنازها واستبقائها ، ثم هم لا حاجة لهم الا اكتنازها واستبقائها لأنهم كانوا يعافون الترف ، ويعرضون

---

(١) من الآية : ٧ من سورة الحشر . (٢) المعوزين المحتاجين . (٣) أي زيادة . (٤) أي من حضروا غزوة بدر .

عنه اعراضهم عن وصمات (١) الخلق التي لا تجمل بالرجل في دينه ولا في دنياه ، وكان أحدهم يشكو الحكة ، فلا يسمح لنفسه بلبس الحرير ، وهو قادر عليه الا أن يستأذن في ذلك رسول الله ، فيأذن له على سبيل الفتيا ، لا على سبيل التسلط من الرسول في لباس المسلم وطعامه ، فما كان هذا التسلط مما يفرضه الرسول لنفسه ، أو يفرضه المسلمون للرسول في غير ما يتولاه من التبليغ والتشريع ، وقد كان الزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف ممن أذن لهم الرسول بلبس قميص من الحرير في بعض الغزوات ضرورة لا ترفا ولا سرفا ، والمقام غير مقام الترف والسرف في شكة (٢) الجهاد ٠٠

وابتدأت الخلافة الأولى على عهد الصديق ومشكلة الثروات الكبيرة مكبوحة الجماح مملوكة الزمام ، ثم أحس الخليفة الأول بزمامها يضطرب في يديه بعد اتساع التجارة وامتداد الفتوح ، فاتخذ الحيطة لفتنتها واستبقى عنده كبار الصحابة ليجمع بين معونتهم له في الرأي والعمل ، وبين تجنيبهم الفتنة ومآزق (٣) الولاية ، وكان يتذمر (٤) من ترخص بعض الصحابة في أمور تؤذن بما بعدها ، فقال لعبد الرحمن بن عوف وهو على سرير الموت : « ما لقيت منكم أيها المهاجرون أشد من وجعي ، اني وليت أمركم خيركم في نفسي ، فكلكم ورم أنفه أن يكون له الأمر دونه ، ورأيتم الدنيا قد أقبلت ولما تقبل ، وهي مقبلة حتى تتخذوا ستور الحرير ونضائد (٥) الديباج (٦) وحتى يألم أحدكم بالاضطجاع على الصوف الأذربي — أي المنسوب الى أذربيجان — كما يألم أحدكم اذا نام على حسك السعدان » ٠

ثم قال يعظه ويحذره : « والذي نفسي بيده لأن يقدم أحدكم فتضرب عنقه خير له من أن يخوض غمرات الدنيا ، ثم أنتم غدا أول ضال بالناس يمينا وشمالا ٠ لا تضيعوهم عن الطريق ٠ يا هادي الطريق جرت ! » ٠

---

(١) الوصم : العيب والعار ٠ (٢) الشكة : الحلة ٠ (٣) جمع مأزق ، والمأزق : المضيق ٠ (٤) تذمر : لام نفسه على فائت ، أو تغضب ، وتذمر عليه : تنكر له وأوعده ٠ (٥) أي وسائد ٠ (٦) الدبج : النقش ، والمدبج : المزين بالنقش ٠

ولم يكن عمر بحاجة الى التحذير من عواقب انطلاق الصحابة في الأقطار ، بل ربما كان يحذرها حيث لم يحذرها صاحبه ، ولكن الصديق ـ رضوان الله عليه ـ لم ينس تحذيره في موقف الأمانة ، فقال له وهو يجود بنفسه : « واحذر هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذين انتفخت أجوافهم ، وطمحت أبصارهم ، وأحب كل امرىء منهم لنفسه وان منهم لحيرة عند زلة واحد منهم ، فاياك أن تكونه ، واعلم أنهم لن يزالوا منك خائفين ما خفت الله .. » .

كلمات لا تدري كيف تحيط بما فيها من فهم لكل شيء في ابانه (١) وقبل موقعه : فهم لطبائع الناس ، وفهم للخطر كيف يأتي ومن أين يبدأ ، زلة واحد تتبعها حيرة من الكثيرين ، وماذا يصد ذلك الخطر من الزلة ومن الحيرة ؟.. تصده القدوة بولي الأمر ، فلن يزالوا خائفين منه ما خاف الله .

وهكذا قد كان ..

على أن المشكلة ظلت في قبضة الزمام على عهد عمر ، بين قوة الخليفة وتورع الأجلاء من الصحابة ، وشواغل الجهاد والفتح قبل استفحال قضاياه ونقائضه ، وما برح الصحابة الكبار يتورعون من الشغلان بالثروة الى ما بعد أيامه ، فكان أقدرهم على التجارة وتثمير المال عبد الرحمن بن عوف يخجل أن يراه أحد منصرفا الى شؤون متاجره ومزارعه ، وحدث ابنه ابراهيم عنه فقال : « ان رجلا زار المدينة ليلقى أصحاب رسول الله ، فلقيهم جميعا الا عبد الرحمن بن عوف ، وسأل عنه فقيل له : انه في أرضه بالجرف (٢) ، فلما جاءه ألفاه (٣) واضعا رداءه وبيده مسحاة يحول بها الماء ، فاستحى عبد الرحمن ، وأخذ رداءه وألقى المسحاة » .

قال ابراهيم : « فسلم الرجل ثم قال : جئتك لأمر ثم رأيت أعجب منه .. هل جاءكم الا ما جاءنا وهل علمتم الا ما علمنا ؟.. قال عبد الرحمن : ما جاءنا الا ما جاءكم وما علمنا الا ما علمتم .

---

(١) ابانه : أي وقته . (٢) منطقة زراعية في ناحية من المدينة .
(٣) ألفاه : وجده .

فقال الرجل : فمالنا نزهد في الدنيا ، وترغبون فيها ، ونخف الى الجهاد ، وتتثاقلون عنه ، وأنتم خيارنا وسلفنا وأصحاب نبينا — صلى الله عليه وسلم — ؟ .. فعاد عبد الرحمن يقول : انه لم يأتنا الا ما جاءكم ولم نعلم الا ما قد علمتم ، ولكنا ابتلينا بالضراء فصبرنا ، وابتلينا بالسراء فلم نصبر » .

وقد دعا الأمر بعد قيام الفاروق بالخلافة الى مضاعفة الحيطة (١) في كل تدبير لجأ اليه الصديق على اتفاق مع صاحبه لاتقاء الفتنة ومصاحبة التغير الطارىء بالسياسة التي تلائمه ، وجعل يشتد في حيطته كلما تباعدت المسافة بين المجتمع الاسلامي في أوائل عهد الدعوة وبين هذا المجتمع بعد افتتاح العراق وأقاليم فارس الغربية والشام ومصر الى حدود افريقية الشمالية والسودان ..

فمن سياسته في ذلك :أنه ثابر (٢)على استبقاء كبار الصحابة الى جواره في المدينة ، وكان منهم من يسأله الخروج للغزو والجهاد فيثنيه(٣)عن ذلك ويلقي في روعه(٤)معذرته المشهورة : « ان له في غزوه مع رسول الله ما يكفيه ويبلغه .. وهو خير له من الغزو اليوم » ثم يقول له : « خير لك ألا ترى الدنيا ولا تراك » .

وانتهج في محاسبة الولاة خطة حاسمة لا هوادة (٥) فيها مع أحد ممن أحسن أو أساء ،فراقبهم جميعا أشد مراقبة واتخذ موسم الحج موعدا لمراجعتهم وسماع أخبار الرعية عنهم ، ومنهم من كان يعزله ويستدعيه اليه لغير جريرة (٦) يؤخذ بها الا أنه لا يريد — كما قال غير مرة — أن يحمل فضل عقله على الناس ، وأنه يخشى أن يفتتن الناس به ان لم يفتتن هو بالناس مع فتنة السلطان وفتنة النجاح ..

وحظر على المقاتلين أن يملكوا الأرض والعقار ، وكان له كما قلنا في عبقرية عمر . « نظام اقتصادي يوافق مصلحة الدولة في عهده ، فكان يحض (٧) على التجارة ، ويوصي القرشيين ألا

---

(١) أي الحذر . (٢) المثابرة على الامر المواظبة عليه . (٣) أي يرده ويمنعه . (٤) روعه : أي قلبه وعقله وخلده (٥) الهوادة : اللين . (٦) جريرة: ذنب أو جناية . (٧) أي يحث .

يغلبهم أحد عليها لأنها ثلث الملك ، ولكنه أبقى الأرض لابنائها في البلاد المفتوحة ، ونهى المسلمين أن يملكوها على أن يكون لكل منهم عطاؤه من بيت المال كعطاء الجند في الجيش القائم ، واذا أسلم أحد الذميين أخذت منه أرضه ووزعت بين أهل بلده وفرض له العطاء ، وكان غرضه من ذلك أن تبقى لأهل البلاد موارد ثرواتهم ، وأن يعتصم الجند الاسلامي من فتن النزاع على الأرض والعقار ، ومن فتن الدعة (١) والاشتغال بالثراء والحطام ، وربما أغضى عن كثير في سبيل الاعانة على تعمير البلاد بأهلها • فصفح عن أهل السواد ـ العراق ـ ليأمنوا البقاء فيه •• مع أنهم حنثوا بالعهد وعاونوا الفرس على المسلمين في أثناء القتال ، ويلوح من كلامه في أخريات أيامه أنه كان على نية النظر في تصحيح النظام الاقتصادي وعلاج مشكلة الفقر والغنى على نحو غير الذي وجدها عليه • فقال : « لو استقبلت من أمري ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء فقسمتها على الفقراء» ولم يرد في كلامه تفصيل لهذه النية • ولكن الذي نعلمه من آرائه في هذا الصدد كاف لاستخلاص ما كان ينويه • فعمر على حبه للمساواة بين الناس كان يفرق أبدا بين المساواة في الآداب النفسية والمساواة في السن الاجتماعية ، فكتب الى أبي موسى الأشعري : بلغني أنك تأذن للناس جما (٢) غفيرا ، فاذا جاءك كتابي هذا فأذن لأهل الشرف وأهل القرآن والتقوى والدين فاذا أخذوا مجالسهم فأذن للعامة •• ولكنه لما رأى الخدم وقوفا لا يأكلون مع سادتهم في مكة غضب وقال لسادتهم مؤنبا : ما لقوم يستأثرون على خدامهم ؟ ثم دعا بالخدام فأكلوا مع السادة في جفان (٣) واحدة ••

« فالمساواة في أدب النفس لم تكن عند عمر مما ينفي التفاضل بالدرجات ، ولم يكن يرضيه كذلك أن يعتمد الفقراء على الصدقات والعطايا ويعرضوا عن العمل واتخاذ المهنة ، فكان يقول لهم في خطبه : « يا معشر الفقراء ارفعوا رؤوسكم ! •• فقد

---

(١) أي خفض العيش • (٢) أي لا تفرق بين شريفهم ووضيعهم
(٣) جمع جفنة ، والجفنة : هي القصعة

وضح الطريق فاستبقوا الخيرات ولا تكونوا عيالا على المسلمين » • وكان يوصي الفقراء والأغنياء معا أن يتعلموا المهنة ، فانه يوشك أن يحتاج أحدهم الى مهنة وان كان من الأغنياء •• فيسوغ لنا أن نفهم من هذا جميعه معنى ما انتواه من أخذ فضول (١) الغني وتقسيمها في وجوه البر والصلاح •• على أن عمر يصح أن يسمى مؤسسا لديوان الوقف الخيري على الوجه الذي نعهده الآن • فقد أنشأ بيت الدقيق لاغاثة الفقراء الذين لا يجدون الطعام ، وأصاب (٢) قبل خلافته أرضا بخيبر ، فاستشار النبي ــ عليه السلام ــ فيها فاستحسن له أن يحبس أصلها ويتصدق بريعها ، فجعلها عمر لا تباع ولا توهب ولا تورث ، وينفق منها على الفقراء والغزاة وغيرهم ، «لا جناح على من وليها أن يأكل بالمعروف ويطعم صديقا فقيرا منها » ••

وكان عمر يستقصي عادات المسلمين في معيشتهم حيث تفرقوا من بقاع الدولة الاسلامية ، فسأل من عنده من أجلاء الصحابة : ان الناس قد دنوا من الريف فما ترون في حد الخمر؟ وكان ممن سألهم عبد الرحمن بن عوف فقال : نرى أن نجعله كأخف الحدود ، فجلد فيه ثمانين •

ثم انتهت خلافة عمر والمجتمع الاسلامي مجتمعان !•• أحدهما ماض ولما يمض بأجمعه ، والآخر مقبل ولما يقبل بأجمعه، وأوشك عمر على قوته أن يحار في تدبيره ، وقال الشعبي كما تقدم : أنه قضى وقد أوشكت قريش أن تمهله لشدته ووقوفه لها بحيث وقف حائلا بينها وبين نزعاتها ومطامحها في دنياها الجديدة ، بين ماض ينصرم ، وحاضر يتقلب ويكاد أن ينهزم ، ولكن الثقة به لم تضعف مع طوالع المجتمع الجديد بل زادته هذه الطوالع المتقلبة تمكينا على تمكين ، وجعلت من يخالفه يخجل من مخالفته ، لمكان تلك الثقة القوية ولاستطاعة النفوس أن تغالب محن (٣) الحوادث ولا تستسلم لغوايتها ، ولعلنا لا نجد لهذه المغالبة مثلا يبرزها كما يبرزها مثل عبد الرحمن بن

---

(١) أي ما يزيد عن الحاجة • (٢) أي تملكها • (٣) جمع محنة ، والمحنة : هي البلية •

عوف الذي بلغ غاية النجاح في المجتمع الجديد وكان قطبا من أعظم الأقطاب في مجتمع الدعوة والخلافة الأولى ، فانه شهد بدرا والمشاهد كلها ، وكتبت له حصة وافية من أنفال الغزوات وغنائمها ، وفاضت ثروته من التجارة والزراعة حتى فرقها مرة بعد مرة ، وعاش الى أيام عثمان وكان صاحب القول الفصل في اختياره للخلافة لأنه ارتضى أن يخلع نفسه منها ليكون له الرأي فيمن يختار من المرشحين لها ، فهو بحق مثل نادر للمغالبة النفسية بين ما استقبل واستدبر من حياته على عهد النبي ـ صلوات الله عليه ـ وعهد عمر وعهد عثمان ، وقد كان كما أخرجه البخاري يقول كلما رأى وفرة (١) المال عنده: «٠٠خشينا أن تكون حسناتنا قد عجلت لنا» ٠٠ وكان يصوم ثم يؤتى له بالطعام فيقول : « قتل مصعب بن عمير وهو خير مني ، فكفن في بردة ان غطي رأسه بدت رجلاه ، وان غطيت رجلاه بدا رأسه . وقتل حمزة وهو خير مني ، فلم يوجد له ما يكفن فيه الا برده ، ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط ٠ وقد خشينا أن تكون حسناتنا قد عجلت لنا» ٠٠

فهذه المغالبة لمحنة المجتمع الجديد ، وتلك الثقة بالفاروق . وتلك القوة فيه ، قد حفظت زمام الدولة في قبضة وليها ، ولم تذهب بالمخالفة له الى مدى أبعد مما سماه الشعبي بالملل وأحسن في وصفه ، فلو لم تكن هنالك ثقة مكينة لجاوز الأمر الملل الى السخط والتمرد ، وألفى هنالك من يتمرد ليمضي مع الماضي ومن يتمرد ليقبل مع المستقبل ، ولكنها حالة لم تدم طويلا بعد خلافة الفاروق ٠ اذ كان في الناس من يغضب باطلا ولا يخجل من غضبه بالباطل ، وكان منهم من يغضب حقا وليس هو على يقين من ولاة الأمر أحق منه وأجدر بالفضل والطاعة ، وكان منهم من يحار بين الفريقين ولا يدري كيف يهتدي في حيرته الى صواب ٠

---

(١) الوفرة : الكثرة ٠

الفصل الرابع

المبايعة

اذا لخصت سنة (١) الصديق أو سنة الفاروق في تولية العهد بعدهما، كانت خلاصتها : أنها ابراء للذمة أمام الله، درءا (٢) للخلاف، وحرصا على الوحدة الاسلامية ..

ولا بد من استحضار هذه الحقيقة لمنع كل شبهة، وتأويل كل قصد، ودفع كل فرية (٣) عند تعليل الطريقة التي اختارها كلاهما لتحقيق هذه البغية واختلفا فيها ظاهرا، ولا اختلاف بينهما باطنا فيما قصدا اليه .

فلا تدبير هناك ولا احتيال لغاية يرميان اليها غير تلك المصلحة أو تلك الوحدة . ومن ظن أن الصديق قد اختار عمر ليقصي عن الخلافة غيره، أو ظن أن عمر قد اختار جماعة الشورى ليرجح الكفة في جانب واحد منهم على سواه، فهو ينكر عليهما الاسلام، ولا ينكر عليهما حسن النية أو حسن التدبير وحسب، فان أحدا يؤمن بأنه محاسب على نيته وعمله اذ يودع الدنيا ويستقبل الآخرة، لن يحتال، ولن يدبر لهواه، وهو يعلم أنه يغضب الله بما يفعل، ولو كان لأحدهما هوى في أحد لاختار أبو بكر من بني تيم، واختار عمر من بني عدي أو بني الخطاب، وما كان ينبغي لهما الهوى وهما في سطوة (٤) الدنيا وجاه الولاية، فكيف ينبغي لهما وهما مقبلان على الموت مؤمنان بحساب لا شك فيه ؟

لم يكن هناك نظامان دستوريان كما وهم بعض المحدثين الذين أرادوا أن يعينوا بلغة الدساتير العصرية نظاما لتولية العهد في سابقة الصديق أو سابقة الفاروق، وانما هما نظام واحد يتبعه كلاهما في موضع صاحبه، فما نحسب أن أبا بكر كان مسميا أحدا بعينه لو كان في موضع عمر، وما نحسب أن عمر كان محجما (٥) عن التسمية لو كان في موضع أبي بكر، وليس البحث

---

(١) سنة : أي طريقة . (٢) درءا : أي دفعا . (٣) افترى الشيء اختلقه . (٤) سطوة : هنا بمعنى صولة . (٥) محجما : أي ناكصا .

عندهما ، أي أولياء العهد أفضل وأحب أليهما ؟ ولكنما البحث الذي يعنيهما ويشغلهما : أيهم أحب الى المسلمين وأقمن (١) أن يجمعهم على بيعة واحدة وكلمة متفقة ، ولا يعقل أن أحدا منهما كان يعلم في طويته أن ثمة (٢) وسيلة غير الوسيلة التي اختارها لتحقيق الوحدة المنشودة ثم يعدل عنها ، ليأثم في حق ربه وحق دينه وحق رسوله وحق المسلمين كافة ، تبرعا منه بالاثم حيث لا حاجة ولا مصلحة ولا فرصة بعدها للندم والتوبة ٠

حضرت الوفاة أبا بكر ، فسأل نفرا من نخبة الصحابة عمن يتولى أمور المسلمين بعده ، فذكروا عمر ، وأشار بعضهم الى شدته ، فقال لهم : انه كان يشتد لأنه يراني رقيقا ، فاذا وكل (٣) اليه الامر فلا خوف من شدته ٠ وروى محمد بن سعد : أن جماعة من الصحابة دخلوا عليه لما عزم على استخلاف عمر ، فقال له قائلون منهم : « ما أنت قائل لربك اذا سألك عن استخلافك عمر علينا وقد ترى غلظته ؟ » ٠ فقال أبو بكر : « اجلسوني » ٠ ثم جلس فقال : « ابالله تخوفونني ؟٠٠ خاب من تزود من امركم بظلم ، أقول : انني قد استخلفت عليهم خير أهلك ٠٠ أبلغوا عني ما قلت لكم من وراءكم » ٠٠

ثم اضطجع وجاء عثمان بن عفان فجعل يملي عليه : « اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ٠ هذا ما عهد أبو بكر في آخر عهده بالدنيا خارجا منها ، وعند اول عهده بالآخرة داخلا فيها ، حيث يؤمن الكافر ، ويوقن الفاجر ، ويصدق الكاذب ، اني استخلفت بعدي عمر بن الخطاب فاسمعوا وأطيعوا ، فاني لم آل الله ورسوله ودينه ونفسي واياكم خيرا ، فان عدل فذاك الظن به وعلمي فيه ، وان بدل فلكل امرىء ما اكتسب ، والخير أردت ولا علم لي بالغيب ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » ٠٠

وكان يملي وتدركه غشية(٤) فلما قال : « استخلفت بعدي » ولم يذكر اسما أتم عثمان وصيته باسم عمر بن الخطاب ٠ ثم

---

(١) أقمن : أي أجدر ٠ (٢) أي هناك ٠ (٣) وكل : أي أسند ٠ (٤) أي يغمى عليه ٠

أفاق أبو بكر فسأله : ماذا كتبت ؟ فأعاد عليه العبارة كما زادها، فدعا له وبارك عليه ، وقال له : « هكذا الظن بك ، لو كتبت اسمك لكنت لها أهلا » ·

والقوم في معرض المحاسبة لأنفسهم أمام الأمانة العظمى لا يصطنعون زخارف المجاملات التي يتلهى بها طلاب الظرف ورواد الاندية في زماننا هذا وقبل زماننا ، فما كان عمر ليتنحى عن الأمانة وقد اختير لها وهو يعلم أنه أقدر عليها ·· فانه محاسب على انكاره حقه كما يحاسب على انكار حق غيره اذا اجتمعت له صفة الولاية دونه · فكان يتولى الخلافة وهو يقول : « لو علمت ان أحدا أقوى على هذا الأمر مني ، لكان أن أقدم ، فتضرب عنقي ، أحب الي من أن آليه » ··

ثم حضرته الوفاة فلم يعهد في باديء الأمر لاحد ، ونقل اليه حديث الناس اذ يقولون : « انه غير مستخلف ، ولو كان له راعي ابل أو راعي غنم ثم ترك رعيته كان قد فرط في أمانته · فماذا يقول لله عز وجل اذا لقيه ولم يستخلف على عباده ؟ » فأصابته كآبة ثم نكس (١) رأسه طويلا ثم رفعها وقال : « ان الله تعالى حافظ الدين ، وأي ذلك افعل فقد سن لي · ان لم استخلف فان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لم يستخلف ، وان استخلف فقد استخلف أبو بكر » ··

وعاودوه في هذا الحديث فجعل يسأل كأنما يسأل نفسه : « من استخلف ؟ » · وروى عمر بن ميمون الأودي أنه قال بعد ذلك : لو كان أبو عبيدة حيا لاستخلفته وقلت لربي ان سألني : سمعت نبيك يقول : انه أمين هذه الأمة ، ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حيا استخلفته وقلت لربي ان سألني : سمعت نبيك يقول : ان سالما شديد الحب لله تعالى » ·· فقال له المغيرة بن شعبة : « أدلك عليه · عبد الله بن عمر » · فنهره (٢) قائلا : « قاتلك الله ! والله ما أردت الله بهذا · ويحك ! كيف استخلف رجلا عجز عن طلاق امرأته ؟ لا أرب (٣) لنا في أموركم ، فما حمدتها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتي · ان كان خيرا فقد أصبنا منه ،

(١) أي خفض · (٢) نهره : زجره · (٣) أي لا حاجة

وان كان شرا فقد صرف عنا . بحسب (١) آل الخطاب أن يحاسب منهم رجل واحد ، ويسأل عن أمر أمة محمد . أما لقد جهدت نفسي وحرمت أهلي ، فان نجوت كفافا لا وزر ولا آجر اني لسعيد .. » .

ثم قال : « انظر ، فان استخلف فقد استخلف من هو خير مني ، وان أترك فقد ترك من هو خير مني ، ولن يضيع الله دينه » ..

وراجع نفسه وروجع في الاستخلاف مرة بعد مرة فقال : « ما أردت ان اتحملها حيا وميتا . عليكم هؤلاء الرهط (٢) الذين قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ انهم من أهل الجنة ، وهم : علي ، وعثمان ، وعبد الرحمن ، وسعد ، والزبير ، وطلحة . فليختارا منهم رجلا ، فاذا ولوا منهم واليا فأحسنوا مؤازرته (٣) وآعينوه » .

ثم دعا بهم فحضروا الا طلحة كان غائبا ، فقال لهم : « اني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ، ولا يكون هذا الأمر الا فيكم ، وقد قبض رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو عنكم راض . واني لا أخاف الناس عليكم ان استقمتم ، ولكني أخافكم فيما بينكم فيختلف الناس » .

ووضع رأسه وقد نزفه الدم ، فتناجوا بينهم حتى ارتفعت أصواتهم ، وقال عبد الله بن عمر : « سبحان الله ! ان أمير المؤمنين لم يمت بعد ! » فسمعه فانتبه ، وقال : « اعرضوا عن هذا ، فاذا مت فتشاوروا ثلاثة أيام ، وليصل بالناس صهيب ، ولا يأت اليوم الرابع الا وعليكم أمير منكم ، ويحضر عبد الله بن عمر مشيرا ولا شيء له من الأمر ، وطلحة شريككم في الأمر ، فان قدم في الايام الثلاثة فأحضروه أمركم ، وان مضت الأيام الثلاثة فامضوا » ..

والتفت سائلا : « ومن لي بطلحة ! » قال سعد بن أبي وقاص: « أنا لك به ولا يخالف ان شاء الله تعالى » .

---

(١) بحسبهم : يكفيهم . (٢) أي الجماعة . (٣) أي مناصرته ومساندته .

وقال لأبي طلحة الأنصاري : « يا أبا طلحة ، ان الله طالما أعز بكم الاسلام ، فاختر خمسين رجلا من الانصار ، فاستحث هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلا منهم » ، وقال لصهيب : « صل بالناس ثلاثة أيام ، وادخل هؤلاء الرهط بيتا وقم على رؤوسهم ، فان اجتمع خمسة وأبى واحد فاشدخ (١) رأسه بالسيف ، وان اتفق أربعة وأبى اثنان فاضرب رؤوسهما ، وان رضي ثلاثة رجلا فحكموا عبد الله بن عمر ، فان لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقين ان رغبوا عما اجتمع فيه الناس » ..

على هذا الوجه أبرأ عمر ذمته من قضية الاستخلاف ..

وعلى هذا الوجه نرى عقل رجل من أولئك الرجال الأفذاذ يعمل في تفصيلات هذه القضية التي واجهته بجميع عقدها ومخاطرها لأول مرة في حياته ، وهو يفارق تلك الحياة : يقلبها على جميع الوجوه ، ويفرض لها جميع النتائج ، ويطرق أبوابها فيفتح منها ما ينبغي أن يفتح ، ويغلق منها ما ينبغي أن يغلق ، ويلاقي من جانب ما يخشاه من جانب ، ويختار الرجال ثم يختار الخطط على كل احتمال من احسان أو اساءة ، ومن وفاق أو شقاق ، ويفعل ذلك في غمرات الموت (٢) بين صرعات الألم من جراحه القاتلة ، ويعالج به أمرا لم يعالج من قبل على هذا المثال أو على مثال غيره ، وكأنما هو من خبراء الاختصاص في دساتير الحكم درسها وتلقى دروسها من أساتذتها الذين سبقوه الى تقريره وتدوين وقائعها ومواقعها ، وجلس ليوازن ويقابل ، ويطابق ويوافق ، ومن حوله الأعوان ، يلبون ما يطلب ، ويستدركون ما يفوت ، وينتهون في سعة من الوقت الى قرارهم وهم وادعون (٣) آمنون أن يصيبهم مكروه من مغبة (٤) ما قرروه .

ولو كان تفكيره لعذر يتكلم به ، أو لحجة يسكن اليها ، لقد كان حسبه أن يبرىء ذمته بالطمأنينة الى الدين في حراسة الله ،

---

(١) فاشدخ : أي اكسر . (٢) غمرات الموت : شدائده . (٣) الوديع والوادع : بمعنى الساكن . (٤) مغبة : عاقبة .

أو كان حسبه أن يبرىء ذمته بما جرى عليه الأمر في عهد رسول الله ، ولكنه لا يلتمس عذرا يقال وحسب ، أو حجة تقنع وكفى ، بل يسأل نفسه ويحاسبها على اختلاف الأمور بين عهد وعهد وتباين (١) الأعذار من حال الى حال ، فلا يدع من جوانب القضية شبهة يوردها من يحاسبه الا أوردها لنفسه ، كأنما هو حامل الميزان ..

فمن سأل عن معجزات العقائد في كواكب السماء ، أو أطواد (٢) الارض فهذه معجزة المعجزات التي تأتي بها العقيدة في نفس الانسان : تخرجه من جوف الصحراء دفوا لأعضل المعضلات بخلقه ، وكفؤا لها بعقله ، وكفؤا لها بعمله ، ونمطا من الشعور بالتبعات لا يجارى (٣) ، ونمطا من القدرة على النهوض بها يطول الزمن بأبناء الحضارات قبل أن يبلغوه وقبل أن يعرفوه ..

ومن آيات (٤) بعد النظر في سبر آغوار (٥) الرجال ،أنه جعل للترجيح بين أصحاب الشورى رجلين : هما عبد الله بن عمر ، وعبد الرحمن بن عوف ، فأما عبد الله بن عمر ، فهو الذي نحاه (٦) عن المشاركة في الخلافة ، وأعده للترجيح بين المختلفين ، وليس له من الأمر شيء ، وأما عبد الرحمن بن عوف فلم يلبث أن نحى نفسه ليقبل حكمه ، فكان بحق أصلح المتشاورين لترجيح احدى الكفتين ..

ومن آيات بعد النظر في الاختيار وسبر الأغوار أنه أقام أبا طلحة الأنصاري على راس خمسين ممن يختارهم لقمع (٧) الفتنة في مهدها اذا اختلف المتشاورون ، فكان أبو طلحة عند ظنه حزما وتقية . قال للقوم وقد تنازعوا الرأي : « لقد حسبتكم تتدافعونها ولا تتنافسونها » . ثم أقسم لا يمهلنهم لحظة بعد الأيام الثلاثة ، ثم هو صانع بهم ما أمر به أمير المؤمنين ..

---

(١) تباين : اختلاف . (٢) جمع طود ، والطود : الجبل . (٣) لا يجارى : لا يبارى ولا يضارع . (٤) أي دلائل . (٥) سبر أغوارهم : اختبار نفوسهم وطواياهم . (٦) نحاه : صرفه وأبعده . (٧) قمع الفتنة : قهرها واخمادها .

ومن آيات بعد النظر في الاختيار ، أن اختار صهيبا للصلاة بالناس ، فهو الامام الذي لا تخشى له دعوة من تقديمه للصلاة ، ولا يأبى الناس أن يأتموا به وقد أمهم قبل ذاك ..

ومن آيات بعد النظر في الاختيار وسبر الأغوار أنه اختار طلحة مع الستة وهو غائب عن المدينة .. أو ما كان في الخمسة المقيمين بالمدينة غنى وكفاية ؟.. أو ما كان لطلحة بديل من سائر الصحابة المقيمين ؟.. جواب ذلك عند التاريخ في نهاية عهد عثمان ، وعند التاريخ في بداية عهد علي ، وعند عمر قبل ذلك باثنتي عشرة سنة .

وآية الآيات دستوره في اختيار الستة دون سائر الصحابة من الأنصار والمهاجرين ..

أتراه اختارهم جزافا كما شاء ؟.. ذلك دستور لا يلزم الناس جميعا ولا حجة له عليهم فيه اذا سألوه عن فضل المختارين على غير المختارين ؟..

أتراه اختارهم من قبائل قريش ليكون كل منهم نائبا عن قبيل منها ، أو متكلما باسم بيت من بيوتات الرئاسة فيها ؟.. تلك هي العصبية يحييها في أسوأ أوان لاحيائها ، حيث تراد الوحدة والغيرة على العقيدة ، ولا تراد العصبيات الجاهلية ، أو لا يراد الاعتراف بها اذا تيقظت على غير ارادة .

أتراه اختارهم من البدريين وذوي السوابق في الجهاد ؟.. لقد كان من هؤلاء عند وفاة عمر نفر غير قليل ، لو جمعهم كلهم لكثروا ، ولو فاضل بينهم لما وضحت لهم أسباب المفاضلة ، ومنهم من هو ذو فضل وليس بذي رئاسة تتبع ، ومنهم من ذوي الفضل والرئاسة من لو اجتمعوا لاختل ميزان الترجيح وبطل معنى الاختيار ..

فلا بد من اختيار ، ولا بد من دستور يثاب (١) اليه في الاختيار ، وكان الدستور الذي ثاب اليه عمر حيث يعجل المرء عن الروية غاية في الروية والدقة في الموازنة بين جميع الوجوه : كان دستوره أن أصحاب الشورى هم الذين ذكروا بأسمائهم

(١) يثاب : أي يرجع

في خطبة النبي ـ عليه السلام ـ بعد حجة الوداع ، وهم الذين يتفق الناس على الاختيار منهم ، أصحاب الشورى وأن تكون لهم حجتهم عليه ..

وعمر يعلم أن طلحة كان يطمح (١) الى استخلافه بعد أبي بكر ، وكلاهما من عشيرة واحدة وهي قبيلة تيم ، فقال له أبو بكر : « اما والله لو وليتك لجعلت أنفك في قفاك (٢) ، ورفعت نفسك فوق قدرها حتى يكون الله هو الذي يضعها » ..

وما كانت تخفى على عمر فضيلة في واحد من الستة ولا نقيصة (٣) ، وما كان يغمط (٤) لهم فضلا ولا يغضي على نقص ، واولهم عبد الرحمن بن عوف الذي اقامه بينهم مقام الحكم الذي يرجح بين العدلين ، فقال له : ان ايمانه يرجح بنصف ايمان الامة ، وقال عنه لابن عمر : نعم المرء .. ذكرت رجلا صالحا الا أنه ضعيف ، وهذا الأمر لا يصلح له الا الشديد من غير عنف ، اللين من غير ضعف ، الجواد من غير سرف ، الممسك من غير بخل ..

ورأيه في الزبير انه مؤمن الرضا كافر الغضب ، وقد صارحه برأيه فيه فقال له : « لعلها لو أفضت (٥) اليك ظللت يومك تلاطم بالبطحاء على مد من شعير » ..

ورأيه في سعد أنه أهل لها .. فان تولوه فهو أهل ، والا فليستعن به الوالي ، فاني لم أعزله عن ضعف ولا خيانة ، وكان يقول : « اذا روى سعد حديثا فلا تسألوا عنه غيره لصدقه وأمانته » .

وكان يظن مع هذا أنه لا يليها « الا أحد هذين الرجلين : علي وعثمان . فان ولي عثمان فرجل فيه لين ، وان ولي علي ففيه دعابة (٦) وأحرى به أن يحملهم على الحق » .

وقال لعثمان : « كأني بك قد قلدتك قريش هذا الأمر لحبها اياك ، فحملت بني معيط على رقاب الناس ، وآثرتهم بالفيء »

---

(١) أي يتطلع . (٢) كناية عن التعالي والتكبر . (٣) نقيصة : عيب .
(٤) أي يجحد . (٥) أي آلت اليك . (٦) الدعابة : المزاح .

وقال لعلي مثل ذلك عن بني هاشم ولم يذكر الفيء ، واذا صح ما جاء في احدى الروايات (١) أنه قال لعثمان بعد مقالته الأولى: « فسارت اليك عصابة من ذؤبان العرب فذبحوك على فراشك ذبحا » فانها لمن نبوءاته التي جعلته من المحدثين (٢) ، أي من الذين يتحدث اليهم بلسان الغيب ، كما قال عنه النبي — عليه السلام — ٠

ولا خوف عليهم من الناس اذا اتفقوا كما قال لهم حين دعاهم للمشاورة وانتخاب واحد منهم للخلافة ، فليس أسلم عاقبة ولا أصدق حجة من اتفاقهم على اسناد الخلافة الى أحدهم ٠ فان اتفق أكثرهم فأبو طلحة مأمور بحسم الفتنة قبل أن تنجم (٣) والقضاء على المخالفة قبل أن يبرح (٤) مجلس الشورى ٠ فان لج (٥) الخلاف مع هذا وبعد هذا فلا حيلة فيه ٠٠

وقد روى الثقات حديث النبي — عليه السلام — حين عاد من حجة الوداع قبيل وفاته فقال : « أيها الناس ان أبا بكر لم يسؤني (٦) قط فاعرفوا له ذلك ، يا أيها الناس اني راض عن عمر وعلي وعثمان وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وسعد ابن مالك وعبد الرحمن بن عوف والمهاجرين الأولين ، فاعرفوا لهم ذلك » ٠٠

فحسب عمر أن يرتضي للمشاورة في أمر الخلافة من رضي النبي — عليه السلام — عنهم قبيل وفاته ، وحسبه مع هذا أن يكون هؤلاء النفر الكرام المرضي عنهم هم ملتقى الآراء بين خاصة المسلمين وعامتهم ، فلا يسمون خليفة الا كان واحدا من هؤلاء ، ولا يحاول أحد في ذلك العصر أو في عصرنا هذا أن يزيد عليهم علما من أعلام الاسلام يومئذ الا اعترضه مانع أو كان مستنده الى سبب غير جامع ، فقد كان العباس بن عبد المطلب حيا في ذلك الحين فلم يدخل في أصحاب الشورى ، وقال ابن جرير الطبري في تعليل ذلك : « انه — أي عمر — انما جعلها في أهل

---

(١) رواها الجاحظ وابن أبي الحديد مسندة الى ابن عباس ٠ (٢) المحدثين: الملهمين ٠ (٣) تنجم : تظهر ٠ (٤) يبرح : يترك ٠ (٥) لج : اشتد ٠ (٦) أي لم يفعل ما يسيئني ٠

السبق من البدريين والعباس لم يكن مهاجرا ولا سابقا ولا بدريا ٠٠ » ٠

ولكن الواقع أن العباس لم يذكر في خطبة الوداع ، ولم يكن من المرشحين للخلافة مع وجود علي ، وهو نفسه قد تقدم لمبايعة علي ، ثم أشار عليه الا يدخل في جماعة الشورى ، فليس في استثنائه تعسف (١) من عمر ، وانما التعسف أن يختاره لسبب ولا يختار معه كل من يشاركونه في هذا السبب ، وذلك هو الاستثناء الذي لا يغني شيئا ولا يطاع بسند شامل براء (٢) من التحكم والجزاف ٠٠

ولقد علمنا فيما علمناه وألممنا به آنفا من آراء المعقبين على خطة الصديق وخطة الفاروق ، أن بعضهم ود لو كان الفاروق قد نهج على منهاج سلفه في اختيار خلفه ، وأنهم عابوا عليه أن يكل الى الستة أن يتشاوروا في انتخاب واحد منهم ، لأنهم تولوا هذه المهمة فداخل كلا منهم الأمل في الخلافة والايمان بصلاحه لولايتها ، فانفتح بينهم باب التنافس وتطرقت اليهم نوازع الشقاق في هذا الباب ٠

ومعاوية بن أبي سفيان كان على رأس القائلين بهذا الرأي ، وهو نفسه حجة (٣) على نقيضه ، لأنه قد اشرأب (٤) الى الخلافة ، وتصدى للمبايعة بها وليس هو من الستة ولا من كان يطمع في اسنادها اليه بوصية من الفاروق لو اختار الفاروق أن يعهد بعهده لخليفة يسميه باسمه ، وقد نادى معاوية بولاية العهد لابنه يزيد ، وبويع عليها طوعا أو كرها ، فلم يحسم بذلك خلافا بين المسلمين عامة ، ولا بين بني أمية أو أبناء بيت أبي سفيان ٠

وما نحسب أن عمر كان يؤمن بترجيح واحد من الستة على الآخرين واجماع المسلمين على مثل رأيه فيه ، وأنه قادر على رد المخالفين له الى الاجماع ان كان من الناس من يخالفه قبل المبايعة ٠

---

(١) تعسف : ظلم ٠ (٢) أي بريء ٠ (٣) أي دليل ٠ (٤) أي تطلع اليها وتمناها ٠

وليس البحث في هذا المقام عن فضل العلم أو فضل البأس (١) والفروسية ، فربما قل الخلاف على صاحب الفضل فيهما بين أصحاب الشورى ورؤساء المهاجرين والأنصار كافة ، وانما البحث فيمن يجمع الناس الى حكمه وفضله ؛ وهو بحث لازم لا غنى عن المشاورة يومئذ فيه ، ولو إستغنى عنه أحد لاستغنى عنه عمر ، ولم يبال ان كان يحكم برأيه في ولاية العهد على يقين •

ولا ريب أنه حصر المرشحين بعده للخلافة ، فأحسن حصرهم ، ولم يدع واحدا منهم خارجا من زمرتهم (٢) ، فهم مرشحون لها عند أنفسهم وعند أنصارهم قبل أن يندبهم للمشاورة فيها ، فان صارت الى واحد منهم باتفاقهم ، كان هذا ألزم لهم ، وأوجب لتحرجهم من الخروج على ولي الأمر باختيارهم ، وكان أوجب لتحرجهم كذلك من الخروج على مشيئة عمر التي أملاها ورتب لها نتائجها •

كان ولي الأمر في ذلك المجتمع الوليد (٣) كفوًا لأمانة الخلافة الى النفس الأخير من أنفاس حياته المباركة ، فأوصى وصيته المحكمة التي نظر فيها نظرته الشاملة ، ولم يدع فيها بقية لنظرة ثانية ، ولكن الوصايا مهما يبلغ من أحكامها والزامها لا تنفذ بغير منفذين يقدرون على تنفيذها ، ويصدقون النية فيه ، فلو لم يكن أصحاب الشورى وقائد الجند وامام الصلاة في الأيام الثلاثة أهلا لأمانتهم ، لما أغناهم حزم الخليفة الراحل شيئا في تلك المهمة المعجلة التي يوشك أن يفسدها كل خطأ في القيام عليها ، وكل تأخير عن موعدها • وقد أدى الخليفة واجبه وبقي واجب المنفذين الذين ائتمنهم على الأمة بعد حياته ، فمن حقهم على التاريخ أن يسجل لهم أداءهم لواجبهم ، وتصريفهم لأمانتهم على أتم الوجوه الميسرة لهم في تلك المهمة المحرجة ••• وفي

---

(١) البأس : الشدة في الحرب • (٢) زمرتهم : جماعتهم • (٣) أي الحديث التكوين •

زمرتهم قبل غيرها بعض محرجاتها ، بل أعضل (١) محرجاتها ٠

تنافسوا بينهم ولا جرم ٠ أقل من منصب الخلافة في الدنيا والدين يتنافس عليه المتنافسون ، ومن المروءة أن يستشرف(٢) المرء الى مقام الفاضل ويأبى لدينه ودنياه مقام المفضول ، فان لم يكن تنافسهم على مكانة عالية فهو تنافس يربأون (٣) بـه عن مظنة التخلف والقصور ٠٠

ثم ألهم أحدهم أول حل للمشكل تتبعه لا محالة سائر الحلول: واحد ينزع نفسه منها باختياره وينوب عن سائرهم في التوفيق بين المختلفين ٠٠

سبقهم الى هذا الحل عبد الرحمن بن عوف ، ولم يسبقهم اليه نزولا بقدره عـن أقدارهم ، بل نـزولا به عن قـدر الصديق والفاروق ، فقد علـم أن الرضى عن خليفة بعـد هذين مطمع بعيد،ولم يشأ أن ينزل بنفسه منزلا لا يرتضى له ولا يرتضيه ٠٠

ولم يخطر له أن يخلع نفسه بادىء ذي بدء قبل أن يرى منهم من عساه يصنع مثل صنيعه ، فان كان منهم من يخلع نفسه على أن يختار غيره فقد ضاقت بينهم شقة الخلاف ، وان لم يكـن فلينظر بعد ذلك فيما يلي خطوته الأولى من خطوات ٠٠

قال : « أيكـم يخرج منهـا نفسه ويتقلدهـا على أن يوليها أفضلكم ؟ » فلم يجبه أحد ٠ فقال : « فأنا أنخلع منها » ، ثم تقدم الى الخطوة التالية فلم يخطئها ووصل منها الى حصر الخلافة في واحد من اثنين : علي وعثمان ٠٠

لقي كلا منهما فأراه أنه يعلم حجته ودعواه ، قـال لعلي : تقول يا أبا الحسن اني أحق من حضر بهذا الأمر لقرابتـك وسابقتك وحسن أثرك في الدين ولم تبعـد في نفسك ، ولكـن أرأيت لو صرف هذا الأمر عنك فلم تحضر ، من كنت ترى مـن هؤلاء الرهط أحق به ؟ » قال : « عثمان » ٠٠

ولقي عثمان فقال : « انك تقول : شيخ من بني عبد مناف وصهر رسول الله وابن عمه ولي سابقة وفضل فأين يصرف هذا

---

(١) أي أصعب ٠ (٢) استشرف الشيء : رفع بصره اليه ، وبسط كفه فوق حاجبه كالمستظل من الشمس ٠ (٣) أي يرتفعون ٠

الأمر عني ؟ •• لكن لو لم تحضر ، فأي هؤلاء الرهط تراه أحق ؟ » فقال : « علي » !

وتختلف الروايات فيمن اختاره الزبير وسعد ، ولكن الراجح منها انهما ذكرا عثمان بشرط ، ولم يقطعا برأي في ايثار (١) علي عليه ••

فلما انحصر الترجيح بين عثمان وعلي خرج يسأل من يلقاه من غير أصحاب الشورى فيذكر له بعضهم عثمان وبعضهم عليا ، ويزيد المختارون لعثمان على المختارين لعلي وهو أمر لا غرابة فيه مع المعهود من طبائع الناس ، وأنهم لا يجنحون(٢) الى العظمة النابغة (٣) جنوحهم الى الطيبة والسلامة ، ولا ينفسون (٤) على الشيوخ ما ينفسونه على الفتيان والكهول ••

كل أولئك وأبو طلحة الأنصاري رئيس الجند ينذرهم ويقسم لهم « بالذي ذهب بنفس عمر » لا يزيدنهم على الأيام الثلاثة ، ثم يجلس في بيته فينتظر ماذا يصنعون ، وينفذ الأمر فيمن خالف وأصر على الخلاف ••

ولئن كان عمر موفقا في اختيار كل لعمله ، لقد كان اختياره لأبي طلحة أوفق ما في هذا التوفيق • انه الرجل الذي آخى النبي — عليه السلام — بينه وبين أبي عبيدة الجراح أولى الناس في رأي عمر بالخلافة لو عاش ، وهو البطل الذي ثبت في وقعة أحد يوم انهزم أشجع الشجعان ، ولزم النبي في ذلك اليوم المشهود يقف بينه وبين السهام والسيوف ، ويتطاول بصدره ليدفع عنه ضربات المشركين الذين عرفوه وتعمدوه ليصيبوا الدعوة في مقتلها اذا أصابوه ، وشهد أبو طلحة وقعة حنين فبارز عشرين خصما وصرعهم ، وصاح صيحته التي كان — عليه السلام — يقول : « انها في الجيش خير من مائة رجل » •• ولم يكن يبالي الموت وهو في سعة من دنياه ، ولم يكن يعرف غير الجد فيما يعمل أو يقول ••

وقد أوفى بأمانته في أيام الشورى فلم يدعهم حتى فرغوا من عملهم في صبيحة اليوم الثالث ، وكان فيه فصل الخطاب •

في تلك الليلة أتى عبد الرحمن بن عوف منزل المسور بن

---

(١) أي تفضيل • (٢) لا يجنحون : لا يميلون • (٣) أي الظاهرة •
(٤) نفس عليه : حسده ، ونفس عليه الشيء : لم يره أهلا له •

مخرمة ، فأيقظه وأرسله يدعو الزبير وسعدا ، ثم بدأ بالزبير فقال له : « خل بني عبد مناف وهذا الأمر » قال الزبير : « نصيبي لعلي » ثم قال لسعد : « اجعل نصيبك لي فنحن كلالة (١) » — أي أبناء عم من بعيد — وكلاهما من بني زهرة • فقال سعد : « ان اخترت نفسك فنعم ، وان اخترت عثمان فعلي أحب الي » ثم قال : « أيها الرجل بايع نفسك وأرحنا وارفع رؤوسنا » فاعتذر عبد الرحمن لأنه خلع نفسه منها ، وأعاد عليه مقالته : انه لا يقوم مقام أبي بكر وعمر أحد بعدهما ويرضى الناس عنه ••

ثم كان علي وعثمان آخر من دعاهم في تلك الليلة : دعا عليا فناجاه (٢) طويلا ، ثم دعا عثمان فناجاه الى صلاة الصبح ، ويظن أنه سأل كلا منهما عما ينويه اذا ولي الخلافة ، وعن وصية عمر بعمال الولايات أن يتركوا في ولاياتهم عاما بعد وفاته ، ثم يصنع الخليفة ما بدا له من اقرار أو عزل على حسب أحوالهم وأحوال ولاياتهم ، وأنه سأل كلا منهما عن سياسته عامة وخاصة في شئون الأفياء(٣) والارزاق والأجناد والسرايا والمغازي وسائر ما يتولاه من أمور الخلافة ، ولا يقطع أحد بما دار بين عبد الرحمن وبين كل من علي وعثمان على حدة ، وأغلب الظن أن الذين ذكروا شيئا من هذا انما ذكروه مستنبطين ولم يذكروه نقلا عن عبد الرحمن أو عن علي وعثمان ••• قال عبد الله بن عمر : من أخبرك أنه يعلم ما كلم به عبد الرحمن بن عوف عليا وعثمان فقد قال بغير علم •

وحانت صلاة الصبح فصلوا في المسجد ، وجمع عبد الرحمن رهط (٤) الشورى وبعث الى من كان بالمدينة من أهل السابقة والفضل من الأنصار وأمراء الأجناد فاجتمعوا حتى التج (٥) المسجد بأهله ، وقام عبد الرحمن فقال : « أيها الناس ! •• ان أهل الأمصار قد أحبوا أن يلحقوا بأمصارهم وقد علموا من

---

(١) الكلالة : بنو العم الاباعد ، وقيل : الكلالة ، مصدر من تكلله النسب : أي تطرفه كأنه أخذ طرفيه من جهة الوالد والولد ، فليس له منهما أحد • (٢) أي أسر له في القول • (٣) جمع فيء ، والفيء : الخراج والغنيمة •
(٤) جماعة • (٥) أي امتلأ وازدحم •

أميرهم » • فصاح به سعيد بن زيد أحد ذوي السابقة الأولى في الجهاد : « انا نراك أهلا لها » • قال عبد الرحمن : « أشيروا علي بغير هذا » • قال عمار بن ياسر : « ان أردت ألا يختلف المسلمون فبايع عليا » وقال المقداد بن الأسود : « صدق عمار • ان بايعت عليا قلنا : سمعنا وأطعنا » • واذا بعبد الله بن أبي سرح يناديه : « بل تبايع عثمان فلا تختلف قريش » ويثني عبد الله بن أبي ربيعة فيقول: « صدق •• ان بايعت عثمان قلنا سمعنا وأطعنا» • فتنابز (١) عمار وابن أبي سرح ، واختلط القول بين بني هاشم وبني أمية ، فعاد عمار يقول : « أيها الناس ! •• ان الله عز وجل أكرمنا بنبيه وأعزنا بدينه فأني تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم ؟ » وبادره رجل من آل مخزوم شاتما : « لقد عدوت طورك (٢) يا ابن سمية ! •• وما أنت وتأمير قريش لأنفسها » ؟

وضاق سعد بن أبي وقاص صدرا بهذه المنابزة وهذا الصخب ، فصاح بعبد الرحمن : « يا عبد الرحمن افرغ قبل أن يفتتن الناس » •

ولا ندري هل تعمد عبد الرحمن هذا التمهل قبل اعلان البيعة ، أو أنه سكت حين اعترضه المعترضون باللجاج والمنابزة • فالغالب من تصرفه في أمر الشورى أنه كان يخطو الخطوة ثم يتبعها ما بعدها بحساب واناة (٣) ، وآخر ما كان من ذلك أنه أرجأ (٤) محادثة اللذين انحصرت فيهما الأقوال حتى كانا آخر من تحدث اليه ، وأنه لما دعاهما دعا عليا ثم ثنى بعثمان ••

فان كان قد تمهل في المسجد على عمد فقد أحسن الروية ، لأنه سكت حتى أيقن الحاضرون بما رأوه وما سمعوه أن الفتنة موشكة أن تكشر عن نابها ان لم ينته الناس من مبايعة خليفتهم تلك الساعة ! •• هذا يذكر اتفاق قريش ، وهذا يشترط ، وهذا يقابل شرطه بمثله ، وهذا يتكلم عن بني هاشم ، وهذا يتكلم عن بني أمية • فلما صاح سعد صيحته بعبد الرحمن :

---

(١) تنابزا : أي تلاقبا وتعايبا • (٢) عدوت طورك : تجاوزت حدك •
(٣) تمهل وروية • (٤) أخر •

أفرغ يا عبد الرحمن قبل أن يفتتن الناس ، كان صوته في تلك اللحظة كأنما هو صوت المسجد كله يتكلم بلسان واحد ٠

وأسرع عبد الرحمن فقال : « اني قد نظرت وشاورت فلا تجعلن أيها الرهط على أنفسكم سبيلا » ودعا عليا وقال : « عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده » ٠ فقال : « أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي مع اجتهاد رأيي » ودعا عثمان فقال له كذلك : « عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده » ٠ فقال : « نعم » ٠

فرفع عبد الرحمن رأسه الى سقف المسجد ويده في يد عثمان فقال : « اللهم اسمع واشهد ٠٠ اني قد جعلت ما في رقبتي من ذلك في رقبة عثمان » ثم بايعه بالخلافة ، وبايعه المهاجرون والأنصار ٠

وجاء في بعض أخبار ذلك اليوم : أن عبد الرحمن بن عوف لما بايعه ازدحم الناس عليه يبايعونه حتى غشوه (١) عند المنبر فقعد عبد الرحمن مقعد النبي ـ صلوات الله عليه ـ وأقعد عثمان على الدرجة الثانية فجعل الناس يبايعونه ، وأبطأ علي فقال عبد الرحمن : « ومن نكث (٢) فانما ينكث على نفسه ٠ ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما (٣) فرجع علي يشق الناس حتى بايع وهو يقول : « فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون (٤) » ٠٠

وقد بايع رهط الشورى عثمان في المسجد ما عدا طلحة فانه كان غائبا فقدم بعد ذلك وعلم بالبيعة فسأل : « أكل قريش راض به ؟ » ثم قال له عثمان حين ذهب اليه : « أنت على رأس أمرك ٠ ان أبيت رددتها » قال طلحة : « أتردها ؟ » قال : « نعم » ٠ فسأله : « أكل الناس بايعوك ؟ » قال : « نعم » قال : « قد رضيت ، لا أرغب عما قد اجتمعوا عليه » ٠٠

ولا نلتفت هنا الى زوائد الأقاويل عما خدع عليا وعمن

---

(١) غشوه : غطوه ٠ (٢) نكث العهد : نقضه ٠ (٣) من الآية : ١٠ من سورة الفتح ٠ (٤) من الآية : ١٨ من سورة يوسف ٠

خدعه . فان ما أجملناه هنا من شتى الروايات هو الأشبه والأمثل بهم أجمعين .

ولكننا نلم بطرف من تلك الأقاويل ، حيث يزعم بعض الرواة أن عليا بايع وهو يقول جهرة : « خدعة وأي خدعة » . وأنه يعني بذلك أن عمرو بن العاص خدعه فانخدع ، وأن ابن العاص لقيه في ليالي الشورى فألقى في روعه أن « عبد الرحمن بن عوف رجل مجتهد ، وانك ان أعطيته شرطه ، زهد فيك ... ولكن تقبل على الجهد والطاقة » . ويزعم أصحاب هذه القصة أيضا أن ابن العاص لقي عثمان فقال له : « ان عبد الرحمن رجل مجتهد ، وليس والله يبايعك الا بالعزيمة » أي وفاقا لشرطه فأقبل منه عزيمته يبايعك عليها .

فهذ القصة وما هو من قبيلها ضرب من ضروب المخترعات المألوفة ممن يحبون أن يسندوا كل شيء الى دهاء الدهاة وخديعة المخدوعين ، فما كان علي بالذي يعتقد أن عمرو بن العاص يتآمر معه على عبد الرحمن وعثمان . وما كان عثمان بالذي يتلقى سر عبد الرحمن من عمرو بن العاص وما تخطر هذه الخواطر الا على بال الذين يتعشقون بطولة الدهاء فيضعون عمرو بن العاص بحيث يعرف سر عبد الرحمن ويعرف الشرط الذي سيعرض به الخلافة على علي وعثمان ، ويجعل هذا يقول « نعم » ويجعل ذاك يقول « لا » كما يشاء ..

والأشبه والأمثل بهم جميعا أن يكون عبد الرحمن بن عوف وغيره يشترطون ذلك الشرط بعينه على من يقبل أمانة الخلافة في تلك الآونة ، وأن عليا وعثمان يقولان ما قالاه في جوابه ، ولا حاجة الى دهاء ولا ايحاء من النصحاء والوسطاء .

ان حكم الحال أصدق من حكم المقال في جميع الأخبار ، وهو كذلك على التخصيص في أخبار هذه المبايعة ، ان لم يكن في رواية الأقوال والحوادث ففي رواية الشعور الذي كان يخامر (١) الصدور ويتجمع فيها منذ زمن بعيد : شعور بحال لا تدوم ، وخوف من تغيير وتبديل ، واجتهاد في منع التغيير والتبديل أو في اجتناب الضرر منهما جهد (٢) المستطاع ..

---

(١) يخامر : يخالط . (٢) أي قدر

ومن الأحاديث التي رويت عن النبي ـ صلوات الله عليه أن الخلافة ثلاثون سنة ثم هي بعد ذلك ملك عضوض (١) .

ومن كلام أبي بكر في معارض شتى : أن الدنيا موشكة ان تعير من النفوس ما لا يحمد تغييره . ومن كلام عمر وعمله في أيامه جميعا ما ينم على حذر دهذا أو أشد من خطر الدنيا على نفوس الاقطاب الكبار فضلا عن الدهماء(٢)وسواد(٣) الدنيا..

وكانت لهذا الشعور أحيان (٤) يشتد فيها ويغلب على الناس عامة حتى دانه بديهة حاضرة لا تحتاج إلى تفكير ، ومن هذه الاحيان فترات التوجس (٥) والترقب بين عهد وعهد منذ أيام النبي ـ عليه السلام ـ : بين وفاة النبي وقيام ابي بكر ، وبين وفاة ابي بكر وقيام عمر ، وبين وفاة عمر خاصه وقيام عثمان..

ولما حدثت فتنة الردة في أوائل عهد أبي بكر دهش الناس ولم يدهشوا ، دهشوا لأنهم فوجئوا ، ولم يدهشوا لأنهم ـ وقد وقع الذي وقع ـ لم يستغربوه ، ولم يستكثروا حدوثه بعد صدمه كتلك الصدمة الهائلة ، وبعد غياب صاحب الدعوة ومتعهدها وصاحب المنزلة التي لا تدانيها فيهم منزلة ثم أصبح التوجس والترقب ديدنا (٦) فهم في كل فترة من قبيلها . فتساءلوا بعد موت أبي بكر : ماذا عسى ان يكون بعد ذهاب هذا الخليفة الرفيق الرقيق ؟ ولعله تساؤل لم يعنتهم (٧) كثيرا ولم يطل بهم أجله غير قليل . اذ كان أبو بكر لا يبرم أمرا (٨) بغير مشورة عمر ، وكانت سياسة الشيخين سياسة واحدة تلين معهما تارة وتشتد تارة أخرى . فلما أشفق الناس بعد وفاة أبي بكر لم يشفقوا من تبديل سنة مرعية أو خروج على جادة متبعة . ولكنهم أشفقوا من شدة فيها وصرامة في حمل الناس عليها ، ثم ذهب عمر بغتة والناس يستعظمون الخطوب ، ويلمسون بوادر التغير من بعيد ومن قريب ، فعادوا الى ديدنهم في أمثال هذه الفترة .

---

(١) عضوض : أي يعض عليه . (٢) أي جماعة الناس . (٣) سواد الناس : عوامهم . (٤) جمع حين : أوقات . (٥) التوجس : التخوف .
(٦) ديدنا : أي عادة وطبيعة . (٧) أي يشق عليهم . (٨) أبرم الامر : أحكمه .

وخيل اليهم أن كل أمر جائز وكل خطر متوقع خلال هذه النقلة بما علموه الى ما يجهلونه ويوجسون منه ويترقبونه ..

وفي كل كلمة بدرت . وكل وصاة قيلت في هذه الفترة ، اعراب مقصود أو غير مقصود عن هذا الشعور الغالب الذي بلغ أقصاه يومذاك : شعور بحالة يخشى ألا تدوم ، وخوف من تغير لا يدري كيف يتقى ..

عمر يوصي ببقاء الولاة عاما ، ويتوقع الفواجع (١) من الأثرة والايثار ، ويريد « من يحمل الأمة على الحق » ومن يشتد في غير عنف ويلين في غير ضعف .. وعبد الرحمن يعلم أنه لا رضى عن أحد بعد الصديق والفاروق ، ولا طمأنينة للناس الا أن يطمئنوا الى سيرة كالسيرة الأولى ، وهم لا يعلمون من أين يأتي التبدل والانحراف .

ان تقرير هذه الحالة النفسية أهم من احصاء مئات الحوادث والأقوال التي انحدرت الينا من تلك الفترة ، لان الحوادث والاقوال لا تفهم بغير فهم تلك الحالة النفسية ، ولعل تلك الحالة في كثير من الأحيان هي مبعث الحوادث وأقوال القائلين فيها ، فما كان احد يعيب سياسة عثمان مخلصا او غير مخلص الا كان الحذر من تبديل السنن ونقض السوابق حجة له يسوقها في خطابه للخليفة أو خطابه للخاصة والعامة من رعيته ، وأصبح حضور هذا الحذر في الأذهان من دواعي المبالغة في تعظيم المخالفات وخلقها من غير شيء على نية حسنة عند بعضهم وعلى نية سيئة عند الآكثرين ، لانها كانت نغمة العصر التي تفتح الآذان ، وتتأهب الاذان لاستماعها في كل مكان .

وأهم من ذلك أن عثمان على رأس المسلمين قد ساوره (٢) ذلك الشعور وداخلته تلك الحالة النفسية وجثمت في سريرته حتى تمكن منه التسليم والاستسلام لما هو كائن لا محالة ، فكان يقول لمحدثيه كما يقول في خطبه : ان ما تبتلى به هذه الأمة قدر واقع لا يدفع ، وان فتنة الدنيا طغت على النفوس طغيانها الذي

---

(١) الفواجع : المصائب .

(٢) ساوره : أخذ برأسه .

لا تجدي (١) فيه الحيلة أو المحاولة . وذلك كله مما نلمسه في استسلامه آخر أيامه ، وتركه المحاولة ، أو عدوله عنها بعد المضي فيها ، ونلمسه كذلك في شكه واسترابته (٢) في صدق العاملين وتعويله (٣) من أجل ذلك على أقربائه وخاصة ذويه عسى أن يصدقوه في رعاية السنن والمواثيق ..

وتظهر تلك الحالة النفسية من خطبه الأولى كما تظهر من خطبه الأخيرة ، فلما بايعه أصحاب الشورى خرج فيهم وهو أشدهم كآبة (٤) حتى أتى منبر رسول الله ، وقام يخطب الناس فارتج (٥) عليه . وجاء في كلام من روى خبر الارتجاج عليه أنه قال يومئذ : « أيها الناس .. ان اول مركب صعب ، وان بعد اليوم أياما ، وأن أعش تأتكم الخطبة على وجهها (٦) ، وما كنا خطباء وسيعلمنا الله .. » .

مقام أدل من المقال ، يدل على كثير .

وأول ما يدل عليه أنه لا تدبير ثمة ولا تحضير ، فلو كان عثمان على علم باختياره للخلافة لما أعياه أن يعد لهذا المقام كفايته من المقال البليغ ، ولكنها قد جاءته وهو لا يستبعد أن تفوته ، ولا يزال يخشى في ذات نفسه أمام الله أن يتعجلها بالتحضير والتدبير ، وأن يطوي في سره منها ما لم يكن له أن يبديه في العلانية .

ثم خطب فاتفقت الأقوال أو كادت على نصوص خطبه الأولى ، وكان مدارها على فتنة الدنيا ، والوعد باتباع السنن ، واجتناب البدع ، وتهدئة النفوس من قبل ما تخافه ، ولا تخاف خطرا أكبر من خطره ..

قال في خطبته الأولى : « انكم في دار قلعة (٧) ، وفي بقية أعمار ، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه ، فلقد أتيتم ،

---

(١) أي لا تفيد ولا تنفع . (٢) أي تشككه من الريب . (٣) تعويله عليهم : أي اعتماده عليهم . (٤) الكآبة : الغم ، وسوء الحال ، والانكسار من حزن . (٥) أي تلعثم ولم يقدر على اجادة الكلام . (٦) وجهها : أي سبيلها المقصود . (٧) قلعة : غير ثابتة لا تدوم لاحد .

صبحتم أو مسيتم • الا وان الدنيا طويت على الغرور ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور • اعتبروا بمن مضى ، ثم جدوا ولا تغفلوه فانه لا يغفل عنكم ، أين أبناء الدنيا واخوانها الذين أثاروها وعمروها ومتعوا بها طويلا ، ألم تلفظهم ؟ • ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها •• » •

وقال في أوائل خطبه : « ••• اني قد حملت وقد قبلت ، ألا واني متبع ولست بمبتدع • ألا وان لكم علي بعد كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثلاثا : اتباع من كان قبلي فيما اجتمعتم عليه وسننتم ، وسن سنة أهل الخير فيما لم تسنوا عن ملأ ، والكف عنكم الا فيما استوجبتم • ألا وان الدنيا خضرة قد شهيت الى الناس ومال اليها كثير منهم ، فلا تركنوا (١) الى الدنيا ولا تثقوا بها فانها ليست بثقة ، واعلموا انها غير تاركة الا من تركها •• » •

ان اقرب الاخبار الى الصدق ما تهم بأن تنفيه فيحمي صدقه بآية من دواعيه قبل النفس وقبل الواقع ، وكل ما كان خليقا أن يحدث عند مبايعة الخليفة الثالث قد حدث على وجهه الذي يطابق الواقع والمتوقع ، وفي هذه الخطبة مطابقة لما يتطلبه الموقف من المعدات والعهود ، وفيها زيادة وعد « بالكف عن الناس الا فيما استوجبوه » •• ولعلها الزيادة التي أتت في أوانها بعد ما تململ (٢) منه القوم من صلابة عمر ومنعه اياهم أن ينساحوا في الدنيا خوفا عليهم منها وخوفا منهم عليها •

أما المكائد التي أبدعتها أوهام المتوهمين فقد يبطلها قبل كل شيء أنها ليست بمكائد تعمل عملا ينفع من يكيدها •

ومن هذه المكائد ما يخيل الينا أن مخترعيها وضعوا حين وضعوها « قصة مسرحية » يعطون كل بطل من أبطالها دوره في الكلام ودوره في الدخول والانصراف ، ومنها ما يخيل الينا أن أصحاب الشورى كانوا عصبة محضرة مستعدة على مصارحة بينها لحرمان هذا واجتباء (٣) ذاك ، واحدى هذه الخيالات خيالة

---

(١) تركنوا : أي تطمئنوا • (٢) تململ : تقلب • (٣) اجتباء : اختيار •

المستشرقين الذين توهموا أن أصحاب الشورى خصوا عثمان باختيارهم لأنه شيخ يدلف (١) الى منيته (٢) فكلهم يطمع فيها بعد موته • افحدث حقا انهم خصوه وعرفوا يقينا فبل أن يبايعه عبد الرحمن من سيكون مختاره ومجتباه ؟

وفي مكيدة أخرى من هذه المكائد التي « يمسرحها » المخترعون لها ان اختيار عثمان قرر الملك لبني أمية على نية مبيتة (٣) ، فهل هي مسرحية يكتبها التاريخ نسخه بعد نسخة ، ويريد هنا غير ما يريده هناك ؟ ••

ولماذا تطمع القبائل ان تتداول الخلافة بعد خليفة من بني أمية ، وهم أقدر على احتجانهـا (٤) ، وأرغب في الاستئثار بها بعد مالها اليهم في صدر الاسلام ؟ ••

كل هاتيك حيل مسرحية توضع لها أدوارها وأعمالها حسب منهاج التأليف ،وأولاها بالشك فيه ما لاح عليه الآحكام والتوفيق بين الادوار والأعمال ، وأولاها بالقبول ما ليس وراءه تحضير ينتظم كما ينتظم التحضير في المسرحيات : شيء يـراد وشيء لا يراد ، ويعالجه فيستطيعه تارة ويعيي به تارة أخـرى فينقلب على غير ما تعمده وانتحاه •

وعلى هذا النحو المطبوع آلت الخلافة الى عثمان •

• ❋ •

(١) يدلف الشيخ : يمشي مشي المقيد وفوق الدبيب • (٢) المنيـة : الموت • (٣) أي مسبقة • (٤) يقال : حجن فلان فلانا : أي صده ، وصرفه ، وجذبه بالمحجن •

بين هذه النذر قامت أصعب خلافة تولاها خليفة قط في صدر الاسلام ، وقد كانت ثورة المرتدين في أول خلافة الصديق محنة شديدة نهض لها المسلمون جميعا متساندين متآزرين ، فابتلي عثمان في أول خلافته بما يشبه تلك الثورة ويزيد عليه : الخلاف في الداخل ، والتغير في الدواعي النفسية ، وهو أخطر المصاعب جميعا في خلافة عثمان ·

كانت هيبة عمر تملأ الجزيرة العربية وما حولها . وكان أصحاب الدولتين الكبيرتين من الروم والفرس أهيب له من رعيته في الجزيرة ، لأن هذه الرعية تعتصم من هيبته بحق يعرفه لها وتعرفه لنفسها،ولم تكن للروم والفرس عصمة من هيبة الا بالحذر والدسيسة ، ورستم بطل الفرس المشهور الذي كاد أن يصبح من أبطال الأساطير هو القائل عن عمر : « أحرق كبدي عمر · انه يكلم الكلاب فتفهم عنه ! » · يعني أنه جعل من عرب البادية الذين ازدراهم (١) الفرس أبطالا كالأسود بفضل ما يسدى اليهم ويستمعون اليه من نصيحته والاقتداء بسيرته · وقد خطر للمؤرخين في صدر الاسلام أن الهرمزان كان من المتآمرين مع أبي لؤلؤة على قتل عمر ، وهو خاطر قريب الى الذهن ولو لم يعتمد فيه المؤرخون على غير القرائن التي شهد بها يومئذ شهود الفاجعة (٢) قبل وقوعها ، ولكننا نحسب أن المؤامرة أكبر جدا من ظواهرها التي تحصرها في أبي لؤلؤة والهرمزان ، وأن تدبيرها في معسكرات فارس وبلاط يزدجرد وحاشيته أقرب الى الخاطر ، وأدنى الى المنظور في مجمل الأحوال ·

فما هو الا أن ذاع (٣) في ساحات المشرق والمغرب مقتل عمر ، حتى تلاحقت الثورات والفتن كأنما كانت على موعد ، وتمرد

(١) ازدراهم احتقرهم · (٢) الفاجعة : ما تؤلم الناس بالدواهي ·
(٣) أي انتشر ·

من قبائل الفرس والترك والروم من كان قد أذعن (١) وتعاقد مع قادة الحرب على الصلح والطاعة،ونقضت دولة الروم صلحها فأغارت على الاسكندرية برا وبحرا وأرسلت أساطيلها الى شواطىء فلسطين ، وأطلقت في الميادين خفية من يبث فيها الوعد والوعيد ويغري المطيع بالعصيان،وأحصى المؤرخون البيزنطيون عدة السفن والجيوش التي اشتركت في حركات الثورة والانتقاض ، فقال بعضهم : انها جاوزت خمسمائة سفينة ومائة ألف مقاتل ، وسرعان ما تسايرت الأنباء بهذه الزحوف بين الخزر والأرمن ومن وراءهم من الشعوب الآسيوية ، فهبوا يتعللون بالذرائع (٢) لنقض الصلح ، أو ينقضونه بغير ذريعة وينتهزون الفرصة التي علموا أنها لا سنح مرة أخرى اذا استكانوا (٣) للطاعة والمسالمة ..

لقد كانت محنة كمحنة الردة أو اكبر منها في اتساع ميادينها وتباعد أطرافها ..

وكان عثمان كفؤا لها بالعزم والرأي والسرعة في تصريف الأمور وتسيير النجدات واسناد كل عمل الى من يحسنه ويسد فيه أحسن سداد ..

ولقد درج العاذرون واللائمون في تاريخ عثمان على التسليم بضعفه كأنه حالة لا تفارقه في جميع أعماله ، أو كأنه حالة لم تفارقه قط في عمل مما تولاه ..

فالذين آمنوا منه بحسن القصد ، كانت معذرتهم له بالضعف واللين أسبق معاذيرهم الى ألسنتهم حيث يوفقون بين خطئه وحسن قصده ، والذين أفرطوا في اللوم جعلوا من ذلك الضعف خطلا (٤) في الرأي قد يغطي على حسن النية لو افترضوه وسلموه . وهؤلاء وهؤلاء يستغربون أن يقال : انه كان كفؤا لتلك المحنة بعزيمته وأصالة رأيه ، ويخيل اليهم أن كلمة « الضعف » تلغي كل قوة وتبطل كل عزيمة ، أو ينسون أن الضعفاء لا يتساورون،وأن الضعف لا يلازمهم في كل ما يعملون، وأن الضعف كالمرض تتفاوت فيه مناعة (٥) الأبدان ومناعة

---

(١) أذعن : خضع . (٢) الذرائع : أي الاسباب . (٣) استكانوا : خضعوا واستسلموا . (٤) خطلا : أي فسادا . (٥) مناعة : أي حصانة .

النفوس ، فقد يعدي القوي الركين والى جانبه النحيل الهزيل لا تسري (١) اليه عدواه ، وقد يكون القوي في حالات أضعف من الضعيف في حالات ، وهذا مع التسليم بضعف عثمان على العلات، وهو قول لا يقبل على اطلاقه ، اذ لا نرى من علامات ضعفه الا ما يظهر فيه الضعف بالنسبة الى موقف من المواقف قد يحار فيه الأقوياء كما يعيي (٢) به الضعفاء .

فلا تنس أن عثمان قد ولي اعمالا ناجحة في الجاهلية والاسلام ، وان من هذه الأعمال قوافل تترحل في الصيف والشتاء ، وتوافق مطالب اليمن في الجنوب والشام في الشمال ، وأنه استطاع أن يصرف هذه القوافل ويواتم تلك المطالب وهو مقيم في مكة او المدينة ، وأنه تعود أن يستشار فيما يحضره ويغيب عنه ، وأنه تعود كذلك أن يعرف مشورة غيره في مثل عمله ، وأن يعرف أخبار من تقدمه ومن عاصره من نظرائه ، وأنه بعد الاسلام قد لازم ولاة الأمر في السياسة والحرب من عهد النبي ـ عليه السلام ـ الى عهد الفاروق ، وشاركهم في كثير ، وسمع أوامرهم وحضر مشاوراتهم في كثير ..

فلا تكونن كلمة الضعف حاضرة في الذهن كلما حضرته حادثة من حوادث سيرته أو آية من آيات عزمه وتدبيره ، وليكن للضعف محله فلا يشغل كل محل في معارض هذا التاريخ العجاب.

انعلاج عثمان لمشكلات الدولة « الخارجية » التي فاجأته بعد ولايته قد كان كأحسن علاج يتولاه خليفة في تلك الآونة(٣): عزم وسداد وسرعة، مع الحيطة والأناة والرفق في سياسة الأولياء والخصوم .

ولا شك أن الخليفة كان معانا على عمله ، ولم يكن منفردا بعبئه في تلك المحنة الجائحة: كان معانا عليه بحمية الجند وكفاية القادة ، وكانت حمية الدين التي حفزت دعاة الاسلام من نصر الى نصر ومن عزمة الى عزمة ، وصحبتهم من بدر الى القادسية وتبوك وبابليون ، صامدة على سمتها كأقوى وأقوم ما كانت في

---

(١) أي لا تنتقل . (٢) أعياه الامر : أجهده وأتعبه . (٣) الآونة : أي الفترة .

يوم من أيامها ، بل لعلها في حروب الفرس والروم كانت أقوى وأقوم من حروبها في الجزيرة العربية • اذ كانت أنفة العربي أن ينهزم أمام المتعجرفين(١)عليه من الأعاجم كفيلة أن تنفث(٢) في قلبه الغضبة القويـة التي لا تثيرهـا حرب العربـي للعربي والشبيه بالشبيه •

كان حبيب بن مسلمة الفهري يقاتل الروم في ميادين سورية وفلسطين ، فاستعان بمدد من الجزيرة فوصل اليـه ، واستعان بمدد من الكوفة فأبطأ عنه ، فلما أقبلت الروم قبل وصول المدد وهم لا يتوقعون القتال مع قلة الجند في معسكر العرب أتاهـم حبيب من حيث لم يتوقعوا وبيتهم بليل(٣) •فانتصر وانهزموا••

وان الدهشة من هذه الجرأة لتغمرها حتى لتكاد تمحوهـا دهشة أخرى من دهشاتها التي لا عداد لها في كل وقعة من وقعاتها: كانت أم عبد الله امرأة حبيب معه وهو ينوي الهجمة بليل قبل أن يسفر نور الصبح ويأتي المدد المرتقب ، فسألته : أين الموعد؟ قال : سرادق « الموريان » أو الجنة فوجدها عند السرادق قـد سبقته اليه •

وقبل هذا أعين الصديق والفاروق بحمية الأجناد وكفايـة القواد، ولكن أعباء الجهاد في أوائل أيام عثمان كانت أشق وأكبر وأحوج الى التوجيه الناجز ، والتصريف الذي لا يغني الاجمال فيه عـن التفصيل ، على حسب الأطوار المتجـددة والطوارىء المتقلبة ، لامتداد خطوط القتال وتعدد الفتن وتباعد المسافات بين البلدان وتكاثر العناصر والأجناس في جيوش المسلمـين ، فقام الخليفة الشيخ بأعبائه الجسام على أحسن ما يقام بهـا في تلك المحنة الجائحة ، وكان له ولا شك أكبر الفضـل في تثبيت مهابة الدولة الجديدة بعد ما أصابها من الوهن والتخلخل عند مقتل عمر ، فوقر في اخلاد الأمم المحيطة بها انهم ينازلون قوما

---

(١) العجرفة : جفوة في الكلام ، وخرق في العمل ، والاقدام في هوج ، وهو يتعجرف : أي يتكبر ، ويتعجرف عليهم : يركبهم بما يكرهونه ولا يهاب شيئا • (٢) النفث : شبيه بالنفخ ودون التفل • (٣) بيت الامر : دبره ليلا ، وبيت العدو : أوقع بهم ليلا

لا يقدح في قوتهم موت خليفة أو تبديل قائد ، وانهم منتصرون مستميتون في سبيل النصر على اختلاف القادة والرؤساء ، فقتل بعد هذه التجربة عثمان ، ثم قتل علي ، ثم مات معاوية ثم مات يزيد وتخلى معاوية الثاني عن الملك وانقسم المسلمون على أنفسهم ولم تقم للثورة عليهم قائمة في بلاد الروم أو بلاد الفرس الا ما كان من شغب متفرق على غير وجهة ، يعرو (١) الدول داخلها ومن خارجها بلا انقطاع ولا يخاف منه على دعائمها وأركانها •

ولم يقنع عثمان بتسكين الثورات حيث يكفي فيها التسكين ، أو قمعها حيث تحتاج الى القمع (٢) في بلاد الطغاة والمتجبرين ، فصالح من صالح وحارب من حارب ، ثم أمر قواده بمجاوزة البلاد التي نشبت فيها الثورات الى ما وراءها منعا لارتداد الهاربين اليها وانبعاث الفتن والدسائس من قبلها ، فتقدمت جنوده شرقا الى حدود الهند والصين ، وشمالا الى ما وراء بحر الخزر ، وغربا الى أبواب القسطنطينية وتخوم الأندلس ،وجنوبا الى السودان وجوانب الحبشة ، ولم يؤخذ عليه قط وناء (٣) في انفاذ نجدة أو تسيير مدد أو تدارك خطر في أوانه من أقصى تلك البقاع الى أقصاها •

وعرضت له مسألة عسيرة من المسائل التي استطاع الفاروق ارجاءها (٤) ولم يكن ثمة بد من عودتها في أوانها :

عرضت له غزوة قبرس ورودس وجزر بحر الروم ، واعداد العدة لدفع الغارات البحرية عن شواطيء مصر والشام والقيروان، فكانت بحق مسألة — بل مشكلة — من المشكلات التي لم تستحكم قبل أيامه ولم تتطلب الحل السريع من ولي لأمر المسلمين في الجزيرة العربية ، أو في البقاع التي انتهت اليها الفتوح •

وكان من سياسة عمر ألا يجعل بينه وبين جيش من المجاهدين بحرا ولا جسرا ولا قنطرة ، وأن يجنبهم ركوب البحر ما استطاع،

---

(١) اعتراه : غشيه • (٢) القمع : القهر • (٣) وناء : ضعف ، وفتور وكلال ، واعياء • (٤) أي تأجيلها •

وكان معاوية يلح عليه في غزو الروم بحرا ويهون عليه خطب هذه الغزوات ولا يفتأ يحضه على ذلك ويقول فيما قاله حضا عليه : « ان قرية من قرى حمص ليسمع أهلها نباح كلابهم وصياح دجاجهم » يعني جزيرة أرواد ..

فكتب عمر الى عمرو بن العاص يسأله أن يصف له البحر وراكبه ويقول له : « ان نفسي تنازعني اليه » .

فكتب اليه : « اني رأيت خلقا كبيرا يركبه خلق صغير ، ليس الا السماء والماء. ان ركد (١) خرق القلوب وان تحرك أزاغ (٢) العقول ، يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة ، وهم فيه دود على عود ، ان مال غرق وان نجا برق (٣) .. » الى آخر ما هول به عليه ، فأقسم عمر لا يحملن عليه مسلما أبدا ، ورضي من ملك الروم بترك القتال ، ثم زاد ملك الروم فكاتبه وقاربه وبادله الهداية ، وأرسل مع البريد هدية من الملكة الى السيدة أم كلثوم زوجة عمر تحتوي فيما احتوته عقدا فاخرا يقوم بأضعاف أضعاف هدية الطيب التي أرسلتها اليها أم كلثوم ، فباع عمر العقد وأودعه خزانة بيت المال ، وكتب الى معاوية يحذره من القتال ، وينذره أن يصيبه منه ما أصاب العلاء الحضرمي اذا هو أقدم عليه بغير اذنه .

أما قصة العلاء هذه فقد كان لها أثرها الذي لم ينسه عمر ، ولم يزل عالقا بذهنه يعاوده كلما عاودوه بذكر البحر وغزواته، وخلاصتها : أن العلاء الحضرمي والي البحرين كانت بينه وبين سعد بن أبي وقاص منافسة في الجهاد ، فبرز (٤) اسم العلاء في حروب الردة ، ثم غلبه سعد فضلا وهمة في وقعة القادسية « وأزاح الأكاسرة عن الدار وأخذ حدود ما يلي السواد » .. قال ابن الأثير : « فأراد العلاء أن يصنع في الفرس شيئا .. وقد كان عمر نهاه عن الغزو في البحر ، فعبرت الجنود من البحرين الى فارس ، فخرجوا الى اصطخر وبازائهم أهل فارس ، وعليهم

---

(١) ركد : أي سكن . (٢) أزاغ : أي أمال . (٣) من معاني برق : تحير حتى لا يطرف ، أو دهش فلم يبصر . (٤) أي ظهر .

الهربذ ، فحالت الفرس بين المسلمين وبين سفنهم .. واقتتلوا قتالا شديدا بمكان يدعى طاوس . وقتل من أهل فارس مقتلة عظيمة ، ثم خرج المسلمون يريدون البصرة ولم يجدوا الى الرجوع في البحر سبيلا ، وأخذت الفرس منهم طرقهم فعسكروا وامتنعو .. » .

قال ابن الأثير الذي نلخص منه قصة هذه الغزوة : « لما بلغ عمر صنيع العلاء أرسل اليه عتبة بن غزوان يأمره بانفاذ جند كثيف الى المسلمين بفارس قبل أن يهلكوا ... وأمر العلاء بأثقل الأشياء عليه وهو تأميرّ سعد عليه ، فشخص العلاء الى سعد بمن معه » ولم يكن أشد على نفسه من هذا العقاب الأليم ، وما كان ليطيعه لولا ايمانه وتقواه وأنه استحقه بمخالفته من لا ينجو من عقابه مخالف كائنا من كان ..

وبقيت عبرة هذه الغزوة لا تنسى ولا تغيب عن فكر عثمان بعد عمر ، وأوشكت مصائبها جميعا أن تعزى (١) الى البحر والى كل ماء من بحار فارس والروم ، ثم عادت المسألة ـ أو المشكلة ـ الى عثمان فوجب أن يفصل فيها برأيه وهو على ذكر من سياسة عمر وسياسة أبي بكر من قبله : لا يحملن أحدا من المسلمين على ركوب البحر ، أو على ركوب الغرر (٢) في قتال ..

ونظرة عثمان في هذه المشكلة من أدل أعماله على نصيبه من الاجتهاد ومن الاقتداء ، ومن أدل الأمور على اقدامه حيث يحجم من هم أشهر منه بالاقدام ..

ان المشكلة هنا قد تغيرت ، ولم يبق بينها وبين مجازفة العلاء الحضرمي غير شبه قليل ..

تغير من ركوب البحر أنه أصبح اليوم ضرورة لا محيد (٣) عنها ، بعد اذ كان مجازفة لا حاجة اليها ..

فقد أصبحت قبرس ورودس وجزر الشاطىء القريب ملتقى تتربص (٤) فيه الأساطيل المتجمعة من أقطار دولة الروم،وأصبح

---

(١) تعزى : أي تنسب . (٢) الغرر : الخطر . (٣) لا محيد : لا عدول .
(٤) تتربص : تنتظر

امتناع السفن المغيرة بها خطرا على الشام وفلسطين ومصر والقيروان ، لا يؤمن على غرة (١) ، ولا على استعداد وآهبة (٢) ثم كان ما كان من اختيار المسلمين ركوب البحار اضطرارا وتجربتهم للسفن كبارها وصغارها ، فذللوا المركب العصي الذي طالما تجنبوه ، وتغيرت المشكلة ولم يبق بينها وبين مجازفة البحرين غير شبه قليل ..

وعلى هذا الشبه القليل بين الأمس واليوم لم تزل شبهة التغرير بالناس قائمة لا تدفع اذا خيف الضرر ، ووقع الخطر ، وقيل : ان ولاة الأمر لم يحذروا ما كان حذرهم منه عمر ،وأوجب الحذر منه على أتباعه وتابعيه .

وعسير أن يمنع غزو البحر ، وعسير مثله أن يباح ، فخرج عثمان من العسرين خير مخرج ، وكتب الى معاوية يأذن له ويشترط عليه : « ألا ينتخب الناس ولا يقترع بينهم ، وأن يخيرهم ، فمن اختار الغزو طائعا حمله وأعانه .. » .

وعلى هذا الشرط غزا عبد الله بن قيس الجاسي قائد الأسطول خمسين غزاة « بين شاتية وصائفة (٣) في البر والبحر لم يغرق أحد ولم ينكب (٤) ... » .

واتفقوا مع أهل الجزر على شروط تحميهم الغرة وتبيحهم أن ينزلوا بها ليمنعوا نزول العدو بأرضها واحتماء الأساطيل المغيرة بمرافئها (٥) ، ورتبوا الحملة عليها من مصر والشام تأمينا للطريق من شرقها وغربها وجنوبها ، فأمنوا البحر وأمنوه لمن يسلكونه من المسلمين والمسالمين . ولو أنهم تركوا البحر وشأنه لاستعصى عليهم بعد ذلك أن يدفعوا غارة الروم من قبل البحر كما دفعوها ، وأن يسيطروا على سبل الملاحة خلال سنوات معدودات كما سيطروا عليها ..

---

(١) غرة : خدعة . (٢) أهبة : عدة . (٣) شاتية وصائفة : أي في فصلي الشتاء والصيف . (٤) نكب : عدل . (٥) جمع مرفأ : وهو مكان من الشاطيء ترسو فيه السفن .

وكانت هذه الهمة من عثمان في علاج الأخطار الخارجية حلا نافعا في شئون الدولة الداخلية الى حين ، لأن مدافعة الأخطار من الخارج شغلت الناس زمنا عن شواغل السلم والدعة التي تفرقهم وتفرغ أوقاتهم للنقاش والجدال فيما يعنيهم أو لا يعنيهم ، ولكن مواقع الجهاد اختلفت واختلف عدد المجاهدين فيها ونصيب كل مجاهد من غنائمها وأنفالها ومن رواتبها وأعطيتها ..

وبدأ ذلك في عهد عمر ، كما تبدأ مشكلات الميادين التي لا تستقر على قرار ، بين الكر والفر ، والاقامة والترحال ، وتعاقب الأمراء والقادة في ميادين القتال ، فمما حدث في عهد عمر من ذلك : أن أهل البصرة شكوا عجز خراجهم على كثرتهم ، وأن أناسا يشاركونهم فيه ممن أقاموا معهم بعد تمام الفتح ، فاختصم أهل البصرة وأهل الكوفة « وادعى أهل البصرة قرى افتتحها أبو موسى دون اصبهان ، أيام أمد به عمر بن الخطاب أهل الكوفة ، فقال لهم أهل الكوفة : أتيتمونا مددا وقد افتتحنا البلاد ، فأنشبناكم في المغانم ، والذمة ذمتنا ، والأرض أرضنا . قال عمر : صدقوا . فقال أهل الأيام والقادسية ممن سكن البصرة : فلتعطونا نصيبنا مما نحن شركاؤهم فيه من سوادهم وحواشيهم . فأعطاهم عمر مائة دينار برضا أهل الكوفة ، أخذها من شهد الأيام والقادسية .. » .

وقد عزل عمر والي الكوفة عمار بن ياسر واستعمل عليها أبا موسى ، وكان أهل الكوفة يشكون عمارا ويقولون لعمر : أنه لا يدري علام استعملته ، فسألهم : ومن تريدون ؟.. قالوا : نريد أبا موسى ، فولاه عليهم . فأقام عليهم سنة ، ثم باع غلامه العلف فشكوه فعزله وصرفه الى البصرة ..

ولبث عمر مهموما مغموما بأمر هذه الشكايات ، حتى اضطجع يوما بجانب المسجد وهو يفكر فيها ، واستيقظ وهو مكروب بادي (١) الأسى ، فقال له المغيرة بن شعبة : ما فعلت هذا يا أمير المؤمنين الا من عظيم ، فقال : وأي شيء أعظم من مائة ألف لا يرضون عن أمير ، ولا يرضى عنهم أمير ؟.. وأتاه

---

(١) أي ظاهر الحزن

أصحابه وهو بتلك الحال من الغم والأسى فسألوه : ما شأنك ؟٠٠ فقال : ان أهل الكوفة قد عضلوني (١) ٠ واستشارهم فيمن يوليه ، فأشاروا عليه بتولية المغيرة ، فولاه وأقام واليا عليها أكثر من سنتين الى مقتل عمر ، وكان من رأي المغيرة الذي استمع اليه عمر : أن الوالي القوي المسدد أصلح من الضعيف التقي « أما الضعيف المسلم فان اسلامه لنفسه وضعفه عليك وعلى المسلمين ، وأما القوي المسدد فان سداده وقوته لك وللمسلمين »٠

ولم ينحسم هذا الخلاف في عهد عمر ولا في عهد عثمان ولا في عهد علي الى أيام الدولة الأموية ، فكان معاوية يأخذ لجند قنسرين بنصيب من فتوح العراق وأذربيجان والموصل والباب ، وهكذا كان يحدث في الميادين عامة بين من ظفروا فيها ثم تحولوا عنها الى غيرها ، وبين من أقاموا فيها ولم يشهدوا فتوحها ، ولا ظلم ولا غبن في التقسيم والتقدير ، وانما هي جرائر (٢) السعة واشتباك النظم والولايات وكثرة الأمداد التي تنتقل من ميدان الى ميدان ومن ولاية الى ولاية ٠ ولنا أن نقول : انها جرائر الاختلاف من نظام الخلافة الى نظام الملك ، والدولة التي تواجهها كل يوم قضية من قضايا المعيشة مقرونة بقضايا الجهاد ، أو قضية بين حالة عاجلة وحالة باقية على مدى الأيام ، ولا ينفصل فيها نظام المعيشة ، ونظام الجهاد كل الانفصال ٠٠

وليس بالنادر بين هذه القلاقل أن يخف الجيش لنجدة جيش آخر فلا يصل الى المكان المحصور أو المهدد الا بعد الاستغناء عن نجدته ، وليس بالنادر أن تتنافس الجيوش بالقادة والسمعة والسابقة فينفس (٣) بعضها على بعض أن ينحاز لقيادته وأن يكون أميره تابعا لأمير آخر لم يعرفه قبل ذلك ٠٠

ومما اتفق من ذلك أيام عثمان ، أن حبيب بن مسلمة الذي سبقت الاشارة اليه كتب الى عثمان يسأله المدد ، فكتب عثمان الى

---

(١) عضل عليه : ضيق ، وعضل به الامر : اشتد ٠ (٢) جمع جريرة ، والجريرة : الذنب والجناية ٠ (٣) نفس به : ضن ، وعليه تجير : حسد ، ونفس عليه كذا : لم يره أهلا له ٠

معاوية في الشام يأمره أن يشخص اليه من أهل الشام والجزيرة قوما ممن يرغب في الجهاد ، وكتب الى سعيد بن العاص في الكوفة يأمره بأن يمد حبيبا بجيش عليه سلمان بن ربيعة الباهلي ، فسار سلمان في ستة آلاف من أهل الكوفة ولم يصل الى حبيب الا بعد فراغ حبيب من حملته الظافرة على الموريان ·

ولقد كان كلاهما ـ حبيب وسلمان ـ من أشجع القواد وأخبرهم بفنون القتال ، وكان كل منهما « غزاء » (١) معروف السابقة في ساحات الجزيرة والشام ، فلما أراد سلمان أن يلي امارة الجيشين أبى عليه حبيب ذلك ، ودخل جند القائدين في المنافسة ، وقال أهل الشام لنضر بن سلمان ان أبى الا الرئاسة علينا · فأجابهم أوس بن مغراء من جند سلمان بشعر يقول فيه :

فان تضربوا سلمان نضرب حبيبكم · وان ترحلوا نحو ابن عفان فارحلوا (٢)
وان تقسطوا فالثغر ثغر أميرنا وهذا أمير في الكتائب مقبل
ونحن ولاة الثغر كنا حماته ليالي نرمي كل ثغر وننكل

ولكن القائدين كانا أحكم وأكرم من أن تفسد عليهما هذه المنافسة عملا حاضرا بين أيديهما ، فافترقا على أن يوغل حبيب في غرب أرمينية وأن يوغل سلمان في شرقها ، وأن يتلاقيا الى الشمال بعد فتح المواقع بينهما ، فدان لهما ما بين البحر الأسود وبحر الخزر ، وصرفا بأسهما الى العدو ضنا بقوة الجيشين أن تتفرق في المنافسة على الادارة والسمعة ، ولكنها منافسة كانت تحتدم في أيام السلم وبين سكان المدن فلا تنتهي بغير خصومة ولا تنتهي الخصومة فيها بغير شر وعناد ·

ومن مقابلة النقيض بالنقيض أن نستطرد من قصة حبيب وسلمان الى قصة الوليد بن عقبة وسعيد بن العاص اللذين تعاقبا

---

(١) أي شارك في الكثير من الغزوات · (٢) الشعر في تاريخ الطبري (ط· المعارف) ٣٠٧/٤ وابن الاثير ٥٥/٣ وفيهما : « وان ترحلوا نحو ابن عفان نرحل » ·

على ولاية الكوفة في عهد عثمان ، وقد أجمع المؤرخون على فداحة الخطر الذي نجم من هذه القصة على امامة عثمان بين أهل الكوفة ثم بين سائر الأمصار ٠

كان الوليد بن عقبة والي الكوفة قد اتهم بشرب الخمر ، فعزله عثمان وأمر باشخاصه اليه وأسند الولاية بعده الى سعيد ابن العاص ، فغضب نفر من بني أمية على سعيد لأنه غسل منبر المسجد قبل أن يخطب عليه ، وعدوا ذلك تشهيرا بالوالي المعزول، وتربصوا (١) به الدوائر (٢) يكيدون له بين رعيته ويغرون به من يلغط (٣) في مجلسه ٠

ونحن نقتبس من جملة المؤرخين ، كالطبري وابن الأثير وغيرهما ، زبدة هذه القصة التي كان لها كل ذلك الخطر من بدء الفتنة الى مقتل عثمان ٠٠

وزبدة هذه القصة من مراجعها المتواترة : أن سعيدا اختار وجوه الناس وأهل القادسية وقراء أهل الكوفة ، فكان هؤلاء دخلته داخلا (٤) ، وأما اذا خرج فكل الناس يدخل عليه ٠

وسأل عن أهل الكوفة فأطلعوه على حالهم ، فكتب الى عثمان بما انتهى اليه كما أمره ، وقال له فيما قال : « ان أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم وغلب أهل الشرف منهم ، والغالب على تلك البلاد روادف (٥) ردفت ، وأعراب لحقت ، حتى ما ينظر الى ذي شرف ولا بلاء من نازلتها (٦) ولا نابتتها (٧) » ٠

فأتاه الجواب من عثمان أن يفضل أهل السابقة والقدمة ممن فتح الله عليه تلك البلاد ، وليكن من نزلها بسببهم تبعا لهم ، الا أن يكون أهل السابقة قد تثاقلوا عن الحق وتركوا القيام به وقام به هؤلاء ، وليحفظ لكل منزلته ويعطيهم جميعا بقسطهم على سنة العدل والمعرفة بأقدار الناس ٠

---

(١) ربص بفلان وتربص : انتظر به خيرا أو شرا يحل به ، والمراد هنا : الشر ٠ (٢) أي الهزائم ٠ (٣) اللغط : الصوت والجلبة ٠ (٤) أي يدخلون عليه داخل بيته غير مقيدين بمكان الاستقبال ٠

(٥) أي توابع ٠ (٦) أي من نزل بها ٠ (٧) نابتتها : من أهلها الاصليين٠

وأرسل سعيد الى وجوه القوم فقال لهم : « أنتم وجوه من وراءكم ، والوجه ينبيء عن الجسد ، فابلغونا حاجة ذي الحاجة وخلة (١) ذي الخلة ، ثم أدخل معهم من يحتمل من اللواحق والروادف وخلص بالقراء والمتسمتين في سمره ، فانقطع الذين لا سابقة لهم ولا قدمة بعضهم الى بعض ، وجعلوا يقعون فيه وفي عثمان ، وكلما لحق بهم لاحق من ناشيء أو أعرابي أو مولى طليق أعجبه كلامهم حتى غلب الشر وفشت القالة ، فكتب سعيد بذلك كله الى عثمان على ما تعوده الولاة من ابلاغ كل كبيرة أو صغيرة الى الخليفة منذ أيام الصديق ، فنادى منادي الخليفة الى صلاة جامعة وخطبهم وتلا عليهم ما جاءه من سعيد وذكر لهم أنه يريد أن يبعث الى العراق بمن شاء النقلة اليه من أهل السابقة ، ويأذن له في أن يبيع ما يملك بالحجاز عسى أن يستعين بهم سعيد على نصيحة الشاغبين من الروادف والأتباع ٠٠

على أن سعيدا لم ينقطع عن لقاء العامة اذا جلس للناس ، فحدث في بعض هذه المجالس : أن فتى غرا (٢) أثنى على طلحه ابن عبيد الله فقال : ما أجود طلحة !٠٠ قال سعيد : ان من كان له مثل بساتينه لحقيق أن يكون جوادا ٠٠ والله لو أن لي مثلها لأعاشكم الله بها عيشا رغدا (٣) ٠٠ فقال عبد الرحمن بن قيس، وهو فتى حدث : والله لوددت أن لك ما كان لكسرى على نهر الفرات ، فانتهره أناس من الحاضرين وصاحوا به : أتتمنى له سوادنا ! وهاج الشر بينهم وبين أهل الفتى ، وسمع قومه من بني أسد بما أصابه فجاءوا وأحاطوا بالقصر ، وعاذت القبائل بسعيد فأقسم لا يغشى مجلسه أحد من أولئك الشاغبين « فقعد أولئك النفر في بيوتهم وأقبلوا يقعون في عثمان » ٠٠

ونما خبر هذا الشغب الى عثمان ، فأذن لسعيد في اخراجهم الى الشام ، وكتب الى معاوية : « أن نفرا قد خلقوا للفتنة فأقم عليهم وانههم فان آنست منهم رشدا فاقبلهم وان أعيوك فارددهم علي »

---

(١) من معاني الخلة : الفقر والحاجة ٠ (٢) أي صغيرا غير مجرب ٠ (٣) رغدا : واسعا طيبا ٠

فلما قدموا على معاوية أنزلهم كنيسة مريم ، وأجرى عليهم ما كان لهم بالعراق · وكـان يتغدى ويتعشى معهم ويحادثهم ويستخبرهم عن شكاتهم عسى أن يقنعهم ، فقال لهم في بعض هذه الأحاديث : بلغني أنكم نقمتم قريشا ، ولو لم تكن قريش كنتم أذلة · ان أئمتكم لكم جنة (١) فلا تفترقوا عن جنتكم ، وان أئمتكم يصبرون لكم على الجور ويحتملون منكم المؤونة · والله لتنتهن أو ليبتلينكم الله بمن يسومكم السوء ولا يحمدكم على الصبر ، ثم تكونون شركاءهم فيما جررتم (٢) على الرعية في حياتكم وبعد وفاتكم ··

قال رجل منهم ــ وهو صعصعة ــ : أما ما ذكرت من قريش فانها لم تكن أكثر العرب ولا أمنعها في الجاهلية فتخوفنا ، وأما ما ذكرت من الجنة فان الجنة اذا اخترقت خلصت الينا ·

قال معاوية : عرفتكم الآن · وعلمت أن الذي أغراكم على هذا قلة العقول · ثم قال لصعصعة : أنت خطيبهم ولا أرى لك عقلا ·· أعظم عليك أمر الاسلام وأذكرك به وتذكرني الجاهلية ··

وطالت اللجاجة بينه وبينهم فأجمع رأيه على اخراجهم بعد الكتابة الى الخليفة ، وكتب اليه يصفهم ويقول عنهم :

« ·· قدم علي أقوام ليست لهم عقول ولا أديان ، أضجرهم العدل لا يريدون الله بشيء ، ولا يتكلمون بحجة ، انما همهم الفتنة وأموال أهل الذمة ، والله مبتليهم ومختبرهم ثم فاضحهم ومخزيهم ، وليسوا بالذين ينكون (٣) أحدا الا مع غيرهم ، فانه سعيدا ومن عنده عنهم ، فانهم ليسوا لأكثر من شغب ونكير » ·

وخرجوا قبل أن يخرجهم معاوية من الشام فقصدوا الى الجزيرة ولم يعودوا الى الكوفة اتقاء الشماتة بهم ، وسمع بهم والي حمص عبد الرحمن بن خالد بن الوليد فاستدعاهم منذرا متوعدا وقال لهم :

---

(١) جنة : وقاية · (٢) جررتم : أي جنيتم ·
(٣) نكى العدو وفيه نكاية : قتل وجرح ·

ـ يا آلة الشيطان • لا مرحبا بكم ولا أهلا •• خسر والله عبد الرحمن ان لم يؤدبكم • يا معشر من لا أدري أعرب هم أم عجم • لا تقولوا لي ما بلغني أنكم قلتم لمعاوية • أنا ابن خالد • أنا ابن من قد عجمته العاجمات • أنا ابن فاقىء الردة • والله يا صعصعة •• لأطيرن بك طيرة بعيدة المهوى ••

ثم أقامهم شهرا كلما ركب مشاهم معه ، وخافوه فاستقالوه وأعلنوا له توبتهم ، وسرح أحدهم ـ وهو الأشتر ـ الى عثمان فخيره عثمان أن يحل حيث شاء ، فاختار العودة الى ولاية عبد الرحمن •

وجرى في البصرة ما كان يجري في الكوفة من أشباه هؤلاء الروادف ، وكان في بعض قرى الولاية قاطع طريق يسمى حكيم ابن جبلة العبدي يصاحب الجيش ثم يخنس (١) عنه ويغير على أهل الذمة ، فشكاه أهل الذمة ورؤساء المسلمين الى عثمان ، فكتب الى ابن عامر والي البصرة أن يحبسه ومن كان مثله فلا يخرجن من البصرة « حتى تأنسوا منهم رشدا » فحبسه وتعقب خبره ، فجاءه النبأ ذات يوم أن رجلا يدعى ابن السوداء نزل عليه وأخذ يصرح له ولأمثاله بالطعن في عثمان وخلافته ، فدعا بابن السوداء هذا فاذا هو عبد الله بن سبأ ، يهودي من أهل اليمن يقول برجعة النبي الى الدنيا ويظهر التشيع لعلي • فسأله ابن عامر : من أنت ؟ قال : رجل من أهل الكتاب رغبت في الاسلام وفي جوارك • ثم أخرجه من البصرة لما علم من لياذه (٢) بالمفسدين فيها ، فذهب الى الكوفة يلوذ فيها بأمثال حكيم بن جبلة فأخرج منها ، وذهب الى مصر فجعل يكاتب من تركهم في البصرة والكوفة ، وأوى بمصر الى حمران بن ابان وهو رجل موتور (٣) من عثمان ، كان قد تزوج امرأة في عدتها ففرق عثمان بينهما وضربه وسيره الى البصرة ، فسعى هناك في وقيعة بين الوالي ورجل من النساك (٤) ، وافتضح كذبه عليه ، فأخرج من البصرة ، وذهب

---

(١) يخنس : يتأخر • (٢) لاذ به : التجأ اليه • (٣) يقال أوتره : أدركه بمكروه • (٤) جمع ناسك ، والناسك : العابد •

يتردد بين الشام والحجاز ومصر ، فلقيه فيها ابن السوداء وأوى اليه وأدخله معه في مكاتباته وسعاياته ، وكثرت السعاية بين أهل الامصار من الروادف واشباههم ، فمن نزل منهم بالشام ارضاه معاوية أو أخرجه ، ومن تحول عنها كاتب غيره للاجتماع في مكان لا رقابة عليهم فيه ٠

وحدث أن الكوفة خلت من واليها سعيد بن العاص وخلفه عمرو بن حريث ، فاذا بجموع المكاتبين تلتقي فيها ، واذا بأناس منهم يشيعون في الناس آن سعيدا عائد اليهم ، وأنه ذهب الى الخليفة يريده على نقصان رزق نسائهم الى مائة درهم ، ورد اولي البلاء من المجاهدين الى الفي درهم ، ويزعم ان الفيء من العراق بستان قريش وانها تأخذ منه ما تأخذ وتدع ما تدع ٠ وطفق (١) دعاة منهم يذيعون هذه القالة أيام الجميع والناس مجتمعون في المسجد فيستخفون ألبابهم (٢) ، ولا يستمعون لذي رأي يبطل لهم ما يذاع على كذب بينهم ، وتصدى عمرو بن حريث ــ خليفة سعيد على الكوفة في غيابه ــ لتفنيد ما زعموا ، فقام على المنبر في يوم جمعة ينصح لهم ويوصيهم بالطاعة ولا من سميع ٠

قال القعقاع بن عمر : « أترد السيل على أدراجه ؟ هيهات ، والله لا يسدن الغوغاء الا المشرفية (٣) ويوشك أن تنتضى (٤) ويعجون (٥) عجيج العيدان ، ويتمنون ما هم فيه اليوم فلا يرده الله عليهم أبدا ٠ فاصبر » قال عمرو : « اصبر » ٠ وتحول الى منزله لا يأمر ولا ينهى ٠

هذه بداية تتبعناها الى نهايتها ٠ بدأت في أوائل خلافة عثمان وتتبعناها الى نهايتها قبيل مقتله ، وما يبلغ من خطب هذه الغاشية أن تفضي الى مقتل رئيس دولة ، لولا شذوذ في طبيعتها خرج بها عن سوائها (٦) ، وتعدى بها أطوارها ٠٠

---

(١) أي جعل ٠ (٢) الالباب : العقول ٠ (٣) نوع من السيوف ٠ (٤) نضا سيفه وانتضاه : سله ٠ (٥) العج : رفع الصوت ٠ (٦) أي حد اعتدالها ٠

نعم ٠٠ هي غاشية هان خطبها لو أنها صادفت أميرا يعالجها بنظام الامارة ، وهان خطبها لو أنها صادفت واليا مسئولا عن نظام ولايته مطلق اليد في دفع شواجر الفتنة عنها ، وقد عالج كل وال من ولاة ذلك العهد ما وقع منها في ولايته ، فاستطاع أن يصرف عنه غائلتها (١) : عالجها معاوية بنفي القائمين بهـا ، وعالجها عبد الرحمن بن خالد بتأديب دعاتها ، ولم يستفحل (٢) شرها في الكوفة الا بعد أن غاب عنها واليها سعيد بن العاص ، ووقف دونها خليفته عمرو بن حريث مكتوف اليدين وهو بعيد عن مشورة عثمان ومشورة أمير الولاية سعيد ، ولو كان لـه أن يسكنها بالسيف كما قال القعقاع لما كان تسكينها كثيرا عليـه ، ولكن القعقاع نفسه لم يشر عليه بامتشاق السيف على توقعه أن يعج (٣) عجيجها ، وانما أشار عليه أن يصبر فصبر ، ولزم بيته لا يأمر ولا ينهى ٠

لقد كان خطب الغاشية هينا لو أخذها الآخذون بسلطـان الامارة أو بسلطان الولاية ، ولكنها قد جرى الحساب فيها على سنة الخلافة في عهد لا هو بعهد خلافة ولا بعهد مملكة ، تتقاصر فيه حقوق الخليفة ولما يتوطد (٤) فيه حق الملك ، وهذه هـي النكبة الكبرى في ضميمها ٠

وفي أمثلة الشواجر التي أشرنا اليها في عهد عمر وعهد عثمان كذلك مجال للتفرقة بين طريقة الخلافة وطريقة الملك والامارة في سياسة هذه الشؤون ، أو في سياسة جميع الشؤون ٠

كان عمر أقوى من عثمان ولا مراء في ذلك ، وتقدم أنه بدل ثلاثة من الولاة على الكوفة غير وال رابع كان يهم باشخاصه اليها قبل مقتله ، وشوهد مهموما مكروبا على قدرته التي لا تضيق بأزمة من أزمات السلم والحرب واضطلاعه بأعظم الأعباء التي عرضت له أيام خلافته : مائة ألف لا يرضون عن وال ولا يرضى عنهم وال ، وهذه معضلة ثقلت عليه حتى أحس ثقلها كل من

---

(١) غائلتها : أي دواهيها ٠ (٢) أي يعظم ويكبر ٠ (٣) العج والعجيج : رفع الصوت ، وعجت الريح وأعجت : اشتدت وأثارت الغبار والدخـان ٠
(٤) يتوطد : يتثبت ٠

كان يعرفه ويلقاه في ابان شكاياتها ومنازعاتها ٠

فما بال أزمة كهذه تثقل على الرجل الذي نهض بأفدح الأعباء وصغرت في عينيه مخاوف الدنيا ومطامعها ؟٠٠

أتراه خاف من ثورة أصحاب الشكاية ؟

لو كان هذا ما يخشاه لما أعضله ولا أعياه أن يعد له عدته ، ويفرغ منه على النحو الذي يريده ٠٠

أم تراه خاف على سلطانه ، أو خاف على حياته ، أو خاف على مصلحة من المصالح الكبرى أو الصغرى تعنيه غير مصلحة الاسلام والمسلمين ؟ ٠

كلا ٠٠ فما في شيء من ذلك ما يخيفه ، وانما أعضله من أمر تلك الشكاية مخافة أمر واحد : مخافة الظلم أن يقع منه على شاك له حق في شكاة (١) ٠٠

ذلك كل ما أعضل على عمر من شكايات أهل الكوفة ، ولو لم يكن حساب نفسه على الظلم أعضل من كل معضلة لما كان في شكايات القوم ما يكربه ويقلق نومه ويغيم على وجهه حتى يلمحه من ينظر اليه من عارفيه ٠٠

ولو أن عمر على يقين من افتراء (٢) الشاكين لما أهمه أن يسخطهم ويخسر ثناءهم ، ولا أعياه أن يؤدبهم ويردهم الى طاعة وليهم ، فانما الشكاة بالحق هي التي تزعجه وتكربه ، ويشغله منها أن يبرأ من مظنتها غاية جهده ٠ فان عرف وجه الحق فما يبالي بعده من شكا أو ادعى ولو زعم أنه يدعي باسم من شاء من الأكثرين أو الأقلين ، وعلى هذا جرت سياسته وسياسة أبي بكر ، وعلى هذا كان يقضي بين أبي بكر والشاكين منه حيثما سمعت الشكاية من الخليفة الاول ، وبخاصة في مسائل الأعطية والأرزاق ٠

كان رزق أبي بكر الصديق حين استخلف خمسين ومائتي دينار في السنة ، وشاة في كل يوم يؤخذ منها بطنها ورأسها وأكارعها ، فلم يكن يكفيه ذلك ولا عياله ، فخرج الى البقيع يتجر ، وجاء عمر فاذا هو بنسوة جلوس فسألهن : ما شأنكن ؟٠٠

---

(١) أي شكوى ٠ (٢) الافتراء : الكذب والاختلاق ٠

قالت بعضهن : « نريد خليفة رسول الله يقضي بيننا » فانطلق يطلبه فوجده في السوق ، فأخذ بيده وجذبه ليذهب به الى حيث تنتظره النسوة • قال أبو بكر : « لا حاجة بي الى امارتكم • رزقتموني ما لا يكفيني وعيالي » وسأله عمر عما يكفيه فقدره بثلاثمائة دينار في السنة وشاة كل يوم لا يؤخذ منها شيء • وجاء علي وهما على هذه الحالة فلم ير ضيرا (١) في الزيادة ووافقه عمر بعد مراجعة • قال أبو بكر : « آنتما رجلان من المهاجرين لا أدري أيرضى بقية المهاجرين بما رضيتماه أم لا » • ثم صعد المنبر واجتمع اليه الناس فقال :

« أيها الناس !•• ان رزقي كان خمسين ومائتي دينار وشاة يؤخذ منها بطنها ورأسها وأكارعها ، وان عمر وعليا كملا لي ثلاثمائة دينار والشاة • أفرضيتم ؟•• » •

فأجابه المهاجرون : « اللهم نعم •• قد رضينا » • وصاح صائح من جانب المسجد فاذا هو اعرابي يقول : « لا والله ما رضينا • فأين حق أهل البادية ؟ » •

ولم يكن عسيرا على عمر ولا على أبي بكر أن يعلما أنها صيحة لا يصغى اليها ، فمن التنطع (٢) أن يمنع رزق الخليفة الذي أقره ذوو الرأي من المجاهدين في انتظار سؤال البادية من حضرهم منها ومن لم يحضر ، وكان جماع قولهم : ان المهاجرين اذا ارتضوا شيئا فانما الغائبون من أهل البادية تبع للحاضرين ، ولا يشتكي من ذلك مشتك بالحق كائنا ما كان ادعاؤه وكائنا من كان المدعون على غراره (٣) ••

فلا حساب للخليفة اذا جاءته الشكاية غير حسابه لضميره وخشيته أن يكون قد ظلم أحدا ، أو قمع شاكيا له مظنة صدق في شكايته ، وغير ذلك حساب الملك والامارة ، فانهما بين خوف الفتنة وخوف الضرر على سلطان صاحب السلطان ، ويأتي الانصاف في المرتبة بعد النظام والمصلحة ان كان له حساب ••

ولقد شكا من الزكاة أيام الخليفة الأول أكثر أهل الجزيرة العربية واستدعى قتالهم جهدا أكبر من جهد القتال مع الأكاسرة

---

(١) أي ضررا • (٢) التنطع : أي المغالاة • (٣) أي حاله ومنواله •

والقياصرة ، فما وقع اليقين في نفس الخليفة أنه على الحق وأن الشاكين على الباطل حتى أقدم على مكاره الحرب الداخلية وأقدم معه سائر المهاجرين والأنصار ، ولو تكرر هذا لتكرر علاجه بما يقتضيه في غير مبالاة بكثرة الشاكين وقلة المجاهدين .

المثل الآخر الذي تفترق فيه خطط الخلافة وخطط الملك من جانب الرعية ، قبل جانب الرعاة ، هو مثل الخلاف بين القائدين سلمان وحبيب في حروب أرمينية . فقد وجد النزاع على الرئاسة ووجد التنافس بين الأتباع ، ولكنهما وجدا في موقف جهاد ، فأوحى الموقف الى المتنازعين والمتنافسين خير ما يصنعون بغير حاجة الى مشورة الخليفة ، وهذه حادثة من حوادث عهد عثمان الذي اشتبكت فيه معالم الخلافة ومعالم الملك وغلبت فيه معالم الملك على مطالب المعيشة أيام السلم بعيدا من حمية الجهاد ومن خطر العدو المتحفز للانتقاض ، وقريبا من شهوات الدنيا وبطالة الفراغ ..

وقضى للخليفة الثالث ، باتساع دولته ودرء (١) الأعداء عنها ، أن يتولى أصعب خلافة في صدر الاسلام .

كانت ثورة الفرس والروم والخزر والترك أول صدمة تلقاها ، وأكبر بها من صدمة يتلقاها صاحب دولة في أول حكمه ، ولكنه ظفر بها وجاوزها بالدولة سليمة منيعة (٢) فأسلمه الظفر الى الصدمة الكبرى ، وهي صدمة الزلازل النفسية التي امتحن بها رعاياه في بحبوحة السلم والرخاء ، وكانت كلها طورا جديدا في حياة أولئك الرعايا ، فلا هم رعايا خلافة ولا هم رعايا مملكة ، متراوحين هنا تارة وهناك تارة أخرى ، بين بين ، على غير نظام متبع في حالة واحدة أو في الحالتين .

وقد أتينا من قبل على فارق بين الخليفة والملك في محاسبة النفس على شؤون الرعية ، ونأتي الآن على الفارق الأصيل أو الفارق الشامل بين النظامين ، وهو الفارق بين الثقة التي لا تحتاج الى حماية وبين السلطة التي تحمي نفسها ..

فالخليفة يعمل ما يشاء في ظل الثقة به والاطمئنان اليه ،

---

(١) درء : أي دفع . (٢) أي قوية .

يعمل اليوم ما ينقضه غدا ولا ملامة عليه ، ما دام عمله اليوم والأمس لغيره لا لنفسه ، وللمصلحة العظمى التي لا يناله منها نصيب غير نصيبه المقدور ، وقد يرضى هو لنفسه بأقل من ذلك النصيب .

رعية تثق بخليفتها وخليفة يثق برعيته ، ولكنه لا يبالي الا يثقوا به ان كان على طمأنينة بينه وبين ضميره ، وبينه وبين الله على السنة الالهية التي يعلمها من أحكام دينه .

أما الملك فالسلطة هي قوامه عند ذويه سواء نعموا بالثقة طواعية ، أم خذلتهم هذه الثقة عن اكراه وكراهية .

وقد وصلت الخلافة الى عثمان وهو أحوج ما يكون الى هذه الثقة ، وهي أعصى ما تكون عليه .

سبقه بالحذر من علية الناس خليفتان بلغت ثقة العلية والدهماء (١) بهما غاية مبلغها ، فأبو بكر كان يحذر الدنيا على أولئك العلية ، وعمر كان يسلمهم منها ما يأمن عاقبته عليهم ، ولا يقدرون على مخالفته ، لأنهم لا يشكون فيه ، ولا الشك فيه مقبول منهم اذا هم قبلوه .

أما هؤلاء العلية فهم في خلافة عثمان منافسون ونظراء ، وخلافته بينهم على شرط معرض في كل لحظة للتأويل والحساب العسير ..

وأما سواد الناس فقد شغلوا أولا ثم فرغوا من الشغل للبطالة والملاحاة وكأنهم ورثوا من بيزنطية سلطانها ومعه محاك الجدل البيزنطي الذي تضرب به الأمثال ، ولا يؤمن سواد الناس مع البطالة والفراغ للقيل والقال .

وقد كانت سياسة أبي بكر وعمر أن يستبقيا العلية عندهما ، ويرسلا الجند والقادة على قدر الى ميادين الجهاد ، وكان عمر يقتضب (٢) الولاية على الولاة مخافة — كما قال — من أن يحمل فضل عقولهم على الناس .

أما سياسة عثمان فقد اختلفت باختلاف الأحوال : سياسة عثمان كانت ترمي الى اطلاق العلية في الآفاق ، ارضاء لهم ، وتوسلا

(١) الدهماء : عامة الناس وجماعتهم . (٢) أي يختصر مدتها .

بمقامهم بين الدهماء في كل قطر الى تسديد النصيحة وحسن القيادة واتقاء الفوضى ، وهو اجتهاد منه ، له ولا ريب جانبه من الصواب ..

وعزت (١) عليه الطمأنينة الى الولاة مع الفراغ للدنيا بعد الجهاد ، فاختار للولاية أناسا من ذوي قرابته سبقت لهم ولاية في عهد الخليفتين السابقين ، عسى أن يصدقوه العون بحكم القرابة ان لم يصدقوه العون خالصا لوجه الله ..

ولما اضطر الى هذه الخطة حاسب ضميره فعمل على تدارك الضرر منها ، فذلك حين وفد الوفود لكل مصر من الأمصار عليه وال من ولاته الأقربين ، فهم يعيشون في أمصارهم ، ويحضر منهم من يشاء في موسم الحج ، ليرجع اليه بما يراه موضعا للمراجعة من أحوال مصره ، وهذه خطته التي آثرها للطمأنينة الى ولاته والطمأنينة على رعاياه .

والذي شاع عن عثمان ـ وما أسهل الاشاعة ـ أنه كان يبالي (٢) ذوي الثراء ولا يبالي المقترين (٣) والضعفاء ، والذي كان يحدث منه فعلا أنه يغضب الطامعين ويحمي المطموع فيهم من أهل الذمة وأهل الحاجة والمتربة (٤) ، فمن أجل ابل الصدقة غضب الغاضبون حين حمى لها المرعى ، وزاد في مرعاها على حسب زيادتها ، ومن أجل أهل الذمة غضب الشطار (٥) من قبيل حكيم ابن جبلة ، لأنه أدبهم وأمر بحبسهم ونهاهم عن أموال أهل الذمة وهم يحسبونها حلالا مباحا لمن يسطو عليها ، وكان رهط المبعدين من الكوفة الى الشام يحاور معاوية في هذه الأموال ، فينهاهم عنها ، ويكتب عنهم الى عثمان أنهم « لا يتكلمون بحجة ، وانما همهم الفتنة وأموال أهل الذمة » .

فأما الرزق الحلال فقد فرض لأصحابه ضعف ما كانوا يأخذونه من الأعطية يوم تولى الخلافة ، ولم يفعلها سياسة بل فعلها ايمانا بالصواب في هذه الزيادة ، وقد كان هو في عهد الفاروق أول من

---

(١) عز الشيء فهو عزيز : أي قل فلا يكاد يوجد . (٢) أي يهتم بهم .
(٣) الذين ضاقت عليهم النفقة . (٤) المتربه : المسكنة والفاقة . (٥) الشاطر : من أعيا أهله خبثا .

قال بكثرة المال وأشار عليه برصد الأسماء وتوفية كل ذي حق حقه من العطاء خشية النسيان والتكرار ..

وقد تعود المؤرخون أن يقسموا عهد عثمان قسمين : قسم الصلاح والرضى ، وقسم الخلل والشكاية ، وهم على صواب في تقسيمهم هذا وان لم يصب منهم من قال : أنهما قرينان لأيام الكهولة وأيام الشيخوخة في حياة عثمان ..

فالواقع أن عثمان كان شيخا جاوز السبعين على أرجح الأقوال في كلا القسمين ، ولكن الفرق الصحيح بين السنوات الأولى والسنوات الاخيرة من عهده ، أن الناس كانوا في شاغل بدفع الاعداء في السنوات الاولى ، وأنهم فرغوا للجدل والملاحاة في السنوات الأخيرة ، وان اتهام الولاة أيسر من اتهام القادة في ابان (١) القتال ، وقد صارت الرئاسة كلها الى الولاة بعد المشاركة بينهم وبين قادة الحروب .

ولم يأت هذا التغيير في أطوار النفوس من جانب واحد ولا من الرعية وحدها دون راعيها ، فحسب طالب الحقيقة أن يعلم أنه لم يأت كله من جانب عثمان ، وأن الرعية تغيرت فلم تصبح رعية خليفة ، وهي تحاسب ولي أمرها بميزان الخلافة .

أما ان عثمان لم يشترك في هذا التغيير بعمل من عنده ، فذلك هو الطرف الآخر من طرفي الباطل والادعاء .

انما آفة عثمان أنه لم يخل من الأموية ولم يكن أمويا « كفاية » ..

فمن خلاله الأموية حب القرابة فهو مبالغ في ايثاره لذوي قرباه .

ومن خلاله الأموية تلك « الطبيعة العملية » التي لم يكن للاسرة فكاك (٢) منها ..

لقد كان أبو سفيان يخلط بين النبوة والملك فيقول للعباس : « لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما » .

وكان ينظر الى مال الفيء بين يدي رسول الله ،فيقول للرسول ـ عليه السلام ـ : « لقد أصبحت أكثر قريش مالا » .

---

(١) وقت . (٢) فكاك : أي خلاص

وروي عن الحسن أن أبا سفيان دخل على عثمان ـ رضي الله عنه ـ حين صارت الخلافة اليه فقال : « قد صارت اليك بعد تيم وعدي ، فأدرها كالكرة واجعل أوتادها (١) بني أمية ، فانما هو الملك ولا أدري ما جنة ولا نار » • فانتهره عثمان وأخرجه مطرودا من عنده •

ان عثمان لأنزه نفسا وأطهر عقيدة من مثل هذه النزعة الدنيوية ، ولكنه سلم من شر ما في « الأموية » ولم يسلم من ميراثها بأجمعه ، فكانت له نظرة الى الامامة قاربت أن تكون نظرة الى الملك ، وكان يقول لابن مسعود كلما ألح عليه في المحاسبة : « مالك ولبيت مالنا ؟ » •• وقال في خطبته الكبرى يرد على من أخذوه بهباته الجزيلة (٢) في ايتاء ذي القربى على رواية الطبري : « فضل من مال ، فلم لا أصنع في الفضل ما أريد ، فلم كنت اماما ؟ » ••

فقد كاد في هذا المقال أن يرفأ (٣) الخلافة برقعة من الملك ، ومالت به طبيعة العصر كله الى بقية من النزعة الاموية فكاد الملك والخلافة لديه يلتقيان في حساب الأموال •

على أنه مع هذا التوسع في فهم حقوق الامامة لم يثبت أنه أنفق المال في غير مصالح الأمة كما يقدرها ويوافقه على تقديرها الكثيرون من المحدثين الذين نشأوا في عصر الاقتصاد وتقسيم الموارد والمصروفات على حسب مرافق الدولة ، وثبت على التحقيق أنه أنفق من ماله الخاص ـ قبل الخلافة وبعدها ـ لاستصلاح أمور عامة من خصائص بيت المال ، وقد تحرج أشد التحرج من انفاق المال على حرس يحميه في أسوأ أيام الفتنة ، ولو أنه فعل لما خالف بذلك سنة الحكم في نظام من النظم الحكومية ، وكانت له « سياسة اقتصادية » يلاحظ فيها تدبير المرافق العامة وتيسير التجارة والعمارة ، ومنها اصلاح ميناء جدة وتمهيد الطرق واقامة الشرطة في المخافر وتنظيم الأسواق •

---

(١) أوتاد الارض : جبالها ، وأوتاد البلاد : رؤساؤها • (٢) الجزيلة : العظيمة والكثيرة (٣) أي يصل ويضم •

ومهما يقل القائلون عن ترخصه في العطاء وبذل الرواتب من بيت المال فلا قول لأحد في حرمة الحياة عنده حتى فيما يخشى منه الجور على حياته ، فما طاوعه بميره قط على ايقاع حكم الموت بانسان ممن استحقوا هذا الحكم بالشغب والعصيان ، ومن لامه في هذا الباب فانما يلومه لأنه أفرط في الرحمة والأناة ، ولا يلومه لانه قسا فضلا عن الافراط في القسوة .

والمشقة التي يلقاها المؤرخون في هذا الصدد عظيمة متعبة ، لأن الغالب في المؤرخين أنهم يستسهلون الرأي كلما كتبوا عن رجل اشتهر بصفة من الصفات ، وهم على دأبهم هذا قد يستسهلون الرأي في تقدير سياسة عثمان بعد السنوات الأولى من خلافته على الخصوص ، فما كان عملا وتدبيرا فليس أسهل من اسناده الى أعوانه ، وما كان توانيا وتفريطا فليس أسهل من اسناده اليه ، وان أسندوه اليه ليقولوا أنه غلب عليه ..

وتحضرني في هذا المقام مساجلة (١) بين بعض الصحاب سمعناها عن ضعف عثمان ، وتسيير الناصحين له من حزبه ومن غير حزبه ، واحدى الدلالات على ذلك أنه تاب ثم عدل عن التوبة مرات في عامه الأخير .

والأمر الذي نسيه أصحاب هذه الدلالة أن التوبة شيء لم يطلب قط من أحد في تلك الآونة الا استجاب اليه ، وما قيل لأحد قط : تب الى الله فأجاب على ذلك بغير التوبة والاستغفار ، فما كان منهم من أحد يرى أنه غني عن الاستغفار وتكفير الذنوب في وقت من الأوقات ، أو كان يستعلي عن الوقوف أمام الله موقف التوبة والندامة ، وما كانت توبات عثمان الا من هذا القبيل كلما دعي اليها في أيامه الأخيرة ، فانما هي توبة لله وأمام الله ، ولا عليه أن يعيدها في اليوم مرات بعد مرات .

فمن تيسير المؤرخ على نفسه أن يحيل عمل عثمان وتدبيره على الأعوان والنصحاء ، وأن يحيل التواني والتفريط اليه أو الى غلبة الاعوان عليه ، ولا سيما المسئول الاكبر في رأي الاكثرين عن أخطاء عثمان ، ابن عمه مروان ..

---

(١) المساجلة : المباراة والمفاخرة

فما كان لمروان هذا من القوة ما أسبغه(١)عليه المداحون بعد قيام الدولة الأموية ، ولم تكن له هذه القوة حتى في مطامع الملك وهمم السيادة والرئاسة ، فانه كان يزاحم معاوية فلم يستطع أن يبلغ معه كثيرا ولا قليلا ، وراح يحرض عمرو بن عثمان ليناويء (٢) معاوية ويقول له : انه لم يأخذ الخلافة الا باسم أبيك ثم ينزوي (٣) ولا يجسر (٤) على الظهور •• ولم يفارقه هذا الخمول (٥) بعد موت معاوية وابنه يزيد ، فكاد أن يبايع عبد الله بن الزبير بالخلافة لولا النزاع بين اليمانية والقيسية في الشام ••

وقد أودى (٦) حمقه بحياته بعد أن صارت الخلافة اليه ، ذلك المصير الذي لا فضل له فيه • فقد خشي أن يكبر خالد بن يزيد بن معاوية فينازعه سريره ، فلم تهده حيلته الى عمل يحتاط به لهذه المنازعة غير أن يتزوج أمه ليصغره ويلحقه بأتباعه ، وأمعن في هذه الحيلة لما كبر خالد فقال له على مسمع من أشراف القوم : مالك ولهذا يا ابن الرطبة •• فكان فيها حتفه ، وقيل ان خالدا أخبر أمه فقالت له : لا يعلمن أحد أنك أخبرتني ، ثم وضعت على رأس مروان وسادة ولم ترفعها حتى مات •

فمروان هذا ليس بالعون الغالب الذي لا يخالف ، وليس هو على الأقل بالذي ينسب اليه الرفق في تسيير الناس للقتال متطوعين ، أو الرفق في محاسبة الخصوم والثائرين أو بذل العطاء لمن ينافسهم وينافسونه من رؤساء بيت العاص أو بيت حرب في بني أمية ، وغاية شأنه أنه المأمور الذي لا يستعاض عنه بمن هو أنصح منه وأقدر على الطاعة وأعرف بما كان وما هو كائن من أخبار العاصمة وأحوال الولايات لطول المراسلة والمعاشرة ، ومن كان يحسب أن مشورته السيئة هي علة العلل

(١) أي توسعوا • (٢) ليناويء : ليعادي • (٣) ينزوي : يتنحى ويبتعد•
(٤) جسر على كذا : أقدم • (٥) خمل ذكره وصوته خمولا : خفي ، وأخمله الله تعالى فهو خامل : أي ساقط لا نباهة له • (٦) أودى الرجل : هلك •

في محنة عثمان ، فعليه أن يلغي هذه المشورة ويفترض أنه لم يقل بها ولم تسمع منه ثم لينظر ماذا يقدم هذا أو يؤخر من أزمة الحكم ومن فاجعة عثمان ..

انما المحنة كلها : أنه زمن كان يحتاج حينا الى ثقة الخلافة فلا يجدها ، ويحتاج حينا آخر ، أو في الحين نفسه ، الى سلطة الملك فلا يجدها ، ولن يسلم حكم يحتاج الى سند الثقة في موضعه أو الى سند السلطة في موضعه ، فلا يجد هذا ولا ذاك .

* ★ *

مصحف عثمان

ينفرد اليوم بين أعمال عثمان عمل جليل يوازنها جميعا ، يذكر باسمه حيث يذكر المصحف الشريف ، ويعلمه من يعلم أن المصحف « العثماني » منسوب اليه ..

فقليل من الناس يعلمون اليوم أنباء الفتوح التي فتحها عثمان ، وأنباء الغارات التي ردها عثمان ، ومنها ما تلتبس (١) فيه أسانيد المؤرخين ، فيختلط السند الواحد بين البلد والبلد وبين السنة والسنة ، ولا يعرف القول الفصل في ذلك كله الا بعد معارضة ومقابلة بين الأنباء والروايات لا يشتغل بها أحد غير المختصين ..

أما عمل عثمان في المصحف فهو ماثل معلوم حيث يقرأ المصحف وحيث يقال : هذا مصحف عثمان ، وكل مصحف اليوم هو مصحف عثمان ، فلم تكن كلمة « المصحف » نفسها معروفة علما على الكتاب الذي يجمع آي القرآن الكريم . فعرف المصحف تارة و « الامام » تارة منذ سميا باسميهما في أوائل خلافة عثمان.

وليس من مباحث هذا الكتاب تاريخ جمع القرآن منذ جمع لأول مرة في حياة النبي ــ عليه السلام ــ ، وانما نذكر منه ما يذكر في تاريخ عثمان ــ رضوان الله عليه ــ ، وهو باتفاق الخالفين بعده ألزم ما كان لازما من أعمال العناية بحفظ القرآن الكريم

جمع القرآن الكريم في حياة النبي ــ عليه السلام ــ بعد أن كان مفرقا في جريد النخل وصفائح الحجارة والعظام والجلود والرقاع ، ولم يرتب يومئذ على حسب السور والموضوعات ، وفي ذلك يقول الشيخ محمد العاقب الشنقيطي من أرجوزته المشهورة :

---

(١) التبس عليه الامر : اختلط واشتبه .

لم يجمع القرآن في مجلد
على الصحيح في حياة أحمد
للأمن فيه من خلاف ينشأ
وخيفة النسخ بوحي يطرأ
وكان يكتب على الأكتاف
وقطع الأدم واللخاف

فلما كانت أيام أبي بكر قال له عمر : ان أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ باليمامة يتهافتون تهافت الفراش ، واني أخشى ألا يشهدوا موطنا الا فعلوا ذلك وهم حفظة القرآن .. فهلا جمعته وكتبته ؟.. فنفر أبو بكر أن يفعل ما لم يفعل رسول الله . ثم أرسل أبو بكر الى كاتب الوحي زيد بن ثابت فقال له مشيرا الى عمر : « ان هذا قد دعاني الى امر فأبيت (١) عليه ، وأنت كاتب الوحي ، فان تكن معه اتبعتكما ، وان توافقني لا أفعل » وتراجعا في الامر حتى قال عمر : « وما عليكما لو فعلتما ذلك ؟ » فنظرا مليا (٢) ثم قالا : « لا شيء ! » .

فجمعت الآيات وروجع الحفاظ في كل آية ، ولم يشتغلوا يومئذ بنسخ ما جمعوه وارسال النسخ الى الأمصار ، لأنهم تتبعوا الآيات لجمعها لا لمخافة الاختلاف في قراءتها .

ثم حدث هذا الاختلاف بعد تفرق المسلمين في الأمصار على أيام عثمان ، وبلغ من ذلك أن المعلمين والصبية كانوا يقتتلون في المكاتب لأن الصبية يرجعون الى آبائهم فيسمعون منهم غير ما سمعوه من معلميهم ، وعاد حذيفة بن اليمان من قتال أرمينية فلم يدخل بيته حتى أتى الخليفة فقال له : « أدرك الناس يا أمير المؤمنين قبل أن يختلفوا في الكتاب » فلم يتوان (٣) عثمان بقية يومه ، وأرسل الى السيدة حفصة يطلب النسخة التي أودعها أبوها عندها قبيل وفاته وقبل أن ينتخب الخليفة بعده ، وأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد

---

(١) أبيت : رفضت . (٢) مليا : أي وقتا طويلا . (٣) توانى في الامر : قصر .

الرحمن بن الحارث بن هشام أن ينسخوها ، ثم عارضها (١) على ما يحفظه وهو يحفظ القرآن كله ، وعارضها على ما يحفظه سائر الصحابة فخلصت له النسخة المتفق على قراءتها وترتيب آياتها ، فلم يحجم (٢) بعد ذلك عن أمر كان غيره خليقا أن يهابه، مذ رأينا أن أبا بكر قد تردد قبل أن يجيب عمر الى مشورته وليس فيها أكثر من مجرد التفكير في جمع الآيات المتفرقات ..

أمر بعد حصول هذه النسخة لديه فأباد (٣) كل ما عداها احراقا ومحوا ، وأخذ « العسب واللخاف والجلود » التي لم تختلف ولم تجتمع على ترتيب فدفنها بين القبر والمنبر ،وأرسل من « المصحف » كما جمعه نسخا الى الأمصار يعتمدونها ولا يقرأون في غيرها .

عمل من أخلق (٤) الأعمال أن يوصف بأنه « عمل عثماني » في الاقدام عليه وفي أثره ..

فهذه الجرأة أحق شيء أن يلتفت اليه من كانوا يحسبون أن صفة الرحمة أو صفة الطيبة تحجب الشجاعة وتثني صاحبها عن تبعته اذا آمن بها ..

وهذا العمل ـ في اختلاف تقديره وأثره ـ مثال من أعمال عثمان كافة ، اذ كان معدودا عليه من أكبر السيئات ، ولم تبق لعثمان حسنة أعظم منه في تاريخ الاسلام .

---

(١) عارضها : قابلها . (٢) أحجم عن الشيء : كف أو نكص هيبة .
(٣) أباد : أهلك . (٤) أي أجدر .

النهايـــة

قلنا في الفصل الأول من هذا الكتاب : « ان الصعوبة الكبرى أننا في هذه الفترة أمام حادثين يرجع كل منهما الى أسبابه وعوامله ويتكلم عنهما بعض المؤرخين كأنهما حادث واحد متحد الأسباب والعوامل ، هذان الحادثان هما : التطور الاجتماعي ومقتل عثمان ــ رضي الله عنه ــ وأسباب هذا لا تكفي لتعليل ذلك وليس من الحتم أن تؤدي اليه » .

ومقتل عثمان لا يوصف بأكثر من أنه « مشاغبة دهماء » لم تجد من يكبحها ..

أما التطور الاجتماعي فلا بد من التفرقة في تعليله بين لغط الألسنة في حينه وبين البواعث الحقيقية التي عملت فيه عملها الفعال ولم تعمل فيه بداهة بألسنة اللاغطين في ذلك الحين .

انهم لغطوا يومئذ بسيادة قريش ، ولغطوا بالأموال التي أغدقها ولاة الأمر على الانصار والاشياع ، ولغطوا بايثار الصنائع وذوي القربى ..

ولم يكن شيء من هذا اللغط علة للتطور الاجتماعي الذي بدأ بعد دعوة الاسلام وانتهى بقيام الدولة الأموية .

فالذين شغبوا على عثمان جاءوا من البصرة والكوفة ومصر ليبايعوا واحدا من ثلاثة هم : الزبير وطلحة وعلي ، وكلهم من قريش .

ودولة بني أمية قامت بعد ذلك وهي دولة قرشيـة غالية في عصبيتها .

والذين ثاروا على بني أمية انما ثاروا باسم بني هاشم وهم قرشيون ، ومن بني هاشم قامت دولة العباسيين ودولة الفاطميين .

وبعد نحو مائة سنة من مقتل عثمان قام بالأمر في الأندلس « صقر قريش » عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ، فبايعه العرب والبربر لأنه من سلالة قرشية ..

فلا يكفي أن يلغط بالنقمة على قريش سامرون في مجلس أو

لاغطون في طريق ، ليقال أن التطور الاجتماعي أيام عثمان انما كان مداره على الضجر من قريش والرغبة في الخلاص من سيادتها ٠

وقد غلا الأمويون في العصبية كما غلوا في كسب الأنصار والاشياع ببذل الاموال واسناد الولايات ، فوطدوا بذلك ملكهم وقهروا خصومهم ، ولم يقتل منهم أحد من جراء ذلك كما قتل عثمان ٠

كان خراج السواد في عهد معاوية خمسين مليون درهم ومعها مثلها من هدايا النيروز والمهرجان فاحتجنها (١) لنفسه وأنفقها في سبيل سلطانه ودولته ٠

ووهب خراج مصر كلها لعمرو بن العاص جزاء له على معاونته اياه وهو يربي (٢) على عشرة ملايين من الدراهم ، وجعل عطاء الحسن والحسين مليوني درهم وكان عشرة آلاف درهم في عهد عمر بن الخطاب ٠

واقتفى يزيد آثار أبيه فسأل عبد الله بن جعفر حين قدم عليه : « كم عطاؤك ؟ » قال : « ألف ألف درهم » قال : « قد أضعفناها لك » ٠ فقال له عبد الله : « فداك ابي وأمي وما قلتها لاحد قبلك » فضاعف عطاءه ثانية ، ثم خرج عبد الله فقال جلساء يزيد له : « أتعطي رجلا واحدا أربعة آلاف ألف درهم ؟ » فقال لهم : « ويحكم ! اني اعطيتها أهل المدينة أجمعين ، فما يده فيها الا عارية ! » ٠

وهذه الهبات على عهد الدولة الاموية ربما بلغت في اليوم الواحد ما لم تبلغه هبات عثمان في سنوات ، وأكثر هبات عثمان من خاصة ماله ، وليس فيما وهبه من بيت المال عطاء واحد لم تكن له صلة بعمل من أعمال الفتح والجهاد ٠٠

فاذا كان الناس قد شغبوا على عثمان فلغطوا بسيادة قريش، أو لغطوا بالهبات والعطايا فليس هذا اللغط هو حقيقة البواعث والقوى التي عملت في التطور الاجتماعي وانتهت بقيام الدولة الأموية على دعائم من سيادة قريش وتقريب الأنصار والاشياع ٠ انما تطور المجتمع الاسلامي بعد أيام الدعوة النبوية لأن

---

(١) احتجن المال : ضمه واحتواه ٠ (٢) أي يزيد ٠

الدعوة النبوية قد رفعت مجتمعها الى الأوج الذي لا تقوى النفوس البشرية على مداومة البقاء فيه . ولو لم تتغير أحوال المعيشة باقبال الدنيا واتساع الفتوح · فاذا اتفق على النفس البشرية عسر البقاء في ذلك الأوج وفتنة المعيشة معا فلا بد من تطور المجتمع حالا بعد حال ·

وقد يسمى هذا التطور انقلابا من قبيل الترخص في التعبير · أما حقيقته فهي نقيض الانقلاب : حقيقته أنه رد فعل للانقلاب العظيم الذي طرأ على حياة الأمة العربية من أثر الدعوة النبوية . فارتفعت مع تلك الدعوة شأوا (١) لا طاقة للنفوس البشرية بالدوام عليه . وثابت الى طبيعتها بعد سكون تلك الوثبة وغنمت منها القيم الجديدة التي دخلت في تقدير الرعاة والرعايا وحسبت في موازين الأخلاق والاداب . فأما دوام الغيرة الروحانية سنوات وأجيالا على قوة واحدة فذلك ما ليس فيه مطمع لطامع . وليس له سابقة ولا لاحقة من وقائع التاريخ ·

هذا التطور الاجتماعي هو أحد الحادثين المختلفين اللذين يتلاقيان في سيرة عثمان . وفحواه التحول مع الزمن من وثبة النبوة الى تقة الخلافة الى سلطة الملك . أيا كان القول في سيادة قريش وتوطيد الملك بالعصبية والهبات ··

أما الحادث الآخر فلا صفة له اكثر من صفة المشاغبات التي يجمح بها الدهماء . ولا اختلاف بينها وبين المشاغبات التي تعمل فيها الأغراض الصغيرة . والغرائز الهوجاء (٢) . والدعاوى الملفقة . والصيحات التي تقبل بغير تمحيص (٣) . وتنطلق الى غير مقصد وعلى غير هداية ··

وأساس البلاء كله البطر على الحقوق التي كسبوها من الاسلام ومنها حق خولهم (٤) اياه عثمان . حين وفد الوفود . وندب طوائف منها للقائه في موسم الحج كل عام لابلاغه ما يشكونه من الولاة وما يطلبونه اليه . وقد رأينا أنهم استسهلوا الشكاية من العمال من أيام عمر . ثم زادها سهولة عليهم أنهم

---

(١) شأوا : أي غاية · (٢) أي السريعة الحمقاء · (٣) التمحيص : الابتلاء والاختبار · (٤) خولهم : أي ملكهم وأعطاهم ·

استطاعوا في عهد عثمان أن يقدحوا (١) في انتخابهم ويشككوا الناس في كفايتهم للولاية لولا قرابتهم من الخليفة • وليس أدل على وهي (٢) الأسباب الحقيقية للشكوى من حاجتهم الى نبش الماضي عن أسباب تثير الشعور ، ولا تستند الى حجة غير المزاعم والأقاويل • ومن ذلك نبشهم عن سيئات عبد الله بن أبي السرح الذي ارتد في عهد الدعوة ثم تاب وولاه عمر بعض ولاياته في مصر ، فانهم زعموا أن عثمان قد ولاه القيادة لأنه أخوه في الرضاع ، والصحيح أن عبد الله بن أبي السرح كان أكفى الكفاة في قيادته ، وانه انتصر حيث قاد جيشا في البر أو في البحر ، ومع الروم أو أهل افريقية ، وزعموا أن عثمان نقل (٣) مروان بن الحكم بخمس الغنائم التي أرسلها ابن أبي السرح من افريقية ، وهو غير صحيح ، وانما الصحيح أن ابن أبي السرح أخرج الخمس من الذهب وهو خمسمائة ألف دينار فأنفذها الى عثمان وبقي من الخمس أصناف من الأثاث والماشية يشق حملها الى المدينة ، فاشتراها مروان وبقيت من ثمنها بقية عنده فوهبها له عثمان يوم بشره بفتح افريقية ، والناس على وجل (٤) من أخبار الغارات عليها ••

وكقصة ابن أبي السرح قصة الحكم بن العاص الذي رخص له عثمان في العودة الى المدينة بعد أن نفاه النبي ـ عليه السلام ـ عنها ، فانما أبى النبي أن يساكنه في المدينة ثم وعد عثمان أن يعفو عنه ، ولا حرج من مقامه حيث لا مساكنة له ـ عليه السلام ـ بعد وفاته • فقد أذن له بالمقام في الطائف حيث لا يسكن معه وهي أحب في سكنها وأشهى •

ومن هذه الشكايات التي يبحث عنها الباحث ، أنه ولى الوليد ابن عقبة لقرابته ثم اتهم بشرب الخمر وثبتت عليه التهمة ••• فأما أنه هو الذي ولاه فغير صحيح لأنه كان مولى من قبل عمر ، وأما أنه شرب الخمر فقد أقام عليه عثمان الحد وعزله ، ولا يطلب من الامام أكثر من ذلك ••

ولاموه لأنه لم يقتص من عبيد الله بن عمر لقتله الهرمزان

---

(١) يقدحوا : يطعنوا • (٢) وهي : ضعف • (٣) نفله النفل ، ونفله ، وأنفله : اذا أعطاه اياه • (٤) وجل : خوف •

المتهم بالتآمر على قتل أبيه ، وأيا كان وجه العدل في هذه القضية لقد كان لوامه على قتل عبيد الله لو أنه أخذه بالهرمزان أكثر من عاذريه (١) ، فما كان أكثر من يقول يومئذ : أن عمر قتل بالأمس وابنه يقتل اليوم ، وقد كان عذر عثمان في ترك عبيد الله أنه دفع الفتنة ، فأطلقه ولما يمض على قتل أبيه أيام . ودفع الفتنة ولا ريب حق من حقوق الامام ٠

وذكروا أنه أبعد أناسا من الصحابة عن مساكنهم أو عن أعمالهم ولم يذكروا أنهم أغلظوا له في القول ولم يوقروه ، وقد ضرب عمر بن الخطاب سعد ابن أبي وقاص لأنه لم يقف له في مجلس الخلافة ، وقال له : « انك أردت أن تقول : انك لا تهاب الخلافة ، فالخلافة تقول : انها لا تهابك ! » ولم يعرف عن انسان أنه اعتذر لصحابي من الاساءة اليه كما اعتذر عثمان لابن مسعود الى يوم وفاته ، وهو غاية ما يستطيع ٠

واذا كان أساس البلوى كلها سهولة الشكوى ، فيومئذ يظهر بالشكوى من كان حقه أن يتوارى بها من أصحاب الترات والذنوب ، ولكن سماحة عثمان أطمعتهم في الظهور ، وسولت (٢) لمن شاء منهم أن يجترىء عليه مع الشاكين والمتذمرين ، وأعجب العجب في هؤلاء قصته مع محمد بن أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة ابن عبد شمس قريب عثمان وربيبه في داره ٠ فان الناس قد ولعوا بالكلام على محاباة عثمان لأقربائه وهذا واحد من أقرب الأقربين اليه أقام عليه الحد لأنه أصاب شرابا ، ثم جاءه يطلب منه ولاية فأباها عليه وقال له : لو كنت أهلا لذلك لوليتك ! فكان هذا زعيم الثائرين عليه في مصر ومعه نفر من ذوي قرباه ٠

ومنهم من عاقبه عثمان لأنه كان يلعب بالنيرنجيات (٣) ، ومن عاقبه لأنه تزوج بامرأة في عدتها ، ومنهم من عزله كعمرو ابن العاص فكان أحكم من أن يجهر بالشغب عليه ، ولكنه كان يدعوه جهرة الى التوبة وهي دعوة أشبه ما تكون بالاتهام الصريح ٠

ومنهم من كان يزجره ولاة عثمان لأنه كان يهذر (٤) في

---

(١) عاذريه : من يلتمسون له العذر ٠ (٢) سولت : زينت ٠ (٣) جمع نيرنج ، وهو أخذ من السحر وليس به ٠ (٤) الهذر : الهذيان ، وأهذر في كلامه : أكثر ٠

الدين بما لا يعلم ، أو يهذر فيه بما يعلم أنه الباطل ويضمر من ورائه سوء النية ، كعبد الله بن سبأ المشهور بابن السوداء ، فقد أخرجه الولاة من بلد الى بلد لأنه كان يقول : برجعة النبي الى الدنيا وحلول روح الله في علي ، وقد كان علي ــ رضي الله عنه ــ أشد على ابن السوداء هذا من عثمان وولاته ·

وبين هؤلاء الشاغبين يسمع النضح الصادق من رجل كأبي ذر يروعه البذخ والترف ، فيدعو الى التقوى والصلاح ، وينعي على الذين يكنزون الذهب والفضة ويحبسونهما عن الخير والصدقة ، فتحسب صيحته على عثمان، ولا قبل لعثمان بتغيير الزمن وتبديل الأوان ، وقد حذر منه قبل أوانه الصديق ، ثم حذر منه الفاروق وجلة الصحابة الأكرمين ، ولا شيء يجنى من تلك الصيحة الا أن تملي (١) للشاغبين في شغبهم ، وهم لا يصدقون صدق أبي ذر ولا يتقون تقواه ·

ولقد أشير على عثمان بالضرب على أيدي الشاغبين ، وكان عمرو بن العاص أول من قال له : انه قد لان لهم في المقال ولم يجزهم بما استحقوه من جزاء ، ومن محنة الامامة في ذلك الزمن أن يلام الامام على النقيضين : على الرأفة بالشاكين ، وعلى أنه أغضبهم ولم يجبهم الى ما سألوه ·

ولما جمع مجلسه للشورى كان من ناصحيه من أشار عليه بأن يشغل الناس بالجهاد ، فلم يرض أن يكون الجهاد سياسة يحمي بها نفسه ويشغل بها الساخطين عليه ··

وكان من ناصحيه من أشار عليه باتخاذ الحرس أو بالسفر الى الشام ، فلم يقبل هذا ولا ذاك ·

وكان رأي علي أن يشتد في حساب الولاة ، وأن يعزل منهم من نهج في الولاية منهجا لم يكن يرضاه قبله الفاروق ولا الصديق، ولو فعل لعزل معاوية أول من عزل ، ولكن ولاية معاويـــة في الشام كانت أقل الولايات شغبا عليه ··

وللسائل في أمثال هذه المآزق أن يسأل : « فعل عثمان هذا أو ذاك فسخطوا عليه ، فهل يرضون عنه لو لم يفعل هذا وذاك ؟ » ·

---

(١) يقال : أمليت له في غيه : اذا أطلت ·

واليقين في رأينا أن الرضى عنه في أمثال ذلك المأزق مطمع لا يرام ، لأن أساس البلاء كله سهولة الشكوى من الدهماء ،ومتى سهلت الشكوى فالاعراض عنها محنة ، واستجابتها محنتان ، لأنها تغري بالشكوى من جديد وتزيد البلاء بزيادة السهولة طمعا في دوام الاصغاء ٠

وتحسب على عثمان أخطاء وهنات جنت عليه ، وساعدت من أراد أن يتجنى عليه بالحق وبالباطل ، منها توسعه في حقوق الامامة ، وتوسعه في معيشة الغنى بعد خليفتين كانا مثالا في التقشف والرضى بالقليل ، وقد توسع كذلك في تقريب ذوي قرابته واصطفائهم لأعماله وبطانته ، ولم يردعهم أن يجبهوا كبار الصحابة من أمثال علي وعبد الرحمن بن عوف بسوء المظنة والتهمة الجائرة ، فجعلوهم في حيرة من أمرهم : ان دخلوا في أمر الفتنة على عزم وقوة لم يأمنوا التهم ، وان تجنبوا الأمر كله عزلوا عثمان حتى يشعر الناس بعزلته ، وقد ظن من ظن بعد تفاقم الشر أن عثمان انما صرف من تطوعوا لحراسته في داره لأنه لم يكن على طمأنينة من جانبهم ، فتفرقوا وأحس الشاغبون حول الدار من تفرقهم كأنهم خاذلوه ٠

ومن الانصاف له أن يقال : ان تقصيره في حق نفسه كان أكبر من تقصيره في حق رعيته ، فقد أفرط في المسالمة واغتفر ما لا يغتفر من العدوان عليه في حضرته ، وتحرج غاية التحرج من البطش بمساعير (١) الفتنة لأنه لم يكن من الغرور بحيث يبرىء نفسه من تبعة سخطهم ، ولم يكن من الأثرة بحيث يدرأ عن نفسه الخطر وهو لا يبالي أكان على خطأ أم كان على صواب ٠

ولا نحسب نحن من أخطائه أنه أصر على الامامة وأبى أن ينزل عنها وقال لمن أنذروه القتل ان هو لم يعتزل : انه لا يخلع قميصا ألبسه الله اياه ، فقد عزا (٢) بعضهم هذا الاصرار الى وصية النبي له في مرض وفاته ، وعزاه بعضهم الى يقينه من الموت ويأسه من جدوى الاعتزال على رعيته ، وأيا ما كان باعثه على الاصرار فهو الباعث الذي لا يعزى الى الاثرة ولا يفسره الا الايثار في سبيل ما اعتقده واجبا عليه ، حتى الايثار على الحياة ٠

(١) مساعير الفتنة : موقديها ٠ (٢) عزا : أي نسب ٠

ومن الفضول في سيرة تدور على « تحليل الشخصية » أن نطيل في سرد أحداث الفتنة التي انتهت بمقتله ، وأن نحصر أسماء من تكاتبوا ومن دعا منهم ومن أجاب ، فكل ما رواه المؤرخون من هذه الأحداث يدل على مؤامرة مشتركة بين وفود الأمصار ، عملت فيها الدعاية والاستثارة وعملت فيها الشعوذة والضلالة المدبرة ، ولم تكن قط في مصلحة رأس من رؤوس الصحابة الكبار فيميل الظن الى اتهامه بالتدبير ، فان الفتنة التي يلغط فيها بالثورة على قريش لن تكون من تدبير القرشيين ، وان الفتنة التي يشعوذ بها أصحاب الضلالة ممن يزعمون أنهم من دعاة علي لن تفيد عليا عند المؤمنين ، ولن يرضاها علي لدينه ولا لدنياه .

انما هو شغب غوغاء لا رأس له ولا قدم ، ووجود التدبير وراء هذا الشغب الأعمى هو الذي يوحي الى المؤرخ أن يدا كانت تعمل فيه لمحض الشغب والى غير نتيجة الا أن يفسد الامر على الدولة الاسلامية ، وتحوم الشبهات من أجل هذا حول ابن السوداء ومن كانوا يستمعون اليه من شذاذ الأمصار الذين قيل فيهم : « لا ندري أعرب هم أم عجم ومسلمون هم أم مفسدون مدسوسون على الاسلام .. » .

ثم بلغ الكتاب أجله بقصة ذلك الكتاب الذي قيل : انهم وجدوه مع غلام لعثمان يأمر فيه والي مصر أن ينكل (١) بقادة الوفد الذي عاد من عند عثمان ..

عاد وفد مصر من عند عثمان موعودا بما يرضيه ، ثم لم يلبث أن قفل (٢) ومعه كتاب مختوم بخاتم عثمان يأمر فيه بجلد « عبد الرحمن بن عديس وعمرو بن الحمق وعروة بن البياع وحبسهم وحلق رؤوسهم ولحاهم وصلب بعضهم » ..

ولم يعد وفد مصر وحده بل عاد معه وفد الكوفة ووفد البصرة وهم مفترقون في الطريق ، ولم يفت عليا أن يسألهم عن هذا الملتقى العجيب ، ان صحت قصة الكتاب !..

وحان المصرع الأليم الذي لا نحب أن نطيل النظر فيه ، فان

---

(١) ينكل بهم : أي يجعلهم عبرة لغيرهم . (٢) قفل : رجع وعاد .

تريثنا بعده هنيهة فانما نتريث لنستخرج العزاء لبني الانسان من الشر المركوز في طبيعة الانسان ٠٠

لئن كان مصرع عثمان شرا مطبقا ، لقد كان كجميع الشرور ، ينطوي على خير يبقى بعد زوال الغاشية في حياة فرد أو أفراد ٠

كان الخير فيه ذلك الحق الذي آمن به من لا يحسنونه ، فأراهم أنهم أهل لحساب ولي الأمر وهو يبسط سلطانه من تخوم (١) الصين الى بحر الظلمات ٠٠

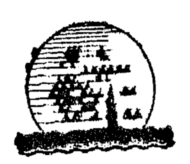
وكان الخير فيه ذلك الايمان الصادق الذي صمد به شيخ في التسعين للكرب المحيق (٢) به وهو ظمآن محصور في داره بغير نصير ، ولو شاء لكان له ألوف من النصراء يريقون البحار من الدماء ، حيث عزت قطرة الماء ٠

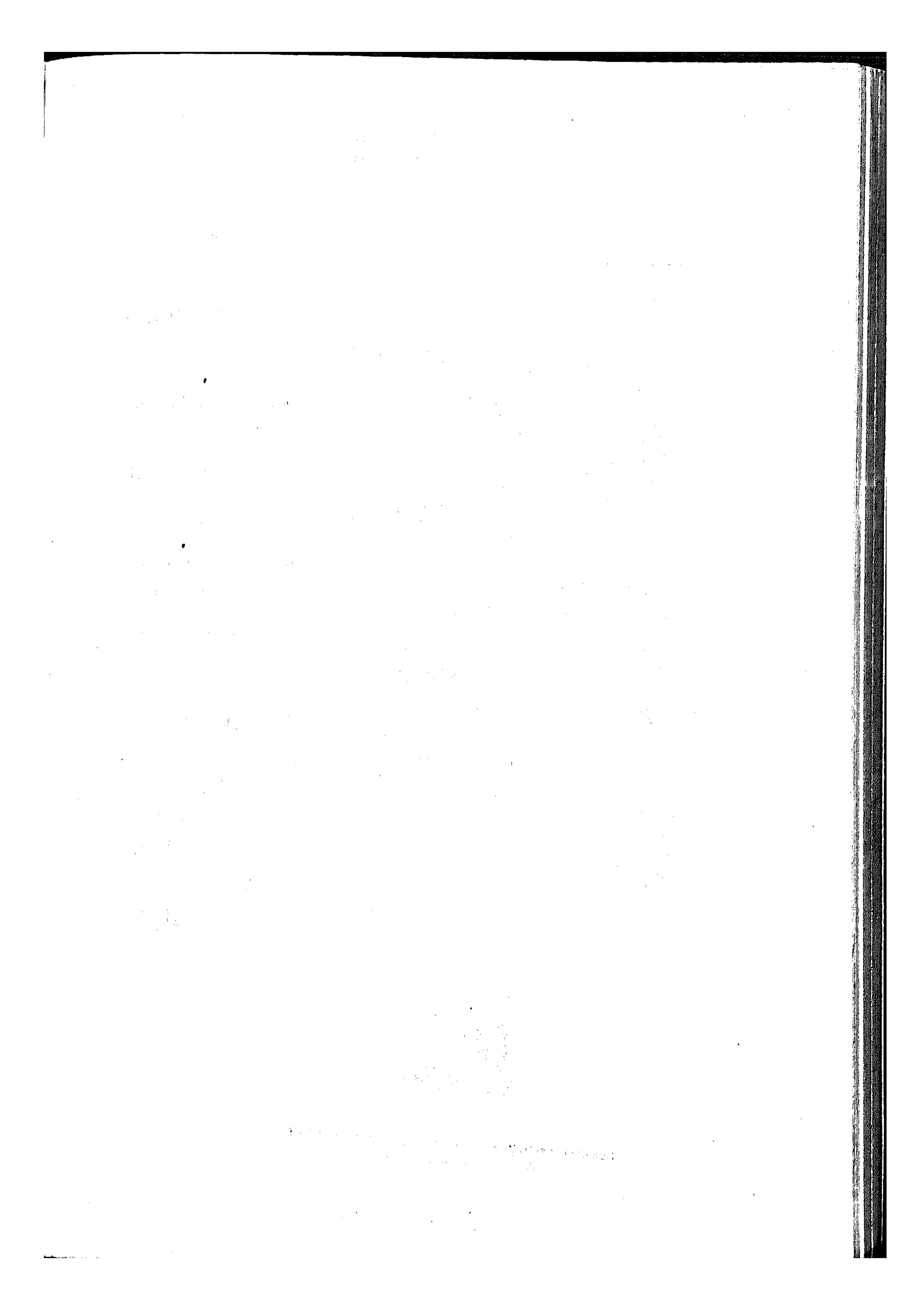
وان وجبت كتابة السير ، فأوجب ما يوجبها ان تكشف جانب الخير في أغوار النفس الانسانية ، لا قصيدة مديح كما يقال بل تحية صدق تمتحن بالنار والنور بين ظلمات الشرور ٠ وهـذه السيرة الرابعة من سير الخلفاء الراشدين لا نسميها بالعبقرية كما سمينا عبقرية عمر وعبقرية الامام وعبقرية الصديق ، لأننا لا نؤمن بالعبقرية لعثمان ــ رضي الله عنه ــ ، ونؤمن في الحق أنه ذو النورين : نور اليقين ونور الأريحية والخلق الامين ، ومن أبى عليه ميزانه أن يحابي في كلمة تستدعيها المجاراة لما سبقها من الكلمات لن ينظم قصائد المديح في محراب التاريخ ، فحسب النفس البشرية أملا أنها غنية بالحق عن قصائد المديح في هذا المحراب ٠

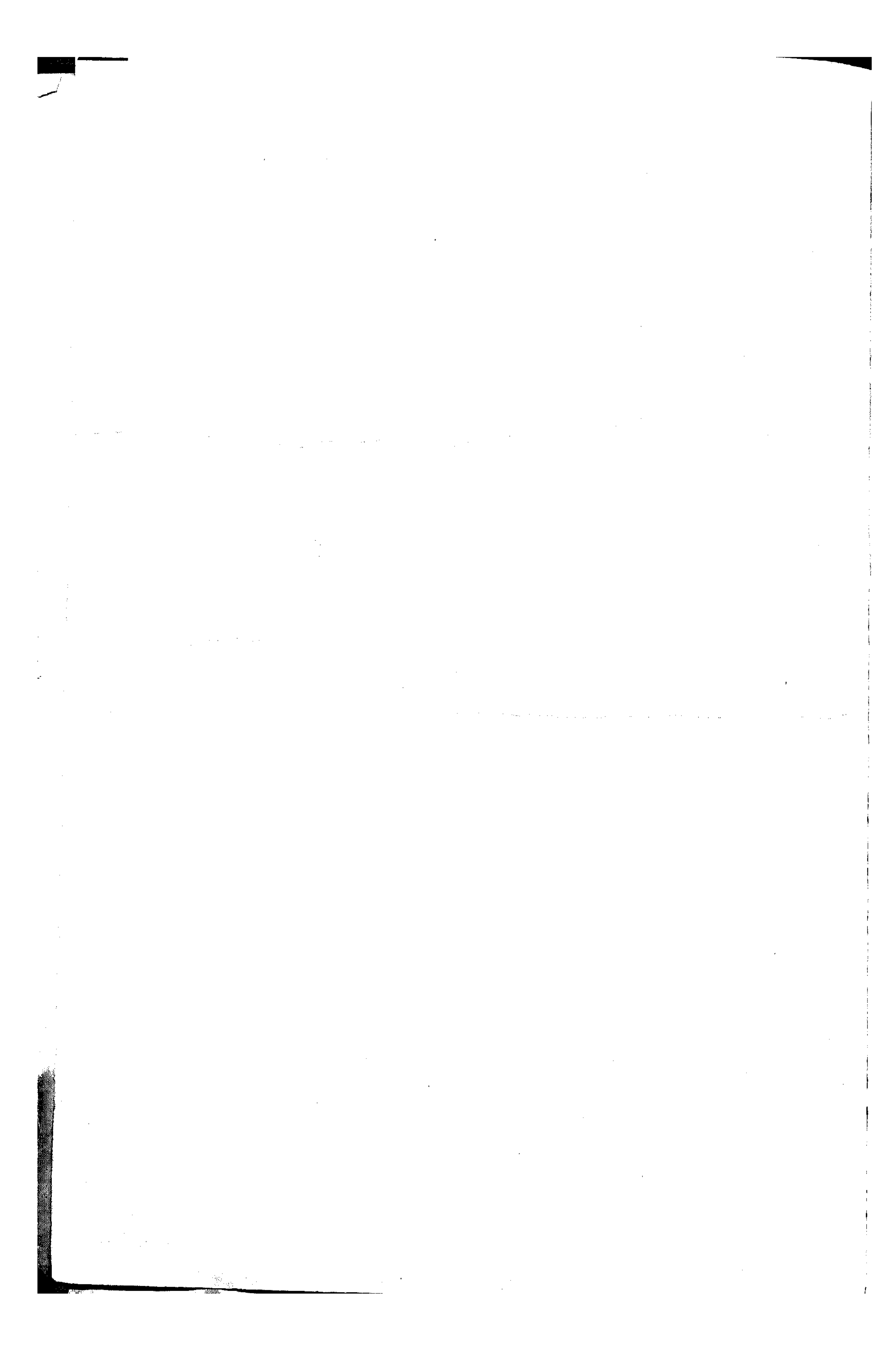
---

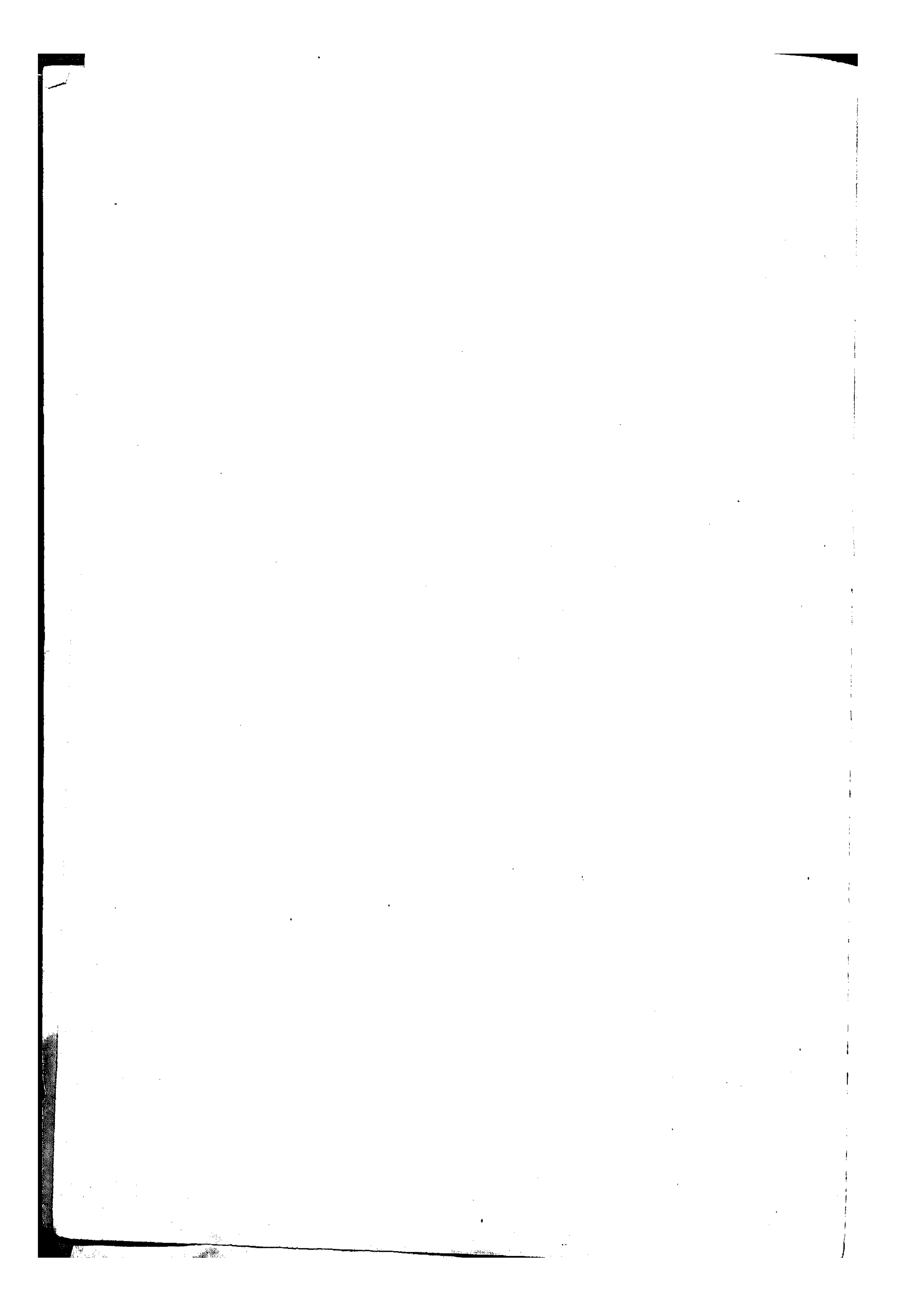
(١) تخوم : حدود ٠ (٢) المحيق به : المحيط به ٠

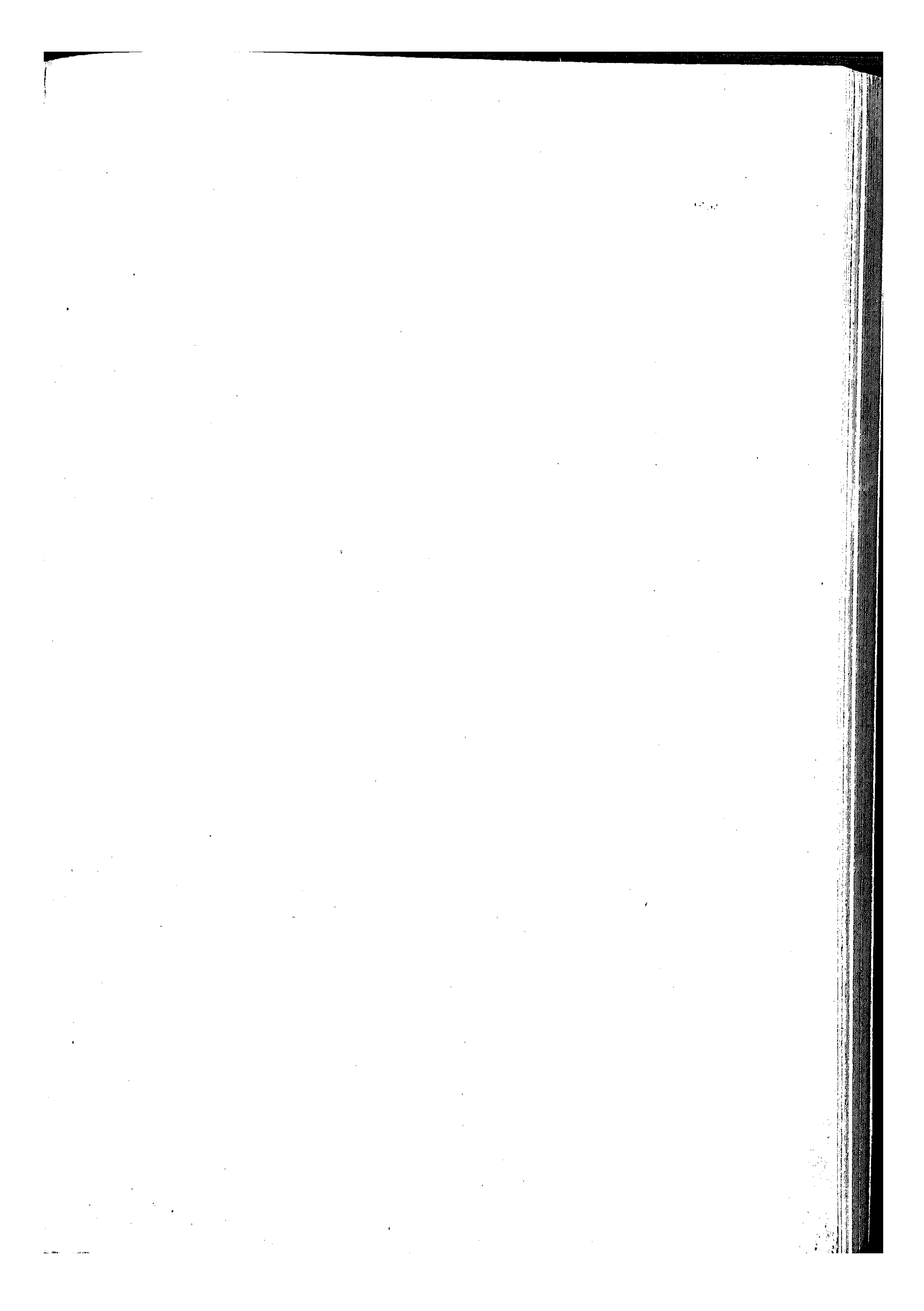
الفهرست











61